

د. محمد عمارة

الطريق إلى اليقظة الإسلامية

دار الشروق

الطريق إلى
اليقظة الإسلامية

الطبعة الأولى

١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

جميع الحقوق محفوظة

© دار الشروق

القاهرة ١٦ شارع جلال حسن - هاتف ٢٩٢٤٨٨١ - ٢٩٢٤٨٧٨
بوليا شريف - تكسر
بيروت ١٠٦٤ - هاتف ٢١٥٨٥٩ - ٨١٧٧١٤ - ٨١٧٦١٣
بوليا شريف - تكسر
SHOROK 2017 L.E

د. محمد عمارة

الطريق إلى اليقظة الإسلامية

دار الشروق

الغلاف للفنان حلمى التونى

تَمْهيد

من « غانة » إلى « فرغانة » .. إذا انطلقنا من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى ..

ومن جزر الفلبين - عند خط الطول ١٢٠° - فى الشرق إلى أقصى الغرب فى إفريقيا .. إذا انطلقنا من الشرق إلى الغرب ..

ومن أعلى نهر الفلجا - عند خط العرض ٦٠° - شمالا إلى أواسط إفريقيا ، جنوبى خط الاستواء ..

ومن « ملقا » بالملايو شرقا إلى « ملقة » ، بالأندلس غربا ! ..

ومن غينيا الجديدة ، فى أقصى الشرق الآسوى إلى جمهورية غينيا ، فى أقصى الغرب الإفريقى ...

يمتد عالم الإسلام وداره . وتتصل وتترابط بلاد المسلمين ..

خمس وثلاثون مليونا من الكيلو مترات المربعة ، تقوم عليها سبع وخمسون دولة ، يتحكم موقعها فى أهم الطرق والممرات للملاحة البحرية والجوية العالمية ... وفيه تتنوع المناطق المناخية : الحارة والمطيرة .. والصحراوية .. والمتوسطة ... وفى أرضه ، شبه البكر ، تقبع كنوز الثروات الطبيعية ..

فهو الأول في ثروة البترولية ، وينتج منه ٦٠٪ من الإنتاج العالمي
وهو الأول في ثروة المنجنيز ، وينتج منه ٢٤٪ من الإنتاج العالمي
وهو الأول في ثروة الكروم ، وينتج منه ٤٠٪ من الإنتاج العالمي
وهو الأول في ثروة القصدير ، وينتج منه ٥٦٪ من الإنتاج العالمي
وهو الأول في ثروة البوكسيت ، وينتج منه ٢٣٪ من الإنتاج العالمي
وهو الثاني في ثروة النحاس ، وينتج منه ٢٥٪ من الإنتاج العالمي
وهو الثاني في ثروة الفوسفات ، وينتج منه ٢٥٪ من الإنتاج العالمي
وهو الثالث في ثروة الحديد ، وينتج منه ١٢٪ من الإنتاج العالمي
وهو الخامس في ثروة الرصاص ، وينتج منه ١٠٪ من الإنتاج العالمي
وهو السابع في ثروة الفحم - الذي تراجعت أهميته أمام البترول - .

وعلى أرض هذا العالم - عالم الإسلام - ، ذى الموقع الحاكم ، والثروات الهائلة ، يعيش أكثر من مليار نسمة ، أى ربع سكان العالم .. ونسبة التوالد بينهم هى أعلى نسبة توالد فى العالم - ٢١٪ - الأمر الذى يرشح سكان العالم الإسلامى للقفز ، قريبا ، إلى ثلث سكان هذا الكوكب الذى يعيش عليه الإنسان ! ^(١)

وفوق الموقع الحاكم ، والمساحة الشاسعة ، والثروات الهائلة ، ورأس المال الوفير ، والأيدى العاملة والعقول المفكرة التى تفيض ، مهاجرة ، إلى خارج الحدود !

(١) انظر فى هذه الحقائق والأرقام : د . اسماعيل أحمد باغى ، محمود شاكر [تاريخ العالم الإسلامى الحديث والمعاصر] ج ١ ص ١١ - ١٢ . طبعة الرياض سنة ١٤٠٤ هـ سنة ١٩٨٤ م . ومحمود شاكر [اقتصاديات العالم الإسلامى] ص ٢٢٨ طبعة بيروت سنة ١٣٩٩ هـ سنة ١٩٧٩ م

فوق كل ذلك وأهم من جميعه فإن سكان هذا العالم يمتلكون ميزات « الأمة الواحدة » وطاقاتها وإمكاناتها . ونجمعهم جميعا السمات والقسمات التي تولف بينهم حضاريا بالحضارة الإسلامية الواحدة . وفي القلب والعقل من كل فرد من أفراد هذه الأمة الواحدة . ذات الحضارة الواحدة هذه العقيدة الدينية . التي تجمع الكل على إله واحد . ونبي واحد . وكتاب واحد . وقبلة واحدة ... وهي ذات العقيدة التي سبق وجعلت من قبائل الجاهلية الجاهلة المتناحرة خير أمة أخرجت للناس . وصنعت من البداوة أعظم المنارات الحضارية التي عرفها تاريخ الإنسان . وصاغت من شتات القبائل والشعوب جسدا حضاريا واحدا . إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى !

وإذا كانت العقيدة لم تتغير ولم تبدل . لأن الذي أوحى بها ، سبحانه ، قد تعهد بحفظها . [إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون] ^(١١) . فلماذا هذا الانقلاب إلى التقيض ^(١٢) .

الأمة الواحدة ، غدت شرادف تشدها سلاسل التبعية الفكرية والحضارية والاقتصادية والسياسية والعسكرية إلى مراكز التوجيه والتأثير خارج عالم الإسلام . وبعيدا عن مصالح أمة الإسلام ^(١٣) .

والموقع الحاكم . بدلا من أن يكون ميزة تشر القوة والمنعة . غدا مجرد إغراء للأثم الأخرى . بل ولشداذ الآفاق . بالتكاليف عليه وعلى إمكاناته بالسلب والنهب والتزيق ^(١٤) .

والثروات الهائلة ، مثلها كمثل الموقع الحاكم ، لم تعد مصدر الثراء وطاقة التقدم وسياج الاستقلال للأمة ، وإنما غدت قيودا وأغلالا تشد عالمنا وأمتنا بحبال الاستغلال الاقتصادي إلى خزان الاحتكارات العالمية وشركاتها الكونية المتعددة الجنسيات ؟! ..

وأرض الفتوحات ومواطن الفاتحين ، الذين فتحوا في ثمانين عاما أكثر مما فتح الرومان في ثمانية قرون ، وحروبا - على عكس الرومان وغيرهم من الفاتحين - بفتوحاتهم هذه جوهر الإنسان ومحيطه : الضمير ، والأرض ، والفكر ، والإرادة ، وقوة العمل ، والمواريث الفكرية المقهورة ، لبصوغوا من كل ذلك - بأدوات الإسلام ومعاييره - حضارة جديدة لعالم جديد ... هذه الأرض الحرة ، وأهلها الأحرار لماذا دخلوا في الرق والاستعباد للآخرين ؟! لماذا أخرجوا من ديارهم ، تهجيرا حيناً وعزلاً عن امتلاك مقدرات هذه الديار في معظم الأحيان ؟! .. بل ولماذا بلغوا في استكانة الرق والاستعباد إلى حد المظاهرة والتأييد والتبعية للذين يقاتلونهم في الدين والدنيا ويخرجونهم من الديار ؟! ..

إن الطاقات والإمكانات لم تتبدد بعد .. بل لقد زادت بالاكشافات الحديثة ، وهي دائمة الازدياد ...

وإن العقيدة ، التي صنعت الحضارة عندما تجسدت في الواقع الديني موظفة عبقرية الإنسان في عمارة الأرض وتمدن المجتمع وسياسة الدولة كخليفة عن الله سبحانه وتعالى .. هذه العقيدة ، هي الأخرى لم تتبدل ، بل لقد زادت العلوم والمعارف مضاء وكشفت لنا منها الجديد من الطاقات والإمكانات ... فأين الحلل إذن ؟ .. ولماذا هذه الغفلة التي تحول بين العقيدة وبين التجدد

الحضارى مرة أخرى ؟! .. وكيف ولماذا ومتى دخلت هذه الأمة دور التوقف
فالتراجع فالجمود ؟ .. وكيف السبيل إلى يقظة إسلامية تبعث حضارتنا الإسلامية
من جديد ، هذا البعث الذى يجعل هذه الأمة الواحدة تتقدم إلى الإنسانية ،
مرة أخرى بالإسلام - رسالتها الخالدة - لتسهم من جديد فى إخراج الإنسانية
من المأزق الحضارى الذى يمسك منها بالخناق ١٩ ..

ذلك هو موضوع ومهمة صفحات هذا الكتاب ..
ومن الله تسميد العون .. فهو ولى التوفيق والسداد ..

دكتور

محمد عمارة

رمضان ١٤٠٨ هـ

مايو سنة ١٩٨٨ م

القاهرة

هل المسلمون أمة واحدة ؟

لكن البعض ، وإن سلم بوجود الإمكانيات المادية والثروات الاقتصادية التي تمتلكها الدول الإسلامية ، إلا أنه يمارى في امتلاك المسلمين خاصية وإمكانية وطاقة « الأمة الواحدة » ويدعى أنهم « أمم » لا تمتلك مالموحدة الأمة من طاقة وإمكانات ..

فقدّر من أقدار الذين يعرضون هذه القضية مواجهة مفاهيم الحضارة الغربية عن « القومية » و « الأمة » و « الشخصية الوطنية » . لأن هذه المفاهيم - التي تحتل قطاعا هاما ومؤثرا من عقل « النخبة » و « الصفوة » و « المثقفين » المسلمين في عصرنا - تشكلت في وحدة الأمة الإسلامية وتنكّر كون المسلمين أمة واحدة - بالمعنى الدقيق للأمة - من دون الناس ! ..

ولقد غدت هذه المفاهيم الغربية عن « الأمة » . في واقعنا الراهن . تيارات فكرية ومذاهب في المعرفة يحرط فيها ويشمذهب بها أولئك الذين ينكرون مقولة « وحدة الأمة الإسلامية » إنكارا شديدا .. والذين ينظرون في أدبيات هذه التيارات والمذاهب بطانعون مصطلحات : « الأمة المصرية » و « الأمة السورية » و « الأمة التونسية » و « الأمة الفارسية » و « الأمة الأفغانية » .. الخ .. الخ .. بل ويفرغون الدراسات السبارة - وأحيانا المتخصصة - عن « الشخصية القومية » المستقلة - عربية ، وزنجية ، بل وليبية ، وتونسية ، ومعربية .. الخ .. الخ .. لا باعتبارها لبنات في بناء الأمة

الإسلامية الواحدة ، وجزرا في المحيط الإسلامي الأوسع ، وجزئيات في الكل الإسلامي الأشمل ، وإنما باعتبار كل منها كيانا قوميا يكون شخصية قومية مستقلة تمام الاستقلال ، وأمة قائمة بذاتها من دون التماس ..!

فأين الحقيقة في هذا الموضوع ؟ ..

هل المسلمون أمة واحدة ؟ حتى يتوجه إليها حديث واحد عن البقعة والنهضة ، المتحدة الخصائص والشروط ؟ ..

أم أنهم أمم ، بتعدد الأوطان والقوميات والأجناس التي تتوزع عالمهم الإسلامي الكبير ؟ ! ..



إن الكثير من المعاجم والقواميس التي عرضت وتعرض بالتعريف لمصطلح « الأمة » - وخاصة تلك التي تأثرت بالمضامين الغربية لهذا المصطلح - قد تميز تعريفها لهذا المصطلح بالضغط والتحديد ، على تفاوت في السمات والقسيمات والشروط التي وضعتها وتضعها هذه المعاجم والقواميس للجماعة البشرية الجديرة بأن تكون « أمة » متميزة عن غيرها من الأمم الأخرى ..

ففي الموسوعات والمعاجم ذات التوجه الفكري المادي ، تنصدر العوامل المادية الشروط والسمات التي تؤهل الجماعة البشرية لتكوين « أمة » ، حتى تعتبر « السوق » و « الحياة الاقتصادية المشتركة » هي البوثة التي تنصهر فيها الأمة ، و « الرحم » التي تولد منها . مع ما يلزم لهذه « السوق » من « أرض مشتركة » . ثم ، في الميدان الفكري والثقافي ، « تكويننا نفسيا مشتركا » ، يربط بين هذه « الأمة » بروابط المشاعر والأحاسيس والمثل والمزاج والقيم

والذكريات والموارث والآلام والآمال^(١) .. الخ .. الخ ..

وبعض هذه القواميس والمعاجم يذهب في التحديد والضبط لشروط « الأمة » وسماها وقسماتها بعيدا ، حتى ليحفظ خطأ واضحا بين « الأمة » و « الدولة » . ف يرى أن « الأمة » : جماعة سياسية مستقلة ذات إقليم محدد ، يشترك أعضاؤها في الولاء لمؤسسة واحدة ، مما يؤدي إلى إحساسهم بالوحدة ، وبأنهم يكونون مجتمعاً . ولا يلزم لقيام الأمة أن تكون ذات أصل مشترك ، أو لغة واحدة . أو دين أو عنصر واحد ، وإن كانت الأمم تتكون عادة اعتماداً على التاريخ المشترك ووجود عناصر ثقافية متشابهة ..^(٢) .

وينحو نحو هذا النهج ذلك التعريف الذى يرى « الأمة » : جملة الأفراد الذين يكونون وحدة سياسية ، وتجمع بينهم وحدة الوطن والتراث والمشاعر من آلام وآمال ..^(٣) .

فهذا الخلط بين « الأمة » و « الدولة » هو ثمرة من ثمار التأثير الفكرى الغربى فى مادة ومضمون هذه المعاجم والقواميس « العربية » ، وهو ، أيضا ، خادم للأهداف الغربية من وراء إشاعة هذه المصامين فى هذه التعريفات التى تكون وتلون وتصنع فكر القراء والباحثين العرب والمسلمين فى هذا المبحث .. مبحث « الأمة » وتحديد ماهيتها ونطاقها !! ..

فلحاضرة الغربية قد صاغت « للأمة » ، أمثال هذه التعريفات ، التى خلطت بينها وبين « الدولة » ، لأن « أمة » هذه الحضارة قد امتلكت كل

(١) [الموسوعة الفلسفية] وضع جنة من العلماء والأكاديميين السوريين - بالشراف : م . زورتال .

- يديده : ترجمة سمير كرم طبعة بيروت سنة ١٩٧٩ م

(٢) [قاموس علم الاجتماع] تقرير ومراجعة : د . محمد عاطف غيث طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩ م .

(٣) [المعجم الفلسفى] وضع : مجمع اللغة العربية - بالقاهرة طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩ م .

منها - تقريبا - « دولتها » الحرة المستقلة .. وبعض « دول » هذه الحضارة ، وإن ضمت « أمتا » متعددة ، فليس في إطارها « أمة » فتتها القهر الاستعماري فحرمها من امتلاك « الدولة » الواحدة للأمة الواحدة .. فاللتطابق الواقعي قائم في إطارها بين « الأمة » و « الدولة » .

وشيوخ هذا المفهوم - الذي يطابق بين « الأمة » و « الدولة » - و قواميس ومعاجم الأمم التي مزقتها القهر الاستعماري الغربي ، أو المصالح الإقليمية الضيقة لبعض العائلات والطبقات ، والتي أثمرت نظم « ملوك الطوائف » ، الذين صنعهم ويرعاهم الاستعمار وهيمنة الحضارة الغربية .. إن شيوخ هذا المفهوم بهم ولا شك في تشكيل هذه الأمم بوحدها ، فبفقدتها الاتجاه الموحد نحو استكمال وحدتها كأمة . وبحر إقامة الدولة الواحدة التي ترسخ وحدة الأمة وتنمي سماتها وقسماتها .. وهنا نهض المفاهيم الغربية - عندما توظف خارج إطارها وتزوع في غير أرضها - بدورها في مؤازرة غيرها من أدوات القهر والاستلاب التي صنعتها وبصنعها الاستعمار .. وفي هذا الإطار ، ونحت هذا الضوء يجب أن نرى قيمة ومرامي ونتائج دعوى الذين ينطلقون من مفاهيم الحضارة الغربية عن « الأمة » لينكروا وحدة المسلمين كأمة ؟ ..!

ومن هذه المعاجم والقواميس من يرى من آفة الخلط بين « الأمة » و « الدولة » ، مع تميزه ، في تعريفه للأمة ، بخصائص التعريفات المطبقة الحديثة ، التي تحاول استقصاء السمات والصفات والشروط والحدود ، كي يكون التعريف أقرب مايكون إلى التعريف « الجامع النافع » ، فنجدتها تعرف

« الأمة » - قانوناً - بأنها : « جماعة من الناس تجمعهم عناصر مشتركة ، كوحدة الأصل واللغة والعقيدة والتركيب الفكري ، مما يجعلهم وحدة حضارية واحدة ، ويخلق بينهم شعوراً بالانتماء إلى تلك الوحدة وتعلقاً بها . والأمة حقيقة اجتماعية وحضارية ، بخلاف للدولة ، التي تعتبر وحدة سياسية وقانونية . ويلاحظ أن الأمة الواحدة قد تكون موزعة بين عدة دول ، كما كان الشأن بالنسبة للأمة العربية . كما أن الدولة قد تضم عناصر من أمم مختلفة . كما كان الشأن بالنسبة للإمبراطورية العثمانية قديماً ، وسويسرا حديثاً . (١)

نلك هي أبرز المناهج في تعريف « الأمة » بالمعاجم والقواميس والموسوعات الحديثة ، جمعت بينها - رغم التقابل والاختلاف - خاصية القبط والتحديد والاستقصاء للشروط والخصائص والميزات التي لا يد منها حتى نطلق على جماعة بشرية ما مصطلح : « الأمة » ...

ولقد تعمدنا الإشارة إلى هذه الخاصية الحديثة في تعريف « الأمة » ، لنتبرر - كما سبق - افتراضها واختلافها مع النهج العربي الإسلامي في تعريف « الأمة » ، ذلك النهج الذي ابتعد - قاصداً وعامداً - عن القبط والتحديد ، ووقف في التعريف للأمة عند حدود « الجماعة » ، فاعتبر الجماعة - أمة جماعة - التي يربطها رابط ويجمعها جامع - أي كان هذا الرابط و هذا الجامع - اعتبرها : « أمة » متميزة عن غيرها من الأمم ... ذلك أن وراء هذا النهج العربي الإسلامي دلالات فكرية تتم عن خصوصيات حضارية للأمة العربية الإسلامية جديدة بالبلورة والتحديد عندما تبحث عن المفهوم المتغير لمصطلح « الأمة » في حضارتنا العربية الإسلامية وذلك فضلاً عن شهادة هذا

(١) [المعجم الكبير] ومع : جميع اللغة العربية ، القاهرة : طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ م

النهج المتميز في تعريف « الأمة » بوحدة المسلمين كأمة واحدة ، ذات حضارة واحدة ..

مفهوم الأمة في أصول العربية :

يقول الراغب الأصفهاني [٥٠٢هـ - ١١٠٨م] في كتابه [المفردات في غريب القرآن] ، عندما يعرض لتعريف « الأمة » : إنها « كل جماعة يجمعهم أمر ما : إما دين واحد ، أو زمان واحد ، أو مكان واحد ، سواء أكان ذلك تسخيـراً أم اختياراً وجمعها : أمم ... »^(٥) ... فهي : إذا ، الجماعة يجمعها أمر ما فيميزها ، سواء أكان هذا الجامع طبعياً وخلقة وتسخيـراً ، كما هو الحال في الخلق الإلهي للجماعات - أمم - الحيوان غير المختارة ، وفي الجوامع الطبيعية التي تجمع الجماعات - الأمم - الإنسانية .. أو كانت جوامع مختارة وضعية ، كاللغة ، مثلاً ...

وإذا كان العرب والمسلمون القدماء قد اجتمعوا على هذا التعريف للأمة ، فإنهم قد اجتهدوا في تحديد العدد المكون للحد الأدنى للجماعة التي تستحق وصف « الأمة » إذا جمعها جامع وربط بينها رابط ... ففي أحد الأحاديث النبوية ما يشير إلى أن هذا العدد أقله مائة ففي هذا الحديث نطالع قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - : « ما من مئب يصلـى عليه أمة من المسلمين ، يبلغون أن يكونوا مائة ، يشفعون إلا شُفِّعُوا فيه ... »^(٦) ... ومن القدماء من اجتهد فوقف بهذا العدد عند الأربعين .. فلفقد روى أن واحداً ممن سمع إحدى روايات الحديث النبوي المشار إليه ، سأل أحد رواة -

(٥) [دائرة المعارف الإسلامية] الطبعة العربية - الثانية - طبعة القاهرة - دار الشعب - مادة « أمة » ،

من تعليق الأستاذ أحمد محمد شاكر - ونفس الراغب الأصفهاني في [المفردات] ص ٢١ -

(٦) رواه النسائي ، عن عائشة أم المؤمنين

أبو المليح - عن « الأمة » ؟ فقال : « أربعون .. »^(٧) .. وهي تحديدات فرضها الموقف .. واجتهادات لا إلزام فيها ! ..

ولقد استقر ، واستمر هذا المضمون لمصطلح « الأمة » في تراثنا اللغوي ، وعبر معاجمنا العربية^(٨) ، وكتب التعريفات وكشافات مصطلحات العلوم والفنون^(٩) ... ونهج ذات النهج أحدث هذه المعاجم - وهو [المعجم الكبير] - عندما استند إلى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة والشعر العربي - وهي ديوان اللغة العربية ومصادرها المرجعية - فكشف عن أصالة هذا المضمون لهذا المصطلح في لغتنا العربية ..

فالأمة : هي الجماعة [ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر]^(١٠) ..

وهي : الجماعة والجنس من كل حي ، ولو لم يكن بشراً [ما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أُمُّ أمثالكم]^(١١) ..

وهي : الجماعة من الناس يربطها رباط « الجيل والقرن » [كذلك أرسلناك في أمة قد خلت من قبلها أُمم]^(١٢) ..

وهي : أمة - أي جماعة - كل نبي ، الذين أرسل إليهم ، الذين آمنوا منهم ، والذين ظلوا على كفرهم .. فهم جميعاً « أمة الدعوة » ، يجمعها

(٧) رواد السامري ، عن مبعوثه أم المؤمنين

(٨) [لسان العرب] لابن منظور مادة « أمة » - طبعة القاهرة : دار المعارف - بدون تاريخ -

(٩) [كشف اصطلاحات الفنون] للتهانوي . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣ م .

(١٠) آل عمران : ١٠٤

(١١) الأنعام : ٣٨

(١٢) الرعد : ٣٠

جامع الدعوة ورباطها .. والذين آمنوا منهم هم « أمة الإجابة » ، يجمعهم
جامع الإيثان ورباطة الإجابة ..

ثم ، هي : الفرد إذا قام - بامتيازهِ وتمييزهِ - مقام الجماعة .. كالرجل
الذي لانظير له .. والمُعَلِّم الجامع للخير [إن إبراهيم كان أمة قانتا لله
حنيفا]^(١٣) .. والمتفرد بدين الحق رغم طوفان الوثنية والضلال « بُعِثَ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ زَيْدُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ نَفِيلٍ أُمَّةٌ عَلَى حِدَةٍ »^(١٤) ..

كما يطلع المصطلح - مصطلح « الأمة » - على « الدين والملة » ، كجامع
يجمع الجماعة فيجعلها أمة [وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا
قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون]^(١٥) ... وعلى
السنة والطريقة - بهذا المعنى - .. وكذلك على « الحين والزمان » ، كرباط
جامع لمن يعيشون هذا الحين والزمان [ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة
معدودة ليقولن ما يحبسهم]^(١٦) ...

وأخيرا ، يطلق هذا المصطلح - « الأمة » - على « الملئكة » ، كرباط
سياسي يجمع الرعية برباط الدولة ..

وعلى هذا المدرب سار [معجم ألفاظ القرآن الكريم] ، بعد ما نظر في
المواضع التي ورد فيها مصطلح « الأمة » بآيات القرآن ، فقال عن « الأمة » :
إنها « كل جماعة يجمعهم أمر ما » وجمعها : أمم . والأمة : الدين ..

(١٣) النحل ١٢٠

(١٤) حديث مروي عن الرسول - صلى الله عليه وسلم -

(١٥) الزخرف : ٢٣

(١٦) هود : ٨

والحين .. ذلك لأن أربعة وأربعين موضعا من مواضع ورود هذا المصطلح بالقرآن الكريم قد جاء معناه فيها دالا على « الجماعة من الناس » .. بينما جاء في موضعين بمعنى « الحين » .. وفي موضعين بمعنى « الدين » .. وتضمن « القدوة ومعلم الخير » في موضع واحد .. فومئى ، عليه السلام ، عندما ورد ماء مدين [وجد عليه أمة من الناس يسقون]^(١٧٧) .. فهم جماعة جامعها طلب السقاية من ماء مدين .. [ومن ذريتنا أمة مسلمة لك]^(١٧٨) جامعها إسلام الوجه لله .. [ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر]^(١٧٩) .. جامعها التواصى بالحق والصبر على مكاره الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. [وما من دابة فى الأرض ولا طائر بطير نجاحية إلا أُم أمثالكم]^(٢٠) .. والجامع فى كل منها النظام والاشتراك فى نمط الخلقة وطرائق العيش .. الخ .. الخ ..

ولقد كانت الستة النبوية الشريفة الردف الذى سار على نهج القرآن الكريم فى استخدام هذا المصطلح - مصطلح « الأمة » - قاصدا به ذات القصد وواضعا فيه ذات المضمون .. ففيها نجد أحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - : « إن أمتى لا تجتمع على ضلالة »^(٢١) .. وجامعها رباط الإجابة للدعوة المحمدية .. و « صنفان من أمتى ليس لها فى الإسلام نصيب : المرجئة والقدرية »^(٢٢) .. فالعصيان لم يخرج أهلها من جامع الأمة .. و : « لا تزال طائفة من أمتى قوامه على أمر الله ، لا يضرها من خالفها »^(٢٣) .. فكونها حزبا متميزا لم يخرجها عن جامعة الأمة .. و : « انحلت أمة من الأمم »^(٢٤) ..

(٢١) رواه ابن ماجه

(٢٢) رواه الترمذى

(٢٣) رواه ابن ماجه

(٢٤) رواه مسلم

(١٧) القصص : ٣٣

(١٨) البقرة : ١٢٨

(١٩) آل عمران : ١٠٤

(٢٠) الأنعام : ٣٨

و « لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها » (٢٥) .. فهي جماعة ، أى
أمة .. الخ .. الخ ..

فهى ، إذن ، الجماعة .. أمة جماعة يربطها أى رباط جامع هى « أمة »
دونما ضبط أو تحديد لروابط بعضها ، أو لعدد محدد من هذه الروابط
الجماعة ..

ذلك هو المضمون الذى اجتمعت عليه أصول العربية ، وساد فى
حضارتنا الإسلامية .

فهل هذه « المرونة » التى رفضت التحديد والتقييد ، والتى تركت الباب
مفتوحا للروابط المضافة إلى الجماعة ، وكذلك لحدود الجماعة ذاتها .. هل هذا
النهج المتميز وهذه الخصوصية العربية الإسلامية دلالة حضارية فى ميدان العنايز
الحضارى والخصوصيات القومية يمكن رصدها عندما تكون المقارنة بين الأمم
والحضارات ؟! .. وهل فى ذلك مايلقى ضوءا على أمر دى بال فى مفهوم
« الأمة » بحضارتنا العربية الإسلامية ؟! .. على النحو الذى يكون شاهدا
صادقا على « وحدة الأمة الإسلامية » ؟؟ لننظر ...



أمة تنحو نحو العالمية :

فى الحضارة الغربية . ساد مصطلح « الأمة » فى مرحلة تبلورت فيها
القوميات . على أنقاض الرابطة اللاهوتية المسيحية الجامعة فكان الاستقلال

(٢٥) رواه أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه والدارمى وابن خنبل

والانسلاخ هو طابع المرحلة ، ثم كان الطابع الصراعى الذى تولد من تناقضات المصالح الرأسمالية عاملا هاما فى تأجيج العصبية القومية ، فكان البحث ، فى إطار الفكر القومى الغربى ، عن الفواصل وعوامل التمايز بين الأمم والقوميات ، فرأينا الضبط والتحديد للسمات والشروط الجامعة المانعة فى تعريف « الأمة » ، إذكاء لروح التميز ، الذى صار بوتقة لإبراز « المغايرة » القومية ، وشحنا للوجدان القومى كى يدفع كل أمة إلى الغلبة فى حلبة الصراع على المصالح والاقاليم . داخل أوروبا أولا ، وخارجها بعد ذلك ، إن فى العالم الجديد أو القديم ، طلبا لمصادر الثروة ، والأيدى العاملة الرخيصة ، وتحقيقا للهيمنة والاحتواء .

تلك كانت ملابسات الصباغة والتحديد لمضمون مصطلح « الأمة » فى الفكر القومى للحضارة الغربية ..

ولما كانت ملابسات صباغة مضمون هذا المصطلح فى حضارتنا العربية الإسلامية مغايرة تمام المغايرة ومخالفة كل الاختلاف لتلك الملابسات الغربية . بل وعلى التقيض منها ... فلقد تميز عندنا هذا المفهوم والمضمون لمصطلح « الأمة » تميزا كبيرا

فالطور العربى الإسلامى لحضارتنا ، الذى تبلور على أرض أمتنا بعد الإسلام . والذى تعيشه هذه الأمة . كامتداد متطور لموارثها الحضارية والفكرية التى سبقت ظهور الإسلام .. هذا الطور العربى الإسلامى لم يكن طور انسلاخ عن رباط أشمل ، ولا استقلال عن كيان أكبر . ولا بحث عن العوامل المميزة . والقواصل والحواجز .. وإنما كان على العكس من ذلك . طور جمع وتأليف للفكر الحى المتوقد الذى جاء به الإسلام مع الموارث

الفكرية والحضارية التي وجدها العرب المسلمون في البلاد التي دخلت في عالم الإسلام . وللجماعة العربية المسلمة التي انطلقت من شبه الجزيرة مع الشعوب التي توحدت في إطار الدولة العربية الإسلامية الجامعة . فلم يكن هم هذه الحضارة . وجماعتها البشرية . ومن ثم لغتها العربية - البحث عن ما يميز ويحدد ويفصل . طلبا للاستقلال القومي عن كيان أوسع ورابطة أشمل . وإنما كان همها هو البحث عن عوامل التأليف لأمة أكبر وجامعة أشمل وحضارة أوسع . ولذلك . فلقد وقفت هذه الحضارة - ولغتها العربية - بمضمون ومفهوم « الأمة » عند مضمون الرباط الجامع للجماعة . أيا كان هذا الرباط . وذلك حتى يظل الباب مفتوحا للتأليف والاستيعاب . وحتى تمتد مساحة تأثير وفعالية « النواة الإسلامية » فتشمل دائرة حضارتها كل الجماعات التي تدخل دائرة حضارة الإسلام . حتى ولو لم تتدين بدين الإسلام . ولقد دعم من هذا التوجه : عالمية الرسالة الإسلامية . وأهمية العقيدة في الدين الإسلامي وأيضاً كونها الرسالة الخاتمة . التي جاءت لتسوعب ميراث الماضي - بالإحياء والتجديد - ولتصوغ منه - بمعايير الإسلام - حضارة مستقبلية . ذات نزوع عالمي . لانتكر التمايزات بين الجماعات البشرية ، ولاتحاربها . ولكنها تهذب شدورها . لتؤلف التمددية القومية في بلورة وإتمام وتطوير حضارة ذات نزوع عالمي . لهذا كان وقوف هذه الأمة عند اتخاذ الأدنى من الروابط في مضمون « الأمة » ومفهومها . طلبا للحركة . ونزوعا للامتداد . وتوجها للتأليف . ورفضاً لعصبية الانغلاق وتعصب الاستعلاء على غيرها من الجماعات والأمم والحضارات .

لقد كان توجهها للامتداد الاندماجي . لا للاستقلال الانفصالي . وكان احتياجها على أن « تحققها » إنما هو مهمة دائمة ومستمرة . لا بالمسح والنسخ

للموارث والقسمات الحضارية الأخرى - كما حاولت وتحاول ذلك الحضارة الغربية مع غيرها من الحضارات - وإنما بالإحياء والتجديد والتطوير والاستيعاب لما هو قابل وصالح للإحياء والتجديد والاستلهاهم من الموارث الفكرية والحضارية على اختلاف مواطنها ومياديتها وألوانها ..

إنه منطقي متميز .. وتوجه متميز ، أثر هذا التميز لفهوم « الأمة » في حضارتنا العربية الإسلامية عنه في غيرها من الحضارات . وعنه في الحضارة الغربية على وجه الخصوص ..

● ففي قريش ، بمكة ، نزل الوحي الإلهي على المصطفى محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وسلم - برسالة الإسلام .. فكانت « للتوحيد الديني » الإسلامي - الذي بلغ الذروة في نقاء التنزيه والقمة في التجريد - كانت لهذا « التوحيد الديني » آثاره العظيمة في « توحيد هوية » الجماعة البشرية العربية - التي كانت الوثنية المتعددة تجسد وترمز إلى تشردمها وتمزقها القبلي في الجاهلية .. وذلك دون أن تعني هذه « الجامعة القومية العربية » سيادة قريش ، ولا تجاهل التمايزات القبلية أو القفز على واقعها .. وإنما كانت هذه الظاهرة التوحيدية الوليدة « تأليفا » للقبائل المتميزة ، و« وحدة » لا تنكر « التعددية » .. حتى لقد عدت من معجزات الإسلام التي أيدعها الله ، سبحانه ، في الواقع الإسلامي الجديد [وأثف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما أثفت بين قلوبهم ولكن الله أثف بينهم ، إنه عزيز حكيم] (٢١)

ولم يقف هذا الوليد الحضاري بنطاق الأمة ومفهومها عند حدود

« القبائل العربية » ، فلقد كانت مرحلة تجاوزها التأثير التوحيدي ، الذي بدأ من فريش . مستعينا بها على إنجاز أكبر في دائرة أوسع ، هي دائرة وحدة « القبائل » و « الشعوب » .. فكما أنجز الإسلام وحدة القبائل ، دونما إنكار لتمايزها ، توجه إلى إنجاز وحدة « القبائل » و « الشعوب » ، بمعيار « التأليف » وفي إطار « التعارف » ، الذي لا يبغي التمايز ، ولا يقفز على الخصوصيات . وإن أتاح الفرص وخلق الأطر للتفاعل والتوحيد .. فتح التعددية تكون وحدة الأمة الطامحة إلى الامتداد الطوعي [يأياها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير]^(٢٧) .. فالانجاء إلى الأمة العالمية ، لا ينكر أن التعددية هي سنة من سنن الله في الكون والخلق .. [ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن في ذلك لآيات للعالمين]^(٢٨) ..

إنها أمة « دالمة التَّحَقُّق » .. بل إن ديمومة هذا التَّحَقُّق - عمقا واتساعا - هو معيار حيويته ونهوضها برسالتها العالمية والخالدة التي أرادها لها الله ! ..

ولذلك ، فلقد وازنت هذه الأمة ، وهي تحقق امتدادها وتبلور حضارتها بين « الخاص » و « العام » .. فكما أنجزت « وحدة » القبائل ، دون إلغاء للقبيلة ، وإنما يجعلها لبنة في بناء أشمل ، هو بناء الأمة الجديد - وذلك بعد أن كانت كيانا مستقلا تماما ومستعصيا على الترويض - .. كذلك وجدناها تقيم - بواسطة « التعارف » - الذي هو التفاعل الطوعي - رباطا جامعاً بين « القبائل » و « الشعوب » .. حتى لقد احتضن محيطها الجامع ، كأمة وحضارة ، « الجزر القومية » ، فجمعها جميعا بخيوط الحضارة الإسلامية ،

دون أن ينكر عليها التمايز القومي المبرراً من العنصرية العرقية وضيق الأفق الجنسي . . . فعرف مفهوم الأمة ، في فكرنا الحضاري ، وفي تجربتنا التاريخية وميراثنا الاجتماعي الدوائر التي تبدأ من « الفرد » إلى « الأسرة » - أو القبيلة والعشيرة إلى « الشعب » ، إلى « الأمة » - بالمعنى القومي - إلى « الجماعة الإسلامية » . . . مع السعي الخثيث إلى تعميق الرباط الجامع . . . وإلى مد نطاقه إلى أفق جديد . . . بل لقد مدت الدائرة الإسلامية مع الدائرة الإنسانية الخيوط والعلاقات والأسباب . . .

لقد كان « الإسلام » - الدين - وكانت « الجماعة العربية الإسلامية » - كأمة - وكانت « الحضارة العربية الإسلامية » - كأبداع تزاامل في صنعه : الرحي الديني وعلومه مع الموارث الفكرية والحضارية لشعوب البلاد التي دخلت عالم الإسلام - وكانت « الدولة » كأداة للدين والحضارة - . . . كان جميع ذلك ، في مسيرتنا الحضارية وتجربتنا التاريخية وممارساتنا الاجتماعية أشبه مايكون بالدوائر الدائمة الاتساع ، حركتها ذلك المصطفى . محمد بن عبد الله - عليه الصلاة والسلام - منذ أن أتاه وحى ربه قائلا : [اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم] (٢٩) . . .

● ففي « الدين » . . . بدأ الرسول - صلى الله عليه وسلم - فجعل « أمة الدعوة » الأقربين من عشيرته . . . [وأندرك عشيرتك الأقربين] (٣٠) . . . ثم عمم الدعوة على نحو جعل نطاق « أمة الدعوة » كل القوم والعشيرة - وهم « الجماعة

(٢٩) العلق : ١ - ٥

(٣٠) الشعراء : ٢١٤

الذين تربط بعضهم ببعض روابط دم أو نسب أو اجتماع» (٣١)

ولقد حدث الله سبحانه وتعالى ، هذه الأمة عن خصوصيتها القومية التي تميزها ، بالمجد والمسئولية - معا - في إطار هذه الدعوة العالمية ، فقال لها عن القرآن الكريم ، عبر خطابه لبيبه ، عليه الصلاة والسلام : [فاستمسك بالذي أوحى إليك إنيك على صراط مستقيم . وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون] (٣٢) . وفي ذات الوقت كان حديثه القرآني عن عالمية الدعوة .. فحمد - صلى الله عليه وسلم - رسول الله إلى العالمين [وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين] (٣٣) . [تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا] (٣٤) . وقرآنه الكريم موجه إلى العالمين [قل لا أسألكم عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين] (٣٥) . [وما نسألكم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين] (٣٦) . [وما هو بقول شيطان رجيم . فآين تذهبون . إن هو إلا ذكر للعالمين] (٣٧) ..

وفي الحديث النبوي الشريف يتحدث الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن اختصاص رسالته بالعالمية ، فيقول : « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي : كان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، ويبعث إلى كل أحر وأمسود وأجلت إلى الغنائم ، ولم تخل لأحد قبلي . وجعلت لي الأرض طيبة طهورا ومسجداً . فأبأ رجل أدركته

(٣١) [معجم ألفاظ القرآن الكريم] وضع - مجمع اللغة العربية - بالقاهرة - طبعة القاهرة سنة ١٩٧١ م

(٣٢) الزخرف : ٤٣ : ٤٤

(٣٣) الأبياء : ١٠٤

(٣٣) الأبياء : ١٠٧

(٣٧) التكاوير : ٢٥ - ٢٧

(٣٤) الفرقان : ١

(٣٥) الأنعام : ٩٠

الصلاة صلى حيث كان وتُصرتُ بالرعب بين يدي مسيرة شهر وأُعطيْتُ
الشفاعة» (٣٨)

فشرف العرب في الإسلام . الذي تمثل في اصطفايتهم - كجماعة - أمة -
لحمل رسالته إلى العالمين . يزامل عالمية الدعوة ، ولا يتخكرها ، إنه الانساق
مع المفهوم العربي الإسلامي المتميز لمصطلح « الأمة » ونطاقها الذي لا نعرف
أفاقه الحدود !..

● وفي « الدولة » كانت البداية « عربية » - بالمعيار القومي العربي -
ثم انداحت دائرة الدولة وبنية تكوينها لتستشرف « العالمية » ، التي صنعت
ثوبها من نسج سداه « العروبة الحضارية » ولحمته « الإسلام
الحضارى »!؟ صانعة ذلك المزيج الحضارى الجديد والفريد !

لقد تأسست دولة المدينة ، التي أقامها المسلمون الأوائل تحت قيادة
النبي - عليه الصلاة والسلام - وفق معيار « العروبة الحضارية » ووجدنا
« دستورها » - الذي اشتهر في التاريخ ومصادره بـ « الصحيفة » وبـ
« الكتاب » - يعدد « اللبانات » التي كوَّنت بناء الرعاية في هذه الدولة ، فإذا
هي جميعا « قبائل عربية » . وفي هذا « الدستور » وجدنا الخمس بين « أمة
الدين » و « أمة السياسة » ، كما وجدنا الربط بينهما : فالوحدة قائمة على
الغايز .. القبائل تتوحد في الأمة .. والعرب المؤمنون - من المهاجرين
والأنصار - هم « أمة الدين » . وهم مع القطاعات العربية المتهودة من قبائل
المدينة يكونون « أمة واحدة » أمة السياسة والقومية . فالمسلمون « نواة » .
منها تبدأ دائرة الدولة ، لتنداح شاملة العرب المتهودين ، استشرافا لدائرة

(٣٨) رواه البخارى ومسلم والترمذى والدارى وابن حنبل

أوسع .. دائرة الشعوب الأخرى والقوميات الأخرى .. وعن هذه الحقيقة حول مفهوم الأمة في الدولة العربية الإسلامية الأولى يقول « دستور » دولة المدينة :

« هذا كتاب من محمد النبي [رسول الله] بين المؤمنين والمسلمين من قريش و [أهل] يثرب . ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم . أنهم أمة واحدة من دون الناس . وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم .. وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا يحاربون . وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم .. وأن لليهود بني النجار .. وبني الحارث . وبني ساعدة . وبني جثلم . وبني الأوس . وبني ثعلبة .. وبني الشطيبة مثل ما لليهود بني عوف .. وجفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم .. وموآلى ثعلبة كأنفسهم .. وأن بطانة يهود كأنفسهم .. وأن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم . وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم .. وأن بينهم النصر على من دهم يثرب . وإذا دُعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه ، وأنهم إذا دُعوا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين . إلا من حارب في الدين . وعلى كل أناس حصنهم من جانبهم الذي قبلتهم . وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة ... » (٣٩٦)

فيعد أن عدد « الدستور » - وهو يحصر لبنات الأمة والمرعية السياسية

(٣٩٦) (مجموعة الوثائق السياسية لعهد النبي والخلافة الراشدة) ص ١٥ - ٢١ . جمعها وحققها : د.

محمد حميد الله الحيدري آبادي . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦ م .

للدولة - القبائل العربية التي آمنت بالإسلام - من المهاجرين والأنصار - ومن
 لحق بهم وجاهد معهم .. ذكر أنهم أمة الدين - « أمة واحدة من دون
 الناس » .. بعد ذلك شرع فعدد القطاعات المنهودة من القبائل العربية
 بالمدينة .. أى اليهود العرب - الأميين - لا العبرانيين - [ومنهم أميون لا يعلمون
 الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون] ^(١٠) .. وجعل هؤلاء العرب المتهودين -
 مع بطانتهم ومواليهم - كامل الحقوق والواجبات المقررة للمواطنة في الدولة
 الجديدة : « مقرأ أنهم » أمة مع المؤمنين « .. فالأمة هنا - الجماعة - ومنذ هذا
 التاريخ المبكر في مسيرة الإسلام لم تقف حدود « الأمة - الجماعة » - عند
 « أمة الدين » ، وإنما تجاوزتها ، دون أن تسقطها .. لقد انداحت الدائرة ،
 دون أن تهمل المركز أو تتخلى عنه بأى حال من الأحوال .. فالمنطلق قائم
 وفاعل وقائد ، والاستشراف للآفاق الأوسع والأبعد دائم . لأنها أمة
 الاستيعاب والإضافة والاستلهاج والتتمثل ، وليست أمة الانسلاخ والتشردم
 والحدود والسدود والتعصب والعدوان على الأغيار .

ولقد فهم البعض - بالخطأ أو بسوء القصد - أن ماحدث من صراع بين
 دولة المدينة وبين اليهود العبرانيين ، سكان الواحات الزراعية من حول يثرب ،
 وهو الصراع الذى انتهى بإجلائهم عن مواقعهم ، فهم البعض أن هذا
 الحدث قد مثل تراجعاً إسلامياً عن هذا المفهوم المرن والتميز « للأمة » ، إذ
 عادت أمة للدين فقط ، ووقفت حدودها عند المؤمنين والمسلمين دون
 سواهم .. فقال هذا البعض : « .. إن الصبغة السياسية الغالبة في هذه الأمة
 الجديدة إنما كانت مؤقتة فلم يكد محمد يحس أن مركزه قد توطد في المدينة .

ويرى انتصاره في حروبه مع كفار مكة ، حتى استطاع أن يخرج من جماعته السياسية الدينية أهل المدينة (خصوصا اليهود) الذين لم يعتنقوا الدين الذي جاء به ، وبمرور الزمن صارت أمته تتألف من المسلمين وحدهم : وصار يعتبر المسلمين أمة ، ويؤكد صفاتهم الخلقة والدينية . ويعتبرهم غير أهل الكتاب الذين كان مخالفا لهم...» (٤١).

ويمكن الخطأ في هذا الفهم هو الخلط بين « اليهود العرب » الذين عدد دستور دولة المدينة قبائلهم ، وكلها قبائل عربية صريحة النسب العربي (٤٢) ، وبين القبائل « اليهودية العبرانية » ، والتي لم يأت لها ذكر في هذا الدستور فالأولون كانوا عربا ، وكوّنوا مع العرب المؤمنين بالإسلام دولة عربية قومية : أمّتها - جماعتها - عربية متعددة الأديان .. والآخرون - من أمثال بني النضير وبني قينقاع وبني قريظة - ولم يرد لهم ذكر في هذا الدستور - كانوا عبرانيين ، قام بينهم وبين دولة المدينة حلف - يختلف عن علاقة المواطنة - فلما نقضوه قاتلهم النبي - صلى الله عليه وسلم - وانتهى الصراع معهم بالإجلاء . أما القطاعات العربية المنهودة ، التي كونت جزءا أصيلا من « أمة السياسة » ، فلقد اعتنقوا الإسلام ، ودخلوا : من ثم ، في أمة الدين والسياسة معا .

ثم ، إن معيار « العروبة » الذي حكم إطار الأمة ومضمونها ومفهومها ، كان هو الآخر معيارا مرنا ، ومستقبليا ، وسبيلا إلى التوسع في الإطار واستمرار الاستيعاب لأقوام آخرين . فقبل الإسلام كانت المعايير العرقية والقبلية هي السائدة في تحديد أفق « العروبة » ومفهومها فجاء الإسلام

(٤١) [دائرة المعارف الإسلامية] مادة «أمة» ، تحرير : ر. باريه R.Paret

(٤٢) [معجم القبائل العربية القديمة والحديثة] لعمرو رضا كحالة - طبعة دمشق سنة ١٩٦٨ .

ليرفضها . وعنها قال الرسول - صلى الله عليه وسلم - : « دعوها فإنها منتنة » (٤٣) . ومضى يعلم أصحابه . رضى الله عنهم . أن حب الإنسان لقومه مطلوب ، لكن العصبية الظالمة هي المفروضة . . . وعندما سأله الصحابي واثلة بن الأسقع :

« يا رسول الله ، أمن العصبية أن يحب الرجل قومه ؟ »

أجابته - صلى الله عليه وسلم - :

« لا . ولكن من العصبية أن ينصر الرجل قومه على الظلم » (٤٤)

وبدلاً من هذه العصبية الجاهلية ، وبدلاً عن الإطار العرقي والقبلي للعروبة الجاهلية ، أرسى الإسلام للعروبة مفهوما حضاريا . وحدد لأمتها معيارا فكريا وثقافيا - فخطب النبي - صلى الله عليه وسلم - في الناس ، عندما بلغه أن منهم من ينكر على الذين لم ينحدروا من أصلاب عربية - مثل بلال الحبشي ، وصهيب الرومي ، وسلمان الفارسي - رغم بلوغهم في الاستعراب درجة الفقه للقرآن العربي المعجز - والوعي بتمامي أسرار البلاغة . ورغم أنهم قد محضوا ولاءهم للعروبة . وأخلصوا انتماءهم لمجتمعها الإسلامي - عندما أنكر البعض عروبة الذين استعربوا حضاريا وفكريا وولاء وانتماء : أبصر الرسول - صلى الله عليه وسلم - أنه بإزاء المفهوم الجاهلي للعروبة . فغضب . ودعا الناس وخطبهم فقال : « ... أيها الناس ... ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم . وإنما هي اللسان : فمن تكلم العربية فهو عربي » (٤٥) .

(٤٣) رواه البخاري والترمذي .

(٤٤) رواه ابن ماجة وابن حنبل .

(٤٥) [تأليف تاريخ ابن عساکر] ج ٢ ص ١٩٨ . طبعة دمشق .

فند ذلك التاريخ . ووفقا لهذا المعيار الحضارى والثقافى الذى حدده الإسلام « للعروبة » ، اتسعت دائرة الأمة العربية والجماعة العربية ، لتضم - وعلى قدم المساواة - كل الذين تعربوا بالفكر والحضارة والانتماء والولاء . مع الذين انحدروا من أصلاب عربية صريحة .. فكما انفتح معيار الأمة ومفهومها ليضم العرب من غير المسلمين ، انفتح ، كذلك ، ليضم عرب الحضارة والثقافة ، من ذوى الأصول العرقية غير العربية .

وإعمالا لهذا المعيار الحضارى الذى يفتح أبواب « الأمة » ويوسع دائرة الجماعة ، نهضت « الدولة » بتنظيم اجتماعى دمجت به « الموالي » - أرقاء الأمم الذين حررهم الإسلام - فى القبائل التى كانوا فيها أرقاء .. فلقد كانت القبيلة - مثلها مثل الأسرة - اللبنة الأولى فى كيان الأمة .. فبعد أن كانت حدودها مقصورة على صرحاء النسب العربى ، غدت تضم الموالي أيضا .. أى أن دائرة القبيلة ومعيارها لم يعد ، هو الآخر ، عرقيا بحتا ! .. ولهذا التنظيم الاجتماعى سن الرسول - صلى الله عليه وسلم - القوانين ، فى صورة أحاديث ، من مثل : « مولى القوم منهم »^(٤٦) . و « الولاء لأحمة كلحمة النسب »^(٤٧) .. فلم تعد أرحام الولادة النسبية هى فقط أرحام الجنس والعرق ، وإنما غدت العروبة الحضارية والفكرية والثقافية رحما جديدا تولد منه الأمة والجماعة ميلادا جديدا وفق هذا المعيار الحضارى الجديد ! ..

وبعد عصر الرسول - صلى الله عليه وسلم - انتقلت الدولة بإطار الأمة ومفهومها - وفقا لمنهاجه الإسلامى - إلى أفق جديد . فالمد الذى بدأ من

(٤٦) رواد البخارى

(٤٧) رواد أبو داود والترمذى

قريش ، فألف بين القبائل على اختلاف دينها ، ودمج فيها كل من استعرب حضاريا ، على اختلاف أصولهم العرقية . . . هذا المد قد امتد ، بالفتوحات الإسلامية ، إلى ما هو أبعد من القبائل ، عندما ضمت الدولة « الشعوب » من أهل العراق وفارس والشام ومصر وغيرها من البلاد المتحضرة ، التي تجاوزت طور البداوة فكان سكانها « شعوبا » لا « قبائل » . . . فبدأت مرحلة جديدة ونطاق جديد في مفهوم الأمة ، اتخذت الدولة له المعيار القرآني ، معيار « التعارف » ، الذي يعنى التفاعل القائم في إطار الوحدة التي لا تنكسر ولا تتجاهل التباينات .

وعندما نجم قرن الشعوبية ، التي تُحَقَّر كل ما هو عربي ، لتصل بالعداء الظاهر للعروبة إلى هدف مستور هو الكيد للإسلام . . . وعندما استنفرت الشعوبية واستنفرت العصبية القبلية العربية ، على عهد الدولة الأموية . . . وجدنا عقلاء الأمة ومفكرها ينهضون لإحياء التهج الإسلامي التآليقي ، فيكتبون - بل ويفردون المؤلفات - لتذكير الناس بالمعيار الحضاري لمفهوم الأمة ، والأفق الفكري والثقافي غير المحدد لإطار الجلاعة . . . وكان الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر [١٦٣ - ٢٥٥ هـ - ٧٨١ - ٨٦٩ م] في مقدمة الذين أبدعوا في هذا الميدان ، فوجدناه يقر هذا الغرض بعض كتبه . وفي مقدمة أحدها يعلن عن هذه المهمة فيقول : « . . . وكتابنا هذا إنما تكلفناه لتؤلف بين قلوبهم إن كانت مختلفة . ولتزيد الألفة إن كانت مؤتلفة . ولنخبر عن اتفاق أسبابهم لتجتمع كلمتهم ، ولتسلم صدورهم ، وليعرف من كان لا يعرف منهم موضع التفاوت في النسب ، وكم مقدار الخلاف في الحسب ، فلا يغير بعضهم غير ، ولا يفسده عدو بأباطيل مموهة ، وشبهات مزورة ، فإن المناق في العلم ، والعدو ذا الكيد العظيم ، قد يصور لهم الباطل في صورة الحق .

ويلبس الإصاغة في ثياب الحزم ١٢...» (١٨).

ثم يفيض الجاحظ فيذكر أطراف التزاغ بالمعيار الحضارى للعروبة والمفهوم المتفتح وغير العرقى أو المغلق للأمة والجماعة ، وكيف أن اختلاف النسب بين القحطانيين والعنانيين لم يحل دون اندماجهم في الأمة الواحدة كل الاندماج عندما وحدتهم الحضارة والثقافة واللغة والشبائل ، على حين أن وحدة النسب بين العنانيين - أبناء إسماعيل - عليه السلام - وبين العبرانيين - أبناء أخيه إسحاق - عليه السلام - لم تجعلها أمة واحدة . وذلك لاختلاف الفكر والثقافة واللغة والشبائل - أي الحضارة - ... ففي الفكر الإسلامى . ذى الطابع والتزوع العالمى . والمفتوح لاستيعاب الموروث القديم والإبداع الجديد . تمثل رحم جديدة سظل دائمة الولادة لآفاق جديدة تنسج بها دائرة الأمة . ويرحب بها مفهوما كليا امتدت بأهلها البصائر والأبصار إلى الجديد من الآفاق ... يفيض الجاحظ ليتحدث عن هذه الحقائق في مفهوم الأمة . فيقول : « إن العرب قد جعلت إسماعيل - وهو ابن أعجميين - [إبراهيم وهاجر] - عربيا . لأن الله فتح لهاته ^(١٩) بالعربية المبينة . ثم فطره على الفصاحة . وسلخ طباعه من طباع العجم ... وسواه تلك التسوية . وصاغه تلك الصياغة . ثم حباه من طبائعهم ومنحده من أخلاقهم وشبائلهم . وطبعه من كرمهم وأنفتهم وحمهم على أكرمها . فكان أحق بذلك النسب . وأولى بشرف ذلك الحسب . وإن العرب لما كانت واحدة : فاستروا في التربية : وفي اللغة . والشبائل . والهمة . وفي الأنف والحمية . وفي الأخلاق والسجية . فسبكوا سبكاً واحداً . وكان القالب واحداً .

(١٨) [رسائل الجاحظ] ج ١ ص ٢٩ تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤ م

(١٩) اللهاة : جزء من أقصى مقف الفم ، مشرف على الحلق

تشابهت الأجزاء وتناسبت الأخلاط . وحين صار ذلك أشد تشابها في باب الأعم والأخص . وفي باب الوفاق والمباينة من بعض ذوى الأرحام . جرى عليهم حكم الاتفاق في الحسب . وصارت هذه الأسباب ولادة أخرى . حتى تناكحوا عليها وتظاهروا من أجلها . وامتنعت عدنان قاطبة من مناكحة بنى إسحاق . وهو أخو إسماعيل . وجادوا بذلك في جميع الدهر . لئلا يخطئوا . . . إن هذه المعاني قد قامت عندهم مقام الولادة والأرحام الماسة . . . (٥٠) ١٤

هكذا رحب مفهوم الأمة واتسع أفق معيارها . وانفتح واسعاً باب استيعابها للقديم والجديد . فانداحت دائرتها في « الدين » وفي « الدولة » . مؤكدة . دائماً وأبداً . أهليتها لتكون « الأمة الأهمية » . التي تسعج الموارد الحضارية القديمة . بالإحياء والتجديد والتمثيل . لتيسر عليها بتحويلها إلى غذاء ومصدر قوة ضوئها المتميزة . ولتحتضن الجماعات التي تدخل إلى دائرة الإسلام - الدين أو الحضارة - فتمد بهذا الاحتضان دائرة الأمة ومفهومها كلما تيسر هذا الاحتضان والاستيعاب . . .

● ولقد كان هذا الذي صنعتته أمتنا العربية الإسلامية على جبهة « الدين » و« الدولة » نموذجاً لما صنعتته على جبهة « الحضارة » .

فبعد نحو قرنين من ظهور الإسلام . تبلورت على أرض هذه الأمة معالم هذا التطور العربي الإسلامي من أطوار الحضارة الممتدة لشعوب هذه الأمة إلى أعماق أعمق التاريخ القديم . .

فالدين الجديد قد أعلن أن الإيمان به هو : تصديق بالقلب يصل إلى

درجة اليقين . ومن ثم فإن تحصيله لا يمكن أن يتأق بالإكراه [لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي] ^(٥١) . وعن العلاقة بينه وبين أهم الرسائل السماوية السابقة ، أعلن الإسلام إيمانه « بالتعددية » في إطار « الوحدة » - فدين الله واحد ، أزلا وأبدا . ومحمد [رسول من عند الله مصدق لما معهم] ^(٥٢) من عقائد الدين ومقاصده . والقرآن [كتاب من عند الله مصدق لما معهم] ^(٥٣) . والله ، سبحانه وتعالى ، في العقائد ، قد [شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه] ^(٥٤) . [قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون] ^(٥٥) .

ولقد مد هذا الإعلان عن « وحدة الدين » خيوط وأسباب « التعددية » ، التي تنحو نحو استيعاب ما يمكن استيعابه من الموارث الدينية لأهم الرسل السابقين . وزاد من متانة هذه الخيوط والأسباب ما أعلنه الإسلام من « تعدد الشرائع الدينية » . أزلا وأبدا . فإرادة الله هي في تعددية الشرائع والمناهج والسبل في إطار « وحدة الدين » . الأمر الذي ميز الإسلام فجعله يقبل التعايش مع أهل الشرائع السماوية الأخرى - الكتابية ، كاليهود والنصارى - ومن اعتبروا أصحاب « شبهة كتاب » . كالمجوس . ثم قيست عليهم ديانات وضعية كديانات الهند والشرق الأقصى ، تعبيرا عن المفهوم المرن والمفتوح للجماعة والأمة المتدنية - غير المشركة والجاهدة -

(٥٤) البقرة : ١٣

(٥٥) البقرة : ١٣٦

(٥١) البقرة : ٢٥٦

(٥٢) البقرة : ١٠١

(٥٣) البقرة : ٨٩

وتجسيدا لهذا المفهوم الذى أرساه الإسلام منذ ظهوره ، وطور الفقهاء تطبيقاته وفق ظروف الزمان والمكان .

لقد كانت المرة الأولى التى يأتى فيها دين يعلن رسوله وكتابه « التعددية » فى الشرائع [إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا ... وقتينا على آثارهم يعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ... وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ...] وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ... لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة] (٥٦)

وعندما وقف أئمة تفسير القرآن الكريم أمام هذه الحقيقة ، قالوا - معبرين عن هذا الباب من أبواب « التعددية » و « التنوع » فى إطار « الوحدة » - قالوا : « إن الشرعة والشرعية هى الطريقة الظاهرة التى يتوصل بها إلى النجاة ... ومعنى الآية أن الله قد جعل التوراة لأهلها ، والانجيل لأهله ، والقرآن لأهله ، وهذا فى الشرائع والعبادات ، والأصل : التوحيد ، لاختلاف فيه [ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة] (٥٧) ، أى لجعل شريعتكم واحدة ... » (٥٨) فكانت المرة الأولى التى تأتى فيها شريعة سماوية لا تختص لأهلها طرق النجاة ، وإنما تقر بتعدد السبل والمناهج والطرق - « الشرائع » - فى إطار وحدة الدين والاتحاد على التوحيد فى الألوهية والإيمان بالبعث والعمل الصالح .. فتقيم - بهذه « التعددية » - أسباب الغنى والثراء فى ميدان

(٥٦) المائدة : ٤٤-٤٨

(٥٧) المائدة : ٤٨

(٥٨) [الجامع لأحكام القرآن] للقرطبي ج٦ ص ٢١١ طبعة القاهرة - دار الكتب المصرية - سنة

١٩٦٦

الخضارة والثقافة ، موسعة بذلك مفهوم الأمة الحضارى ومضمونها ونطاقها .. بل لقد وجدنا أئمة تفسير القرآن الكريم يرون في هذه التعددية : « الحكمة » الإلهية و « المشيئة » الربانية من وراء خلقه ، سبحانه وتعالى . للناس .. ففي تفسير قول الله ، سبحانه : [ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين . إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم] ^(٥٩) . يقول سعيد بن جبير [٤٥ - ٩٥ هـ - ٦٦٥ - ٧١٤ م] : إن المراد بالأمة الواحدة « ملة الإسلام وحدها » ، أى شريعة الإسلام وحدها .. أما مجاهد ابن جبر المكي [٢١ - ١٠٤ هـ - ٦٤٢ - ٧٢٢ م] وقتادة بن دعامة السدوسي [٦١ - ١١٨ هـ - ٦٨٠ - ٧٣٦ م] فإنهما يفسران [ولا يزالون مختلفين] بحتمية بقاء الناس « على أديان - أى شرائع - شتى » .. أما الحسن البصري [٢١ - ١١٠ هـ - ٦٤٢ - ٧٢٨ م] ومقاتل بن سليمان [١٥٠ هـ - ٧٦١ م] وعطاء بن دينار [١٢٦ هـ - ٧٤٤ م] فإنهم يفسرون قوله سبحانه [ولذلك خلقهم] بأن « الإشارة للاختلاف ، أى للاختلاف خلقهم » ^(٦٠) !؟

فإذا ماجء علماء الأصول ، وجدناهم يتحدثون عن شوائع الأمم السابقة - بلسان السرخسي [٤٨٣ هـ - ١٠٩٠ م] في كتابه [أصول الفقه] - فيقول : « وأصبح الأقاويل عندنا أن شريعة من قبلنا هى شريعة لنبينا عليه السلام ما لم يظهر ناسخه .. » ^(٦١) .

ولقد كان لهذا النهج الذى نهجه الإسلام في الاعتراف بالتعددية في

(٥٩) هود : ١١٨ - ١١٩

(٦٠) [الجامع لأحكام القرآن] ج ٩ ص ١١٤ ، ١١٥

(٦١) ج ٢ ص ١٠١ ، ١٠٢ - انظر : د رضوان السيد [الأمة والجماعة والسلطة] طبعة بيروت سنة

١٩٨٤ م

الشرائع ، والتعايش معها ، واعتاد مالم ينسخ منها ، ليستوعبه ويتمثله في
 لسيجه الحضارى ، موسعا بذلك مفهوم الحضارة العربية الإسلامية ونطاقها
 كانت لهذا النهج آثاره العظيمة في دفع غير المسلمين إلى الإسهام في البناء
 الحضارى تحت رايات العروبة ودولتها والإسلام وحضارته . فكما أحيأ
 الإسلام الموارث الحضارية لشعوب البلاد التى دخلت عالم الإسلام بعد
 مواتها ، كذلك وجدناه قد استنقر أبناء الشرائع غير الإسلامية للإبداع في بناء
 الحضارة العربية الإسلامية . بعد أن كانت كئناسهم وبيعهم وأخبارهم
 وكهانتهم قد فرضوا عليهم ما فرضوه على موارثهم الفكرية والحضارية من
 موات !..

فالدين الذى قررهم « التعددية » في الشرائع ، هو الذى قررت دولته أن
 لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، فقبضوا - مدعويين من « الدين »
 و« الدولة » - للإبداع ، مع علماء المسلمين ، في بناء هذا الطور العربى
 الإسلامى لحضارة الأمة التى كانت أما قبل دخول شعوبها في عالم الإسلام .
 وإذا كان العلماء المسلمون قد نهضوا بالعبء الأكبر في هذا البناء ، فإن نظرة
 على بعض أسماء أعلام هذا البناء الحضارى ، من غير المسلمين ، كافية للدلالة
 على أثرهم الملحوظ ومكانتهم البين في هذا البناء . فعلى امتداد تاريخنا
 الحضارى نستطيع أن نتابع آثار أعلام كثيرين . تبدأ سلسلتهم بالفيلسوف
 السريانى إثناسيوس البلدى [٦٦ هـ - ٦٨٦ م] لتصل إلى السياسى
 الوطنى ولهم مكرم عبيد [١٣٠٧ - ١٣٨٠ هـ - ١٨٨٩ - ١٩٦١ م] . فهؤلاء
 الأعلام ، الذين أبدعوا في الفلسفة والطب والتنجيم والفلك والشعر والموسيقى
 والرياضة والهندسة والميكانيكا . الخ . الخ . قام البرهان على انفتاح
 حضارتنا العربية الإسلامية على مختلف الموارث الفكرية ، واستيعابها

وعثلتها ، ثم تجاوزها كل هذه الموارث^(٦٢) . لقد صنعت - مثلها في ذلك مثل أمتها - من الكل واحدا ، وظلت ، دائما وأبدا ، - تبعا لأمتها - دائمة « التحقق والامتداد والامتيعاب » ..

فكما أخذت - منذ عصر الراشد الثاني عمر بن الخطاب [٤٠ ق هـ - ٢٣ هـ ٥٨٤ - ٦٤٤ م] - تدوين الدواوين عن الروم^(٦٣) - وضريبة الأرض - وفق المساحة - التي عرفت « بوضائع كسرى » - عن الفرس^(٦٤) .. رأيناها قد تجاوزت ، فيما أبدعت في الفكر السياسي - حول الإمامة والخلافة والأحكام السلطانية - حدود الاقتباس إلى نطاق الخلق المتميز والجديد . فكان نظام « الخلافة » - ممارسة وفكرا نظريا - عربيا إسلاميا غير مسبوق ..

وإذا كانت الترجمة إلى العربية قد بدأت بعلوم الصنعة ، على يد خالد ابن يزيد [٩٠ هـ ٧٠٨ م] الذي تمثل في جهوده بحقل الترجمة الأثر العربي الإسلامي لمدرسة الإسكندرية القديمة ، فإن إبداع هذه الحضارة في العنوم الطبيعية وتطبيقاتها قد كان منارة العالم في هذا الميدان . أضافت إليه تجاوزها

(٦٢) انظر الأعلام المشار إليهم : [الأعلام] للزركلي طبعة بيروت - الثالثة - سنة ١٩٦٩ م . و [تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك] لقدرى حافظ طوقان طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣ م . و [الدعوة إلى الإسلام] لأرنولد ترجمة : د. حسن إبراهيم حسن ، د. عبد الغيد عايد ، إسماعيل النجراوى . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ م . و [الأقطاب في السيادة المصرية] للدكتور مصطفى القفى . طبعة القاهرة سنة ١٩٨٥ م .

(٦٣) [كتاب الطبقات] لابن سعد . ج ٣ في ١ ص ٢٠٢ طبعة دار التحرير القاهرة . و [كتاب الحجاج] لأبي يوسف . تحقيق : د. إحسان عباس . طبعة القاهرة سنة ١٩٨٥ م .

(٦٤) [الأحكام السلطانية] للمواردى . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣ م .

القياس الأرسطى إلى المنهج التجريبي الذى كان لها إبداعا عبقريا خالصا ، نقلت به مباحث العلوم إلى طور جديد ، كما وكيفا .

وإذا كانت حضارتنا العربية الإسلامية قد ترجمت الفلسفة اليونانية ، فإنها قد قرأتها بعيون إسلامية . ووعتها بعقول صاغها التوحيد الإسلامى . ثم كان إبداعها الفيلسوفى الخالص هو علم التوحيد الإسلامى - علم الكلام - الذى تأسست عقلانيته على الوحي . فتأخت فيه الحكمة والشرعة على نحو جديد وفريد .

وكذلك صنعت هذه الأمة وحضارتها مع تراث الفرس والهنود ... أحبت النوات ... وجددت البالى ... واستوعبت الحى فتمثلته . ثم تجاوزته . بمنطق الأمة الواحدة . والجماعة العالمية . أمة وجماعة الرسالة الخاتمة والخالدة ، والى لأبد - لذلك - من أن يكون القانون الحاكم لمسيرتها والضامن لها أداء رسالتها هو التفنح - من موقع الراشد المتميز - على الآخرين



والآن ... وعند هذا الحد من البحث عن مفهوم الأمة فى حضارتنا . وبعد هذه الشهادة الفكرية والتاريخية على وحدة الأمة الإسلامية . الجماعة للأوطان والقوميات فى حضارة واحدة جمعها للأفراد والأسر والقبائل والشعوب الآن يحق للمرء أن يسأل :

هل كانت هناك حكمة - ذات دلالة - وراء محىء مصطلح « الأمة » القرآنى بمعنى « الجماعة » : دون تحديد ضارم لسيات الجماعة ؟ وذلك لتدرج وتوسع دوائرها فى مختلف الميادين والمخالات ، ولتتوالى آفاقها دائما

وأبدا .. فتضم « القبائل » كلبشات - فلا تتجاهل تمايزها - وفي ذات الوقت لا تقتف عند حدود هذا التمايز .. ثم تضم « الشعوب » مع « القبائل » - جامعة « التعارف » هو رباط الجماعة . لا القالب الواحد الحاكم ذا الشروط الصارمة الجامعة المانعة . ثم تضي فيحتضن محيطها الحضارى الإسلامى « الجزر القومية » . دون أن تنفر الأمة الإسلامية من تمايز الأمم القومية في أحضان المحيط الإسلامى الكبير . فتصبح القومية دائرة انتماء . لافكرية تناقض الإسلام ، ولاعصبية تتجاهل أو تعادى جامعته الأشمل . ثم تذهب هذه الجماعة قدما لتجد مع الدائرة الإنسانية الخيوط والعلائق والأسباب ٢٢ .

هل كانت هناك حكمة - ذات دلالة - وراء ذلك ٢٣ ..

وهل كانت هذه المرونة في مضمون هذا المصطلح - مصطلح « الأمة » - صلة بموقف النهج العربى الإسلامى ومسيرته في بلورة حضارة الأمة بدءا من .

● نواة الدين .. وأمة الدين ..

● فالقومية والأمة القومية - بالمعنى الحضارى . لا العربى -

● فالحضارة . وأمة الحضارة - التى تحتضن القوميات -

والنقى لم تقف بالسمات الحضارية عندما هو ديبى كما أنها لم تتجاهره وإنما جعلت منه النواة التى انداحت من حولها الدوائر القومية والحضارية واتخذت منه الأداة التى بعثت وأحيت وجددت الموارث الفكرية والحضارية لشعوب البلاد التى دخلها الإسلام . ودخلت في غام الإسلام ... كما أقامت

منه المعيار الذى فُرضت به ماهو مقبول .. أو فى حاجة إلى التعديل ... أو واجب الرفض من هذه الموارث ؟؟ ..

● فلم تقف بالأمة عند أمة الدين ..

● ولم تقف بعنصر الأمة وجنسها عند العرب - بالنسبة للعرق - ..

● ولم تقف بفكرية الأمة وعلوم حضارتها عند علوم الوحي والشرعية . وإنما تجاوزتها - وهى مصاحبة لها - إلى علوم الحضارة وفنونها ، التى أبدعت فيها إبداعاً غنياً وعبقرياً وراقياً ، مع تمييزها بإشاعة الروح الإيماني والمزاج العربي فى مختلف وأدق أجزائها ..

لقد انطلقت الأمة - الجامعة - من « الدين » إلى « الحضارة » . التى تبلورت ونمت حول هذا الدين .. وأقامت العلاقة العضوية والجدلية بين العربية - الحضارية والثقافية - وبين الإسلام العالمى . فجعلت « الفرد » « الأسرة » - أو « القبيلة » - « فالشعب » .. « فالأمة القومية » .. « فالأمة الحضارية » .. دوائر ، تنفتح الصغرى منها على الكبرى التى تليها ، فى علاقة جدلية وتضامنية لا تعرف التناقض ولا التضاد . كما جعلت « الإقليم » « فالوطن الأدنى » « فالوطن القومى » « فعالم الأمة » ودار الإسلام والجامعة الإسلامية .. دوائر ، تبدأ من الأخص إلى الخاص إلى العام فالأعم .. ليفضى كل ذلك إلى الدائرة الإنسانية ، شعوباً وحضارات

● إنها أمة الإسلام .. وإسلامها وثيق الصلة بالعروبة الحضارية والثقافية .. عقيدته عالمية .. ومعجزته عربية ، وشريعته عربية ، ولن يفقهها ويبلغ مرتبة الاجتهاد والتشريع فيها إلا من بلغ فى فقه العربية وعلومها مبلغ

البلاء . وإلا إذا ضم إلى ذلك . أيضا . العلم بالتاريخ العربي والواقع العربي . الذي تمثلت فيه ملامسات الوعي وأسباب نزول آيات القرآن الكريم .

وهي أمة العروبة الحضارية - لا العرقية - التي هي ثمرة من ثمار الإسلام . أقامها على أنقاض عروبة الجاهلية - العرقية العنصرية - .

● وهي دائمة الحركة والنمو والفتح - رأسيا وأفقيا - ومهام تحققها - عسقا واتساعا - لاتعرف الهبات ولا الحدود ولا السدود .

● والعلاقة بين هذه الأمة - بالمعنى الديني وفي النطاق الديني - كما كانت في بداية طورها الإسلامي - وبين هذه الأمة عندما تحققت في الواقع . بالمعنى التاريخي والاجتماعي والقومي - بعد هجرة - ليست علاقة انفصال . بل ولا تنبغ في المراحل التي تتجاوز ثانياتها أولاها تجاوز المعايير والاختلاف والانقطاع^(٦٥) . وإنما هي علاقة « الوحدة » التي لا تنكسر « التمايز » في الإطار الحضاري المرن الذي يسمح للتعددية بالتعايش والتفاعل داخل الإطار

ذلك هو تعريف « الأمة » في حضارتنا العربية الإسلامية . وهذا هو مفهومها . وتلك هي دلالة المرونة التي تميز بها هذا المفهوم . ومصدق هذه الحقيقة تلك المسيرة العملية التي سلكتها أمتنا وحضارتنا منذ أن بدأت طورها العربي الإسلامي بظهور الإسلام . لقد استوعبت الموارث الحضارية

(٦٥) تختلف في فكرتنا هذه مع د . ناصيف نصار . انظر كتابه [مفهوم الأمة بين الدين والتاريخ] طبعة بيروت سنة ١٩٧٨ م .

التي سبقت الإسلام . ثم أحينها وجددتها وفق معايير التوحيد الإسلامي . وصنعت من التعددية كلا حضاريا جديدا . وهي في كل ذلك قد انطلقت من « العقيدة » - عقيدة الدين - إلى « الفكر » فكر الحضارة - إلى « السلوك » . الذي حول « العقيدة » و « الفكر » إلى حياة عاشتها وتعيشها هذه الأمة الواحدة في حقب الازدهار ، وتجاهد كي تحيها . وكى نرم الثغرات في جدار وحدتها . كلما فرضت عليها التحديات فيود الصعف والتراجع والجمود !

هكذا امتدت مفاهيم وحدود وآفاق أمتنا في « الفكر النظري » الموروث وعبر المسيرة التاريخية التي أبدعها الأسلاف . وهكذا نرى الحدود والآفاق التي تتوجه إليها اليوم بنداء « البقعة » ومهام « النهضة الإسلامية المنشودة » . فمن « غانة » إلى « فرغانة » . ومن أعالي نهر الفلجا إلى جنوبي خط الاستواء . تلك أمتنا . أمة واحدة تتوجه إليها بهذا النداء . ونعنيها بهذا الحديث !

وصدق الله العظيم : [إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون] (٦٦)

هل للمسلمين حضارة متميزة ؟

لكن إذا كان المسلمون أمة واحدة . . . فهل هذه الأمة الواحدة حضارة متميزة عن غيرها من الحضارات ؟

إن الإجابة على هذا السؤال ضرورية لتحديد ماهية البقعة المطلوبة لهذه الأمة الإسلامية . ذلك أن هيمنة الحضارة الغربية على أوطان الشعوب والأمم التي نكبت بالغزوة الاستعمارية الحديثة . ومنها أوطان الأمة الإسلامية . قد أثمر . ضمن ما أثمر . تيارا فكريا « متغريا » . يدعو أنصاره إلى تبني مناهج هذه الحضارة الغربية وقيمها ومثلها وفلسفاتها ونصيراتها وجمالياتها وطرائفها في العيش والسلوك . مع إبداعها في العلوم الطبيعية وتطبيقاتها . وذلك بدعوى أنها « حضارة العصر - الإنسانية » . فبدعوى « وحدة الحضارة الإنسانية » هم ينكرون تميز الحضارى . كما سبق وأنكروا وحدة المسلمين كأمة متميزة . . .

فهل هذه الأمة الإسلامية المتميزة حضارة إسلامية متميزة . حتى يكون لها في البقعة والنهضة سبيل متميز عن سبيل التبنى للنمط الغربى الحضارى . والتقليد لأهله . والبعد من حيث انتهى الغربيون ؟؟

وبمعنى آخر . فهل « التعددية » في الأمم تعنى « التعددية » في الهوية الحضارية . ومن ثم التميز في سبل البقعة والنهضة ؟؟

وهل هناك « هوية حضارية » متميزة جمعت الأمة الإسلامية إبان عصر يقظتها وتائق حضارتها .. ثم جاءت أحقاب زمنية . هي أحقاب التخلف والتراجع والجمود لتطمس هذه « الهوية » ، أو تواربها خلف غبار « الانحطاط الحضارى » ؟؟

إننا ممن يحيون على هذه التساؤلات بالإيجاب ... الأمر الذى يعنى إيماننا بأن تميزنا كأمة إسلامية . ذات حضارة متميزة . يجعل ليقظتنا وهضمتنا المنشودة طريقا متميزا وعطا خاصا . فليست الاستعارة للنمط الحضارى الغربى هى سبيل يقظتنا . بل لعل هذه الاستعارة هى جزء من الداء الذى لا بد وأن تبرأ منه الأمة كي تسلك إلى اليقظة والنهضة السبيل المأمون !

فكما تميزت أمتنا فى مفهوم الأمة ونطاقها وإطارها . كذلك تميزت فى الهوية الحضارية - التى هى وثيقة الصلة بتميزها فى مفهوم الأمة - . ولقد كان هذا التميز الحضارى القاسم المشترك الأعظم الذى طبع ذلك البناء الحضارى العملاق الذى أبدعته أمتنا إبان العصر الذى ازدهرت فيه حضارتها العربية الإسلامية ... فإذا كانت يقظتنا قد أعقبها غفوة ورقود . وإذا كانت هضمتنا قد أصابها التراجع والجمود والانحطاط فى عصور الغفوة والرقود . فإن توجيهنا إلى البحث فى سبل اليقظة والنهضة الإسلامية . كما يستدعى الكشف عن أسباب التراجع وملابساته وأماراته . فإنه يتطلب الكشف عن الهوية الحضارية العربية الإسلامية المتميزة . تلك الهوية التى تحدد مهام اليقظة والنهضة فى إعادة اكتشافها . والكشف عن سماتها وقيمتها وخصائصها . وبلورتها فى مشروع حضارى عربى إسلامى . وذلك حتى تعود لها الهممة على عقل الأمة وسلوكها وقيمتها ومعارفها وعلومها . فنعود هذه الأمة ، ثانية . إلى

ميدان الإبداع الحضارى المتميز - تترى وتغنى بواسطة الفكر الإنسانى . كما صنع ذلك ، من قبل ، أسلافها العظام

وبالطبع . فإن البداية الطبيعية للإجابة على سؤال : هل تلك أمتنا الإسلامية هوية حضارية متميزة ؟؟ ... إن البداية الطبيعية للإجابة على هذا السؤال لابد وأن تكون بتحديد مضامين المصطلحات ... فما هى « الهوية الحضارية » ، التى نقول بتميز أمتنا الإسلامية فى سماها وقسماتها ؟؟ .. وماهى أبرز هذه السمات والخصائص التى تتميز بها أمتنا حضاريا عن غيرها من الأمم ذات التمايز الحضارى ؟؟

إن « الهُويَّة » - بضم الهاء وكسر الواو - مصطلح استعمله العرب والمسلمون القدماء .. وهو منسوب إلى « هو » .. وهذه النسبة تشير إلى ما يحمله من مضمون ، فهى تعنى : كما يقول الشريف الجرجاني [٧٤٠ - ٨١٦ هـ - ١٣٤٠ - ١٤١٣ م] : « الحقيقة المطلقة ، المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة فى الغيب المطلق ... »^(١) .

أما معاجمتنا الحديثة فإنها لم تخرج عن هذا المضمون . عندما قالت عن « الهوية » : إنها « حقيقة الشيء » ، أو الشخص المطلقة ، المشتملة على صفاته الجوهرية ، والتى تميزه عن غيره .. وتسمى أيضا : « وحدة الذات »^(٢)

وبعبارات أدخل فى موضوعنا ، فإننا نستطيع أن نقول : إن الهوية الحضارية لأمة من الأمم ، هى : القدر الثابت . والجوهرى . والمشارك من

(١) [التعريفات] طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م

(٢) [المعجم الفلسفى] وضعه مجمع اللغة العربية ، بالقاهرة . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩ م

السمات والقياسات العامة . التي تميز حضارة الأمة عن غيرها من الحضارات . والتي تجعل للشخصية القومية طابعاً تميز به عن الشخصيات القومية الأخرى .

وإذا شئنا أن نضرب بعض الأمثال للقياسات الجوهرية التي غدت ، لعمومها واستمراريتها ، جزءاً أصيلاً في هوية أمتنا العربية الإسلامية . وقسمات تميز حضارة أمتنا عن الحضارات الأخرى . فإننا سنجد قسماً من مثل : العروبة .. والتدين .. والوسطية ..

● فالعروبة : - بالمعنى الحضاري والفكري والثقافي - وليس العرق والعنصرى - قد غدت هوية حضارية لهذه الجماعة البشرية التي تعربت بعد الفتح العربي الإسلامي ، والتي أصبح ولاؤها وانتمائها لكل ماهر عربي . وليس للأطوار الحضارية غير العربية التي سبقت ، في تاريخها . طور الاستعراب . ولقد استوت في هذا الولاء والانتماء للعروبة بأولئك الذين انحدروا من أصلاب عربية : بالمعنى العرقى ، بل وبرزت جهودها الفكرية في بلورة السمات الحضارية المتميزة للحضارة العربية الإسلامية حتى كادت تملأ ساحة هذا الميدان ١٩ .

وكما أصاب التعريب البشر . فجعلهم جزءاً من نسيج الأمة الجديدة . كذلك أصاب الموارث الحضارية لشعوب البلاد التي أصابها التعريب .. فلقد أضحى الإسلام الصالح من هذه الموارث ، بعد أن كادت تموت في ظل القهر البيزنطي القديم ، ولم يمارس الإسلام ضدها حرب « المسخ والنسخ » والتشويه التي مارسها الحضارة الغربية وتمارسها ضد الموارث الحضارية لأهل البلاد التي ابتليت بالاستعمار الغربي الحديث .

فكنا دخلت شعوب البلاد . بعد الفتح العربي الإسلامي . إلى نسج الجماعة العربية بالتعريب . كذلك عدت هذه الموارث الحضارية القديمة جزءاً أصيلاً في الحضارة التي تبلورت على أرض هذه الأمة . كمحصلة لتفاعل الإسلام . بروحه الثابتة وأفقه العقلاني . مع الصالح من هذه الموارث .. وإذا كان « الإسلام الدين » ، الذي هو وضع إلهي ، والذي يجب أن تنزهه عن الإضافات والبدع والإبداعات البشرية . إذا كان هذا « الإسلام الدين » . قد اختص به الذين تدبوا به من المسلمين . فإن « الإسلام الحضارة » ، أي « الحضارة العربية الإسلامية » . بعلمها وفنونها الدنيوية . قد جاءت ثمرة « للإسلام الدين » . دون أن تقف عند حدود أركانه ونطاق عقائده وآفاق شريعته . وأيضاً دون أن تناقض هذا الدين كما جاءت علوم هذه الحضارة وفنونها ثمرة لإبداع المسلمين . دون أن تكون حكراً لهم من دون أهلها الذين لم يتدبوا بعقائد الإسلام . فهي ثمرة للإسلام . تتجاوز نواته . إنها « الدائرة الحضارية » التي انداحت من حول « النواة الدينية » لديانة الإسلام ! .. ففيها تلك الإسهامات والإضافات التي دخلت نسج هذه الحضارة من الموارث التي سبقت ظهور الإسلام . وفيها إبداعات الذين تعربوا . وفتحوا ولاعهم واتساعهم لهذه الحضارة . مع بقائهم . في التدبير على الشرائع الدينية التي سبقت ظهور الإسلام ..

فغربة البشر . وعروبة الحضارة . هي سمة من السمات الثابتة . التي عدت جزءاً من « الهوية » - أي الجوهر - التي تميز أمتنا وحضارتنا عن غيرها من الأمم والحضارات .

وجدبر بالذكر والتنويه أن هذه العروبة ليست خصوصية للأمة العربية .

بالمعنى القومي ، وإنما هي لازمة من لوازم الإسلام . فهي عروبة اللغة ، التي يستحيل على المسلم من أى جنس أو لون أو قومية أن يفقد القرآن العربى المعجز ، فيبلغ فى فقهه مرتبة الاجتهاد والتشريع دون أن يكون عربى اللغة . كما يستحيل على هذا المسلم ، من أى لون أو جنس أو قومية أن يفقه علوم الشريعة الإسلامية . وفى مقدمتها الحديث النبوى الشريف ، وعلومه ، ومدونات الفقه الإسلامى . وأصوله . وأغلبها عربى اللغة . دون أن يكون هذا الفقيه عربى الفكر واللغة والثقافة . فإذا لم تكن العربية شرطاً فى التدين بالعقيدة الإسلامية . لعالميتها . فإنها شرط للتفقه فى الإسلام والبلوغ فى شريعته مبلغ الاجتهاد والتشريع . فأهل الحل والعقد فى المجتمع الإسلامى - أى السلطة التشريعية - وأهل الإمامة - أى قوة السلطة التنفيذية - وأهل الحكم بما أنزل الله - أى السلطة القضائية - لا بد وأن يكونوا من الذين بلغوا فى العربية وعلومها المرتبة التى تتيح لهم فقه القرآن والسنة ومصادر التشريع . أى إن « الدولة الإسلامية » لا بد وأن تكون عربية اللغة والفكر والثقافة . بصرف النظر عن لغة وقومية الرعية والجمهور . ومن هنا جاء ارتباط الإسلام بالعروبة الحضارية . وصارت العربية لغة الإسلام . تنتشر بانتشاره . ولم يعارض فى ذلك سوى الشعوبيين . الذين وإن أظهروا العداء للعروبة وحدها . فلقد قام الدليل على عدائهم للإسلام أيضاً !

تلك هي العروبة . الوثيقة الصلة بالإسلام . والتي غدت السبيل إلى فقهه . ومن ثم السبيل إلى تجسيد تأثيراته فى الواقع . تلك التأثيرات التى هي الحضارة العربية الإسلامية . وهى - كما أسلفنا - عروبة الفكر والثقافة العروبة الحضارية ، التى أثمرها الإسلام . وليست عروبة الجاهلية وعصبيتها العرقية القاصرة الشوهاء !

وإذا كان « عموم » العروبة في الأمة - كجماعة بشرية - وفي حضارتها -
 بعلومها وفنونها وآدابها - هو مما لا يحتاج إلى إثبات أو إيضاح . فإن البعض قد
 يرتاب في « ثبات » هذه القسمة بوجه عوامل التطور والتغير . داخلية كانت
 أو خارجية . ومن ثم فإن هذا البعض قد يرتاب في كون هذه « العروبة »
 واحدة من القسّمات التي تمثل « هوية » هذه الأمة . في المستقبل . كما كانت
 في ماضيها وحاضرها ! . فهذا البعض قد يحلّو له النظر إلى « العروبة »
 كمجرد قسمة من قسّمات « البناء الفكري الفوقي » . الذي يصيبه التطور
 والتغير عندما يتطور ويتغير « البناء المادّي التحتي » . لتجتمع . كما هو الحال
 مع بعض « الأفكار » والعادات التي تتبع في البقاء أو المذهب الظروف المادية
 التي تبعها وتستدعيها ! .

ومع عزوفنا ، في هذا المقام ، عن النقد للطابع المطلق الذي يضيفه
 هذا البعض على مقولة « البناء الفوقي » و « البناء التحتي » . والارتباط
 « الميكانيكي » بينهما . فإننا نعتقد - بخصوص موضوعنا - أن نظرة متأملة
 للتحديات التي جويت بها عروبة الأمة وعروبة حضارتها عبر تاريخنا المليء
 بالتحديات . ستجعلنا على يقين من أن « العروبة » هي « هوية » . وليست
 مجرد « بناء فوقي » يتغير بما يصيب « البناء المادّي التحتي » من تطور وتغيير .

لقد سيطر « الترك - المالك » و « الترك - العثمانيون » على مقدرات هذه الأمة
 العربية الإسلامية أغلب قرون - تاريخها الإسلامي . فلقد استخلصوا حكمها
 لسلطانهم منذ تأسست دولة المماليك البحرية [٦٤٨ هـ ١٢٥٠ م] وحتى انحيار
 الدولة العثمانية [١٣٤٢ هـ ١٩٢٤ م] وقبل هذه القرون السبعة التي استخلص
 الترك فيها السلطانهم حكم الأمة امتدت هيمنة نفوذهم على دولها منذ عصر الخليفة

العباسي المتوكل [٢٠٦ - ٢٤٧ هـ - ٨٢١ - ٨٦١ م] . أى لأكثر من ثلاثة قرون . أى أن هيمنتهم على الدولة وانفرادهم بها قد امتدت في تاريخنا لأكثر من عشرة قرون ؟ ! ..

ثم جاء الاستعمار الغربي وهيمن على مقدراتنا وحياتنا قرابة القرنين من الزمان ؟ ! ..

وفي ظل « الترك - المماليك » . الذين كانوا فرسان العصر . وحماة الديار والحضارة من الخطر الخارجي المالحق - تترأص وصليبا - لقاء أن تصبح هذه الديار « طعمة » لهم وإقطاعا حربيا لأمرائهم وأجنادهم ! . في ظل هذا التسلط المملوكي كانت « الدولة » أعجمية . فظهرت دعوى عدم ارتباط العروبة بالإسلام ؟ . فلقد كان الحاكم غريبا عن الروح القومية للأمة . يجمعه بها وحدة « الدين بشكل الدين » فقط ؟ ! . فشاعت المقولة الزاعمة انفصام العلاقة بين العروبة والإسلام . حتى لقد زعم البعض تناقضها ؟ ! .. وكانت عجمة « الدولة » في مقدمة الأسباب التي أصابت العربية بالركاكة والتراجع والجمود ؟ ! ..

أما في ظل عجمة « الترك - العثمانيين » . فلقد بلغ التحدي للعروبة حد محاولة تزيك العرب . كي يتحولوا إلى « أتراك » ! .. وكان تعليم الصغار لعقيم العربية مطلباً تناضل من أجله الأحزاب وتعتقد في سبيله المؤتمرات ؟ ! ..

ثم تصاعد التحدي للعروبة والعربية في ظل الهيمنة الاستعمارية الغربية . فبلغ القمة في محاولات « فرنسا الجزائر » وسحق الهوية العربية لبلاد الشمال الأفريقي . وه « تغريب » فكرية الأمة . ومحاربة العربية بمشاريع كتابتها بالحرف اللاتيني مرة . واستبدال العاميات بها مرة ثانية . والتخطيط لسيادة

الجهل بها في كل الأحيان؟ .. إلى آخر هذه المحاولات ، وأمثالها . التي
تواتت في تاريخنا شواهد على مناجاة العروبة في تلك الأحقاب والقرون
المتعاقبة من تحديات ..

لكن « العروبة » : رغم هذه التحديات - التي تمثل عوامل وتحولات
قامت في أرض الواقع - قد ظلت صامدة شامخة مستعصية على التحرك من
موقعها الحصين . فبست هي إذن « البناء فوق » الذي يصيبه التغير بتغير
الظروف .. وإنما هي « جوهر - ثابت » . كما هي « عام وشامل » . له صفة
« الاستمرار » .. إنها « هوية » : وليست مجرد « تراث » !



● والتدين : هو الآخر قسمة من القسمة الجوهرية والثابت التي تكون
جزءا من « هوية » هذه الأمة .

ولنح . بالطبع . لا نزع أن أمنا هي وحدها المتدبة من بين الأمم
الأخرى .. لكننا نقول : إن ما يميز أمنا - كهوية لها - في التدين ، أمران :
أولهما : عمق التدين في خسير أبنائها وقنوبهم . ليس في الحفلة الإسلامية
وجدها . وإنما عبر تاريخ الشرق الطويل .. فوطن أمنا . تاريخنا . هو مهد
الديانات ومهبط الرسالات . ولقد عرفت هذه الأمة « روح التدين » ولم
تقف فقط عند « طقوسه » ومظاهره . فالتدين ليس هامشا يستكمل به
الإنسان مظاهر حياته . وإنما هو روح قائم وحاضر في كل صغيرة وكبيرة من
حياة إنسان هذه الأمة . إن حضارات أخرى قد وقفت بالعبادة الدينية عند
طقوس وشعائر يؤديها الإنسان في أيام معلومة وأماكن محددة . لكننا نرى .

في الإسلام . أن كل صنيع خير يأتيه الإنسان . في كل لحظة من لحظات حياته . وفي أي ميدان من الميادين هو عبادة دينية ، وتدين خالص للديان سبحانه وتعالى . فلقد حدد الله سبحانه وتعالى أن المهمة العظمى والوحيدة الخلقه هي أن يعبدوه .. [وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون] (٣) . وغير متصور . بالطبع ، أن يظن ظان . وإلا كان معنوها . أن المهمة الوحيدة للإنسان هي مواصلة الشعائر العبادية التي جاءت بها الشريعة . من صلاة وصيام .. الخ .. الخ .. لتمتلي بها كل لحظات حياة الإنسان ، لأن نبي الإسلام - صلى الله عليه وسلم - يعلمنا أن هذا ليس تدينا ، وإنما هو الغلو المنهى عنه في الإسلام .. فلقد نهى عن هذا الغلو أولئك الذين أرادوا صيام النهار أبداً وقيام الليل دائماً .. ونبه أمته على أن دينها يسر . ودعاها إلى أن توغل فيه برفق . لأن الغلو تنقطع . والمنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى ١٢ .

إذن فالعبادة - التي هي الرسالة الوحيدة والعمل الثريد للإنسان المسلم - هي كل عمل خير يأتيه الإنسان في هذه الحياة . بدءاً من عمارة الكون وزينة الأرض وسياسة الدولة وإصلاح المجتمع إلى المنع الإنسانية المشروعة التي أحلها الله . فكل فروض العين والكفاية وسننها ومنادياتها ومباحاتها . أي كل نشاط إنساني تتطلب عمارة الكون من قبل الإنسان . كخليفة عن الله . سبحانه . في هذه المهمة . هو بعض من العبادة لله . وبهذا المعنى . وفي هذا الضوء نجد أن للتدين في حضارتنا عمقا وشمولا لالمنحطها في غيرها من الحضارات ...

وإذا كانت الحضارة الغربية قد حولت المسيحية - وهي . في أصولها

الأولى : « ديانة المتصوف المسالم والسلام المتصوف - حوثها إلى مجرد قسمة خالية من الروحانية . وطقوس فقيرة في هذه الروحانية ، في إطار هذه الحضارة التي تميزت بطابعها المادى منذ جاهليتها اليونانية وحتى عصرها الحديث ... إذا كان هذا هو حال الحضارة الغربية مع « جوهر الدين » فليس هذا هو حال حضارتنا المتدنية بالطبع والفطرة مع ما شهدت من شرائع الأديان .

لقد تحدث جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ - ١٨٣٨ م - ١٨٩٧ م] عن أن الدين في حضارتنا قد بلغ حد « الطبع والجبلة » ، حتى تستعصى الروح الإيمانية على الاقتلاع حتى عند الذين يتوهمون أنهم قد اقتلعوها بالزندقة والمروق من الدين والإلحاد فيه والتحلل من التكاليف التي حددتها شريعة الإسلام ... وإذا كان أمثال هؤلاء ، في الحضارة الغربية ، يفاخرون بالزندقة ويعلمون عن المروق ويشرون بالإلحاد ويباهون بالتحلل من التكاليف الشرعية ، فإن أمثالهم عندنا - وهم من الندرة بمكان - يدركون أن خيارهم الإلحادى هذا هو « عمرة » لا يلبق بالعاقل المسئول أن يراها منه غيره من الناس !؟ ..

فروح الدين تبلغ لدى المسلم الحد الذى تجعل من الإسلام « وطنًا » و « جنسية » و « هوية حضارية » ، يغضب لها ويسعد بها حتى الذين يتوهمون خلاصهم منها بالزندقة والإلحاد . إنها تبقى طابعة هم ، وأثرها فيهم باقى وفاعل كأثر الجرح بعد أن يتدمل !؟ ... على حد قول جمال الدين

وليس كذلك - ولم يكن - حال الحضارة الغربية مع الدين بالمسيحية عندما تدين بها الدولة الرومانية . فذلك الحال قد أجاد التعبير عن حقيقته

إمام المعتزلة قاضي القضاة عبد الجبار بن أحمد [٤١٥ هـ - ١٠٢٤ م] عندما تحدث عنه فقال : إن النصرانية عندما دخلت روما ، لم تنتصر روما . ولكن المسيحية هي التي تروّمت !

لقد تحولت المسيحية عن روحها وروحانياتها ، وغدت مجرد قسمة من قسّمات حضارة ذات طابع مادي غالب . إن في الفكر أو في السلوك

وشتان بين حضارة هذا هو موقفها من الدين . وهذا هو حظها من جوهره . وبين حضارتنا العربية الإسلامية التي جعلت من كل مناحي النشاط الإنساني الديني عبادة وتدينا . عندما جعلت كل سعى إلى الخير استجابة لنداء الخالق الذي خلق الإنسان وحمله أمانة عمارة الأرض . وترقية المجتمعات . والاستمتاع بالطيبات ، كالرسالة العظمى للإنسان في هذه الحياة ..

وثانيهما : عموم روح الدين في البناء الحضاري لأمتنا العربية الإسلامية .. فالدين - وخاصة في الحضارة العربية - قد وقف عند « الفرد » . واقتصر على علاقة الإنسان - كفرد - بخالقه .. أما في حضارتنا العربية الإسلامية . فلقد وجدناه يتعدى علوم الوحي والشرع إلى علوم الدنيا وفنونها . فهو الروح العامة السريان في كل علوم التمدن المدني والإبداع الحضاري وتنمية العمران البشري . وليست محصورة فقط فيما عرفته الحضارة الغربية تحت عنوان « اللاهوت » .. فتحن أبناء « حضارة مؤمنة » . ارتبطت فيها العلوم جميعا . بما فيها « العلوم البحتة » ، والقاعدة الإيمانية . إنها « الحضارة المؤمنة » . التي يذكر فيها اسم الله في كل شيء .. وليس فقط في الصلوات .. نستفتح الأكل باسمه .. ونختتمه بحمده .. ونهلّ بذكره على الذبائح .. ونلجأ إليه عند

الحزن . وعند السرور . في وقت الضحك ، وساعة البكاء . كل معنى الإنسان عبادة ، حتى تروجه عن النفس . بل ومباشرة متع الجنس المشروع ! .. إنها الحضارة التي قال الإمام الغزالي [٤٥٠ - ٥٠٥ هـ ١٠٥٨ - ١١١١ م] عن غاية العلماء من العلم فيها : « طلبنا العلم لغير الله ، فأبى أن يكون إلا الله ! » . . . الحضارة التي لم تربط ، فقط ، صلاح الدنيا بصلاح الدين ، بل وجعلت صلاح الدنيا الشرط والأساس لصلاح الدين . وعلى حد قول الإمام الغزالي : « . إن نظام الدين لا يحصل إلا بنظام الدنيا . فنظام الدين . بالمعرفة والعبادة ، لا يتوصل إليهما إلا بصحة البدن ، وبقاء الحياة . وسلامة قدر الحاجات ، من الكسوة والمسكن والأهوات والأمن . فلا ينظم الدين إلا بتحقيق الأمن على هذه المهات الضرورية . وإلا فمن كان جميع أوقاته مستغرقا بحراسة نفسه من سيوف الظلمة ، وطلب قوته من وجوه الغلبة ، متى يفرغ للعلم والعمل ؟ وهما وسيلتاها إلى سعادة الآخرة ؟ فإذا . إن نظام الدنيا . أعنى مقادير الحاجة . شرط لنظام الدين ! . . »^(٤)

فإذا كتب التيفاشي [٥٨٠ - ٦٥١ هـ ١١٨٤ - ١٢٥٣ م] في « الجيولوجيا » - طبيعة الأرض - كتابه [أزهار الأفكار في جواهر الأحجار] نراه يفتتحه بـ : « الحمد لله . بسم الله الرحمن الرحيم . وبه نستعين . » على نحو ما يصنع الفقهاء في استهلال مصنفات الفقه الإسلامي ! . .^(٥)

وإذا صنف ابن حزم الأندلسي [٣٨٤ - ٤٥٦ هـ ٩٩٤ - ١٠٦٤ م] في

(٤) [الاقتصاد في الاعتقاد] ص ١٣٥ طبعة القاهرة مكتبة صبيح بدوي تاريخ

(٥) ص ٣٧ طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧ م تحقيق : د. محمد يوسف حسن ، د. محمود سبوي لطفي

« الحُب » كتابه [طوف الحماة في الإلف والإلاف] فإنه يستهله بـ : « بسم الله الرحمن الرحيم . وبه نستعين . أفضل ما ابتدئ به حمد الله عز وجل بما هو أجله . ثم الصلاة والسلام على محمد عبده ورسوله خاصة . وعلى جميع أنبيائه عامة . » وفي ختام كتابه هذا عن « الحُب » يقول لقارئة : « جعلنا الله وإياك من الصابرين الشاكرين الحامدين الذاكرين . آمين آمين . والحمد لله رب العالمين . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً . » فكانه فيلسوف إلهي يصنف في فن الإلهيات !؟^(٦)

فحضارتنا العربية الإسلامية ليست الحضارة الغربية . التي تدرس ظواهر النفس الإنسانية مقطوعة الصلة بخالق هذه النفس . سبحانه وتعالى . والتي تدرس ظواهر الطبيعة كجزء أو أجزاء من عالم بلا خالق . فتكون بذلك لدى العلماء والباحثين والقراء عقولاً ملحدة . حتى ولو لم تطرح قضية الإلحاد للنقاش !؟ . لأن حضارتنا المؤمنة تدرس كل الظواهر الاجتماعية والنفسية والطبيعية باعتبارها مبادئ في عالم له خالق سواه ويرعاه . فلا تقف عند الأسباب المادية المؤثرة . وإنما تشير إلى سبب الأسباب وخالق هذه الأسباب الذي أودعها ماله من فعل وتأثير . ثم إنها تنظر إلى هذه المباحث باعتبارها واجبات شرعية للكشف عن الأسرار التي أودعها الخالق في هذا الوجود ، وحمل الإنسان أمانة إمامة اللثام عن هذه الأسرار . ولذلك ، فإن علوم هذه الحضارة . لا تسهم فقط في تنمية الروح الإيمانية لدى علمائها . وإنما هي قد ربطت وتربط بين هذه العلوم - كوسائل - وبين الحكم والغايات التي

(٦) [رسائل ابن حزم الأندلسي] ج ١ ص ٣١٠ تحقيق : د. إحسان عباس . مطبعة بيروت سنة

وضعها الخالق للإنسان . كخليفة عنه . عليه أن يتخلق بأخلاق الله في الوجود ... فعلى حين ظنت الحضارة الغربية أن الانتصارات العلمية هي « تحرير » للعقل الإنساني من الإيمان بالدين ، أكدت حضارتنا أن المباحث العلمية تكليف إلهي . يزيد العقل العلمي إيماننا بخالق هذا الوجود الذي يبحث العلماء عن الأسرار التي أودعها الخالق فيه ! .

ومثل ذلك صنعت حضارتنا عندما ربطت « السياسة » بـ « الشريعة » ومقاصدها - والعدل أعظم هذه المقاصد وأوها - . فأقامت بينها الصلات التي تنق الفصل العلفاني بين « الدين » و « الدولة » . وذلك دون أن نجعل هذه « السياسة » « ديناً خالصاً » . كما كان الحال في الكهانة الكنسية الغربية في العصور الوسطى المظلمة ...

وإذا كانت الحضارة الغربية قد عزلت « السياسة » عن « الأخلاق » و « القيم » . عندما جعلت من « الميكانيكية » مذهبها السائد في الفلسفة السياسية . فاجتمعت وأجمعت على أن « القوة » هي « القيمة » في عالم السياسة . والغايات تبرر الوسائل . وصكت للسياسة ذلك التعريف الذي يقول إنها « فن الممكن من الواقع » ... فإن حضارتنا العربية الإسلامية قد ربطت « السياسة » بـ « القيم » و « الأخلاق » . وجعلت « العدل » هو القيمة الكبرى في عالم السياسة والمقصد الأعظم من مقاصد الشريعة . وما أعمقه وأبلغ دلالاته ذلك التعريف الذي صكته للسياسة . بلسان الإمام أبو الوفاء ابن عقيل [٤٣١ - ٥١٣ هـ - ١٠٤٠ - ١١١٩ م] عندما عرّفها فقال :

« السياسة : ما كان من الأفعال بحيث يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد... »^(٧) ..

فهنا ، الربط العضوي مابين السبل والحكمة . مابين الوسائل والغايات مابين الأعمال والقيم والأخلاق ..

وهذه الروح المتدبنة في حضارتنا العربية الإسلامية ، كان ولا يزال محورها ومزاجها هو « التوحيد » . به تُمَيِّزُ دينها . وتميزت سماها وقيمتها جميعا حتى نستطيع أن نقول : إن هذا « التوحيد » قد غدا « هوية » تتميز بها أمتنا وحضارتنا عن غيرها من الأمم والحضارات ..

فالتوحيد الإسلامي ، الذي بلغ الذروة في النقاء والصفاء في التجريد ، عميق وقديم وأصيل في المكونات الفكرية بترائنا . إلى الحد الذي نجده في التراث الديني لمصر القديمة بأناشيد أخناتون [١٣٦٩ - ١٣٥٣ ق م] قد جعل الله إلهها لتكون كله : « إنك الإله الذي دان الجميع بحبك

أنت إله ، يا أوحده ، ولا شيء لك
لقد خلقت الأرض حسبها تهوى أنت وحده
خلقتها ولا شريك لك .. »^(٨) .

فنحن هنا أمام جدول من نبع التوحيد الديني الذي عرفته موارثنا الدينية

(٧) القرآن قيم الخيرية [أعلام الموقعين] ج ١ ص ٣٧٢ وما بعدها . طعة بيروت سنة ١٩٧٣ م
و [الطرق الحكيمة في السياسة الشرعية] ص ١٧ - ١٩ . تحقيق : د . جميل شادي طعة القاهرة سنة ١٩٧٧ م .

(٨) د عبد المنعم أبو بكر [أخناتون] ص ٩٧ - ٩٨ . طعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م .

والحضارية منذ فجر التاريخ الإنساني ، حتى لقد أصبح معلماً بارزاً من معالم تراثها الفكرى جاءها من بقايا الشرائع الإلهية القديمة .. وبه تميزت عن صورة التوحيد في [العهد القديم] ، تلك التي جعلت « التوحيد » أقرب مايكون إلى الوثنية . فخاله فيها - بزعمهم - هو إله لبني إسرائيل وحدهم . أما الشعوب الأخرى فلها آلهتها الخاصة بها ١٤ ..

وحقن وثنية العرب القديمة . في جاهليتهم التي سبقت الإسلام . كانت « أعرافا » عن جوهر ونقاء هذا « التوحيد » [ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ؟ ليقولن : الله] (٩) .. [مانعدهم إلا ليفرطوا إلى الله زلقى ..] (١٠)

وهذه الروح « التوحيدية » التي بلغت في روح الحضارة الشرقية مبلغ « الهوية » والثوابت من القسائم . هي التي جعلت المسيحية تعجز عن تلبية احتياجات الإنسان الشرقى الاعتقادية . عندما أصابت هذه المسيحية التأثيرات « الهلينية » بما أخرجها عن الإطار الحقيقى للتوحيد الحق ١٥ . فكان دخول شعوب الشرق في دين الله - الإسلام - أفواجا . دونما إكراه . بالترغيب أو الترهيب ، رغم حرية الاعتقاد التي أبقته المؤسسات الكنسية وما لها من ثراث في الجدل وخبرات في التشهير . فلقد كان التوحيد الإسلامى . الذى بلغ الذروة في النقاء . والذى أعاد إلى هذه العقيدة - التي هي جوهر الدين - صفاءها ونقاءها الذى أرادها عليه الواحد : سبحانه وتعالى .. كان هذا التوحيد الإسلامى « الهوية » التي أعادت شريعة الإسلام

(٩) لقمان : ٢٥

(١٠) الزمر : ٣

الكشف عن جوهرها ، بعد أن طمسها تعقيدات التثليث والتجسد والحلول ... !

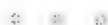
وإذا كان الباحثون في تراث الغرب الفلسفي ، يرضون في ذلك التراث تباراً « مادياً - ملحقاً » منذ اليونان وحتى عصرنا الراهن ، فلا بد وأن يلفت نظر هؤلاء الباحثين خلوة تراثنا الفلسفي من هذا التيار « المادي - الملحق » عبر تاريخنا الحضاري الطويل .. وماتلك المشبهات والمقولات والاجتهادات التي يحسبها البعض « شكاً » أو « زندقة » أو « إلحاداً » ، إلا « وافد » غريب عن روح حضارتنا وفكرها الفلسفي ، لم يتعد مكان « التثوي - النشار » ، ولم يبلغ حجم « التيار » أو ما يشبه « التيار » ! .. أما الاجتهادات الأصلية ، التي حسبها « النصوصيون » « إلحاداً » ، فإن النهج العقلاني الإسلامي الوسطي - الذي تأخت فيه « الحكمة » و « الشريعة » - يضعها في إطار « العقلانية الإسلامية » ، وينفي عنها أن تكون « مادية » أو « إلحاداً » ، كذلك الذي تميز به التراث الفلسفي الغربي منذ اليونان وحتى العصر الحديث ..

فهو ، إذن ، التدين ... والتدين بروح التوحيد وعقيدته ... قد بلغ ويبلغ في حضارتنا العربية الإسلامية مبلغ « الهوية » ، والقسمة الثابتة ، والسمة التي غدت معلماً من المعالم الذي تتميز به حضارتنا على غيرها من الحضارات

● **الوسطية :** التي جعلت حضارتنا العربية الإسلامية - وأمتها - ترفض « الغلو » ، بكل صوره - وفي كل الميادين ... هذه « الوسطية الإسلامية » قد غدت ، هي الأخرى ، « هوية » تميزنا بها عبر تاريخنا الحضاري الطويل .. فهذه الأمة قد أراد لها الله سبحانه أن تكون وسطاً ، تقف موقف الشاهد

العدل بين طرفي الظلم . والحق بين طرفي الباطل . والاعتدال بين طرفي التطرف والغلو .. الخ . الخ . [وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس]^(١١) ..

بل إننا لانغالي إذا قلنا إن هذه « الوسطة الإسلامية » قد غدت - لمركزيتها ومركزها في « القسيات - الهوية » - قد غدت جعاج « الهوية » العربية الإسلامية . والخصيصة الأم لأمتنا وحضارتنا . وزاوية الرؤية الصحيحة والوحيدة لكل من أراد إدراك حقيقة السمات التي تميزت بها هذه الحضارة . أي إدراك حقيقة جوهرها و« هويتها » .. كما غدت معيار تقدم الأمة - يوم سادت وتألفت في إبداعها الحضاري - وسبب تراجعها وجسودها وتخلفها عندما أخلت مكانها للغلو والتطرف ذات اليمين وذات الشمال !



تقد عرفت الإنسانية العديد من الحضارات التي نمت وازدهرت . قبل الحضارة العربية الإسلامية . وحوطها . ومن بعدها . وشهدت الإنسانية تميز العريق من هذه الحضارات بالذائق الخاص . و« البصمة » الخاصة التي ميزت الواحدة من هذه الحضارات عن غيرها . وشهدت الإنسانية . أيضا . تميز حضارتنا العربية الإسلامية بهذه « الوسطة الإسلامية » - كخصيصة العظمى - برزت فيها . فلوحت قسماؤها . حتى غدت عنوانا عليها . وكانت سر ازدهارها . لا في إطارها المحلي الإسلامي فقط . بل وسر الحداثة التي صنعت تأثيراتها العالمية سلما واختيارا ..

وقبل الحديث عن أبرز معالم هذه «الوسطية الإسلامية» . ودورها في
 اليقظة الإسلامية المرجوة والإحياء الحضارى المنشود . لابد من التنبيه إلى أن
 تطورات واقعنا وفكرنا قد أصابت مصطلح «الوسطية» بما جعله مصطلحا
 «سبى السمعة» ! . فهو لدى «العامة» من المثقفين . وأشباه المثقفين من
 العامة قد غدا مرادفا «للتناحية» و«السميع الفكرى» و«انعدام الموقف
 الواضح واتخاذ» و«إسالك العصا من المنتصف» . وغية اللون والظم
 والرائحة عندما يتطلب الأمر الجسم والتحديد . وهو - أى مصطلح
 «الوسطية» - لدى كثير من «خاصة» المثقفين . يعنى مايعنيه فى الفلسفة
 الأرسطية . أى «نقطة رياضية» بين «قطبين» من أقطاب ظاهرة ما
 كالشجاعة . مثلا . هى وسط بين «الجبن» و«التهور» . كما أن «الكرم»
 هو وسط بين «البخل» و«الإسراف» . الخ . الخ . فالوسط معابر لكلا
 القطبين . يتوسط بينهما

وما هكذا مضمون «الوسطية» . كالتعبئة العظمى لحضارتنا العربية
 الإسلامية

فهى ليست الموقف الوسط بين أمرين - على هذا النحو - وهذا المعنى -
 وإنما هى «الموقف الثالث» . الذى يرفض تطرف الانحياز لأى من القطبين
 المتناقضين والمتقابلين . دون أن يكنى بالوقوف فى نقطة ثابتة تتوسطهما . وإنما
 يجمع ويؤلف مايمكن جمعه وتأليفه من سماتهما وقسماتهما . ف«الكرم» غير
 «البخل» وغير «الإسراف» . لكنه موقف ثالث - لايتوسطهما - وإنما هو
 جامع لسمات وقسمات من كل من «البخل» و«الإسراف» . فضيه من
 الحرص «ومن» البذل . مايجعله جامعا ومؤلفا لما يمكن جمعه وتأليفه من

القطبين المتناقضين . مع المغايرة لها والتميز عنها . وقس على ذلك كل الفضائل والمواقف والتسميات الحضارية التي كانت ملامح الحضارة التي أبدعتها هذه الأمة الوسط .

وإذا كان الله . سبحانه . قد نبه على اختصاص هذه الأمة بهذه الخصيصة - التي يستطيع كل من امتلكها أن يدخل في إطارها - فقال سبحانه : [وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس] . فإن نجاح المسلمين في الحفاظ على هذه الخصيصة في بناتهم الحضارى . هو الذى مثل سر تقدمهم إبان عصر ازدهار حضارتهم . كما أن اختلال التوازن . ومن ثم افتقارهم هذه الوسطية . هو الذى أفقدهم ميزتهم . فدخلوا دروب الجحود والتراجع والتخلف الذى ساد حياتهم لعدة قرون . ومن هنا تبرز العلاقة العضوية بين « الهوية الحضارية » وبين البقطة المنشودة للأمة العربية الإسلامية . ففي المشروع الحضارى الكافل لبقطة الأمة ونهضتها لا بد وأن تكون الهوية الحضارية للأمة هى الصيغة التى يصطبغ بها هذا المشروع . وذلك حتى تكون البقطة حقيقية والنهضة مواصلة لروح الخلق والإبداع العربية الإسلامية . وليست قيودا تشد الأمة إلى نمط من « التحديث » مناقض فى هويته لشخصيتها القومية والنمط الحضارى الذى تميزت به أممتا عبر تاريخها الحضارى الطويل ..

إننا مع القائلين : « إنه لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صنح به أولها » . لكن لهذه المقولة عندنا مضمونا أعمق مما لها عند الكثيرين ١٢ . فهى تعنى أن ازدهارنا الحضارى المنشود ومن يميز بقفتنا ونهضتنا المعاصرة بالخصائص الأساسية والهوية الحضارية التى تميزت بها نهضتنا الأولى

فالتقضية ليست « قوالب تجارب السلف » ، ولا معاركهم واهتماماتهم
 المرحلية . وإنما الثوابت والقياسات الحضارية . التي مثلت وتمثل الهوية التي
 تميزت بها أمتنا وحضارتنا عن غيرها من الأمم والحضارات . تلك الخصائص
 التي نرى ارتباطها الأوثق « بالخصيصة الجامعة » خصيصة « الوسطية »
 الإسلامية . فهذه الوسطية هي التي ميزت حضارتنا عن كثير من الحضارات
 الأخرى بالتوازن والموازنة بين ما عدَّ في أنساق فكرية أخرى متناقضات لا سبيل
 إلى تعاضدها . فضلا عن الجمع بينها والتأليف بين محتاتها وقسماتها . ففي الحضارة
 العربية الإسلامية تجسدت هذه الوسطية في العديد من السمات والقياسات التي
 كونت جوهر البناء الحضاري . ومثلت سر نفوق المسلمين وتقدمهم . وذلك من
 مثل :

● تميز الإسلام - وهو « دين » - « بالعقلانية » في « النقل » فيه -
 وهو قرآنه المعجز - لم يأت ليدهش العقول فيذهبها - كما كان الحال مع
 المعجزات المادية لرسل الرسالات التي سبقت الإسلام - بل لقد جاء القرآن
 الكريم ليحثكم إلى العقول - جاعلا منها مناط التكليف الشرعي . مؤاخيا بين
 « الحكمة » و « الشريعة » . جاعلا من صريح العقول وصحيح المنقول .
 ومن « كتاب الوحي » و « كتاب الكون » صلا متآخية - خلقها خالق
 واحد . ويسرها جميعا لهداية الإنسان وترشيده . دوتما تتناقض أو تضاد
 حتى لقد قالوا : صادقين . عن الإسلام : إنه نسق فكري . فيه تدبّرت
 الفلسفة . كما تفلسف الدين ! وللمرة الأولى في تاريخ الفكر الإنساني
 تتأسس « فلسفة » أمة وحضارة - « علم الكلام الإسلامي » - على « الوحي »
 الإلهي . لا على رفضه أو تجاهله . كما حدث في حضارات أخرى

ولقد تقدم المسلمون عندما حافظت وسطيتهم على هذا التوازن . فلما
سادت فيهم « النصوصية » . التي تنكرت للعقل والعقلانية . وعرفت
حياتهم الفكرية نقيض « النصوصية » : العقلانية المنفلتة من العقل والوحي .
انفتح عليهم باب من أبواب التخلف فدخلوا فيه !

● وتميز الإسلام - وهو الدين العالى - الذى جاء رحمة للعالمين .
وعقيدة لا تخلص بشعب أو قومية أو جنس من الشعوب والقوميات
والأجناس - تميز - مع عالميته - بعدم تجاهل الواقع القومى المتميز للأمم التى
تدين به ودخلت فيه . إنه لا ينجاهل التمايز القومى . ولا يقفز عليه . فمن
آيات الله فى البشر اختلاف الألسنة والألوان . ومع ذلك فهو يكر أن تتحول
التمايزات القومية إلى حدود تصد العقيدة والإخاء الإسلامى والإنسانى عن
التأليف بين القوميات . فهو - بالموسطية - يعطى هذا التمايز القومى المسلمون
الحضارى الذى يؤلف بين التعددية القومية وبين عالمية الإسلام الدين . على
النحو الذى يجعل أمة الإسلام وحضارته « محيطا » أوسع يختص « الجرد
القومية » دونما تناقض أو تضاد . فالعروبة الحضارية الإسلامية . مثلا .
دائرة انتماء حضارية . تسبقها الدائرة الوطنية . وتليها جامعة الإسلام .
فالمسلمون العروبة الإسلاميه هو ثمرة إسلامية متميز عن مضمونها العرقى
الجاهلى . ومن ثم فأفقيها مفتوح . وهى ليست بالفكرية - « الأيديولوجية » -
حتى تكون هناك إمكانية أو شبهة لتناقضها الفكرى مع الإسلام .

وعندما حفظت الموسطية الإسلامية هذا التوازن بين « العروبة »
و « الإسلام » كان تفوق المسلمين وتقدمهم . فما حكم الأعاجم - المائتات
والترك والديلم - أمتنا العربية الإسلامية . ووقفوا عند الإسلام الدين .

و « الشكل » منه على وجه الخصوص . دون العروبة الحضارية . ذات الصلابة العضوية « بجوهر » الإسلام . عند ذلك نشأت مزاعم تناقض العروبة مع الإسلام . فأنحاز فريق إلى الإسلام ضد العروبة . وحاء القبط المنحاز إلى العروبة ضد الإسلام . وافترقت الأمة الوسطية التي أقامت العلاقة العضوية والجدلية بينهما . فانفتح على المسلمين باب من أبواب التخلف فدخلوا فيه !

● وبالوسطية الإسلامية لم يقف فكر حضارتنا - إبان ازدهارها - عند « النظر » وإنما زواج - في توازن - بين هذا « النظر » وبين « الممارسة والتطبيق » فلم يقلد اليونان الذين انحازوا للعمل الفكري ضد العمل اليدوي . ولم يقف المسلمون عند علوم الوحي والشرع وحدها . وإنما برعوا في علوم الكون والطبيعة أيضا . ولم يقفوا عند « القياس » الأرسطي . والمنطق الشكلي - الصوري - وإنما تجاوزوه - عبر الملاحظة والتجريب - فأبدعوا « المنهج التجريبي » . ورأينا حضارتنا - في الأصول - كما أبدعت في « أصول الدين » فلسفتها النظرية - علم الكلام الإسلامي - نبذت في « أصول الشريعة » للدنيا « أصول الفقه » أيضا . وكذلك صنعت في « الفروع » « فضم « الفقه » : فقه « المعاملات » فقه « العبادات »

وعندما ساد ذلك المنهج في حضارتنا كان تفوق المسلمين وتقدمهم . فلما وقف فريق عند « النظر » في « الحواشي » و « المتن » و « الشروح » و « التفسيرات » و « التعليقات » - مهملين فقه « الواقع » وعلومه . ووقف آخرون عند « الواقع » بعد عزله عن هيمنة أحكام الشريعة وأصول الفقه . كان إغلاقي باب الإبداع - الاجتهاد - في أصول الفقه . و « فقه

المعاملات . وكان التقليد الذي يزرع ويوزع في الواقع الإسلامي فلسفات
تشريعية غريبة عن طبيعة الأمة وهويتها الحضارية . فافتتح بذلك واحد من
أبواب النخلف الذي دُفع إليه المسلمون فدخلوا فيه !

● وكانت الوسطية الإسلامية قد حددت « للإنسان » المسلم في هذا الكون
مكانا ممتازا ومتميزا . فهو ليس سيد الكون - كما قررت ذلك الحضارات ذات
الطابع المادى - حتى لقد زعمت تجسد الله فيه ! .. كما أنه ليس « الحقير »
الفانى « المتلاشى » في ذات الله - كما قالت الحضارات ذات الطابع الصوفى .
الداعية إلى تعذيب الجسد تقربا إلى الله - وإدارة الظاهر للدنيا بزهد
الدراويش ! فكان الإنسان في الكون ، كما حدده الإسلام : أنه سيد في
هذا الكون - سيد فيه ، وليس سيده - لأنه . مع تفضيله حتى على الملائكة
المقربين . وتسخير الطبيعة وقواها وظواهرها له . يحتل في هذا الكون مكان
الخليفة والوكيل والنائب عن السيد الحقيقى . سبحانه وتعالى . لامكان هذا
السيد الحقيقى فهو سيد في نطاق الخلافة والنيابة والتوكيل - سخرت له
الطبيعة لعمارتها وترقيتها . وليس للعدوان عليها والتدمير لمقوماتها . وأعطى
الحرية والمسئولية . ليكون في عمارة الكون وسياسة الدولة وتنظيم المجتمع مصدر
السلطة والسلطان . في إطار مقاصد الشريعة وحدودها . وهذه الوسطية
ربطت حضارتنا بين « العلم » و « الحكمة » بين « الوسائل » و « الغايات »
وعرفنا فيها أن « السياسة » هي : « الأعمال التي يكون الناس معها أقرب إلى
الصلاح وأبعد عن الفساد » . وليست هي : « فن الممكن من الواقع » -
بصرف النظر عن الوسائل والأساليب ونصيب الغايات من الفضائل
والأخلاقيات ١٢ .

وبوم أن كانت سائدة في حضارتنا هذه الوسطية . تقدم المسلمون - فلما دعا

فريق إنسانها - بالتصوف الجاهلي - تصوف العامة - إلى الفناء في ذات الله ودعاه آخرون إلى مادية لا تفهم في الوجود وزنا لسواه - كان ذلك بابا من أبواب التخلف الذي دخل فيه المسلمون !

● وكانت الوسطية الإسلامية قد أقامت توازنا نموذجيا وفريدا بين « الفرد » و « المجموع » . حتى لقد استنت في مبدآن الثروة والمال سنة متميزة وممتازة . برزت من داء التطرف المنحاز إلى الفرد . كما تجسد في « الليبرالية الاقتصادية الغربية » . ومن داء التطرف المنحاز إلى المجموع . كما تجسد في « الشيوعية الاقتصادية الغربية » . فأقامت الوسطية الإسلامية موازنة وتوازنا بين الفرد والمجموع في هذا الميدان الحاكم والحيوي من ميادين الإصلاح الاجتماعي . رأينا فيه الملكية الحقيقية والمطلقة - ملكية الرقبة - في الأموال لله سبحانه وتعالى . ورأينا فيه : الإنسان - من حيث هو إنسان - وليس الفرد أو الطبقة - خليفة ومستخلفا عن الله في إدارة الأموال واستثمارها وتنميتها . وفق مقاصد الشريعة وموازن العدل التي حددها المالك الحقيقي . وهذا الإنسان - كفرد - بحق الخلافة والوكالة والنيابة - ملكية مجازية - هي ملكية المنفعة - أي الوظيفة الاجتماعية للملكية - محكومة بشروط ومقاصد الوكالة والنيابة والاستخلاف . وهي ثمرة للعمل المشروع . ومحدودة بخد الاكتفاء . لا الفقر ولا الاستغناء . وفق العرف الذي يرعى درجة المجتمع في سلم الغنى والرخاء . فجمعت هذه الوسطية المالية بين حسنى الملكية الجماعية والملكية الفردية . وبرزت من أدواء التطرف في أي منهما .

وبهذه الوسطية تقدم المسلمون - فلما جنحوا إلى الانحراف . فتحولت أراضهم وأموالهم إلى « إقطاع حربي » لقادة العسكر وأمرء الأجناد والماليات .

ثم جاء طور الحياز صفوة مفكرهم الاجناعيين والاقتصاديين المتغربين إلى قطبي التعرّف الوافدين من الحضارة الغربية - الليبرالية المطلقة . أو الشمولية المطلقة - غابت الوسطية الإسلامية ، ودخل المسلمون إلى التخلف من هذا الباب !

● وكانت الوسطية الإسلامية قد أبدعت التوازن بين « الدين » و « الدنيا » . بين « الروح » و « المادة » . . . فنحن نعمل للدنيا كأننا نعيش أبداً ، ونعمل للآخرة كأننا نموت غداً ، وإيماننا بالآخرة هو الذى يدعونا إلى أن نعمل في الدنيا فنغرس الغرس حتى عندما تقوم القيامة ونشهد بأعيننا أشراتها ؟! . .

لقد دمجت هذه الوسطية وجمعت وألفت بين العالمين - « الدين » و « الدنيا » - حتى جعلت من زينة الحياة الدنيا عبادة دينية . ومن صلاح أمور الدنيا وتوافر الاحتياجات المادية للإنسان : الشروط الضرورية لصلاح أمر الدين ! - كما قال حجة الإسلام الغزالي - . . وأصبح مألوفاً في فكرنا الإسلامى مقولات تقول : مارآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن . . . وأن المسلم الحقيقى - حتى لو كان أشعث أغبر - لو أقسم على الله لأبره الله ؟! . . وأن صلاة الجائع والخائف لا تجوز ، لأن « الأمن المادى » و « الروحى » هو أساس التدين بالدين . .

وعندما ساد هذا التوازن ، الذى صنعه الوسطية الإسلامية ، كان تقدمنا وتفوقنا فلما غابت هذه الوسطية ، فأدار البعض منا ظهره للدنيا وعلومها وهنؤها . باسم الدين ، وأدار البعض الآخر ظهره للدين وعلومه ومناهج تهذيبه لنفس وتربيقه للقلوب . باسم الدنيا ، اختل التوازن ، فكان ذلك الباب من

أبواب التخلف الذي دخل فيه المسلمون !..

● وكانت حضارتنا قد أقامت ذلك التوازن الفريد بين « فروض العين » و « فروض الكفاية » أى - بتعبير حديث - بين « الفرائض الفردية » و « الفرائض الاجتماعية » - كجزء من موازنتها بين « الفرد » و « المجموع » - .. فكانت هذه الموازنة لبنة من لبنات تقدمنا .. إذ فى ظلها كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - أى الاهتمام بالشئون العامة - فريضة تأتى فى مقدمة فرائض الإسلام . وكانت المرأة لا تخرج إلى الحج - وهو خامس أركان الإسلام - إلا برفد زوجها . ولكنها تخرج إلى الجهاد عندما يتعين باحتلال العدو أرض الوطن . حتى وإن رفض زوجها خروجها للجهاد ؟! وكانت مجالس العلم أركبى من خلوات عبادات الفروض العينية .. الحج .. الخ ..

فما أصاب الخلل هذا التوازن وهذه الوسطية : ورأينا الذين يهتمون هموم الأمة ويناضلون لهضة « الجماعة » يتحللون من التكاليف الفردية . بل ويسخرون منها .. على حين قد غرق وغافل فيها آخرون حتى لقد استغفدت منهم الطاقات وأهلوا مصالح « المجموع » .. كان ذلك واحداً من أبواب التخلف الذى دخل فيه المسلمون !

● وكانت حضارتنا قد استنت مئة حسنة عندما وازنت - بالوسطية - بين « حقوق الحكام » و « حقوق المحكومين » ، فكان حكامها « عمالا » عندها و « أجراء » لديها ؟! لهم - وهم النواب عن الأمة - حق السمع والطاعة فيما فوضتهم الأمة فيه ، مما هو لازم لبلوغ الغاية من التفويض ، وفق مقاصد الشريعة وحدودها . وللمحكومين على حكامهم حق العدل ، الذى هو أعظم

مقاصد الشريعة . والغاية من رسالات كل الرسل . واسم من أسماء الله سبحانه وتعالى ؟!

فلما اختل هذا التوازن . تنكب الحكام سبيل العدل إلى مسائل المظالم والاستبداد . فرأوا في أموال المسلمين « طعمة » لهم ولأعوانهم ، وتوزعت الرعاية إلى أرقاء للترغيب والترهيب ! . أما المحكومون فإنهم سلكوا سبيل التواكل واللامبالاة والتدليس . إفتسالا لخطط الحكام . ونكاية بهم ، وانتقاما من ظلمهم واستبدادهم .. فكان الفقر والإفلاس من مقاصدهم - أحيانا - حتى تضمنحل سلطة غاصبيهم وظالمهم ؟! - « إيش تأخذ من تفليسي يا برديسي ؟! » .. فغاب السمع والطاعة مع غيبة العدل والإنصاف . واضمحلت الحضارة الإسلامية مع اضمحلال قدرات إيجابيين والمحكومين .. وكان ذلك بابا واسعا من أبواب التخلف الذي دخل المسلمون فيه ! .

● وكانت وسطيتنا الإسلامية قد أقامت لنا توازنا عبقريا بين « العقل » و « القوة » . تحدث عنه أسلافنا فيما أوردونا من كنوز تحت عناوين من مثل : الموازنة بين « القلم » و « السيف » .. وبهذا التوازن صارت القوة الضاربة أداة بيد العقل والفكر والحضارة . عليها أن تحمي الحمى . وها حق « الوعي » الحضارى عندما يطلب منها أن « تطيع » ؟!

وعندما كانت هذه القوة الضاربة « عربية الفكر والحضارة » - أى من ذات الأمة - ساد التوازن بينها وبين « عقل الأمة » .. فكان التقدم والازدهار . فلما أصاب الترف بأمراضه هذا القطاع من قطاعات الأمة . وأعجزت الرفاهية وأقعدت العرب المسلمين عن النهوض بمهمة القوة الضاربة اللازمة والقادرة على مواجهة التحديات : الداخلية - كالتشرذم الإقليمي - والثورات المذهبية .

والتمردات الطائفية والخلية - والتحديات الخارجية - بيزنطية .. وصليبية .. ومغولية - عند ذلك لحأت الدولة إلى الترك المماليك ، فلما تضخمت مؤسسة العسكر المماليك ، اختل التوازن كأبشع ما يكون الخلل ، فتحولت المؤسسة العسكرية المملوكية من أداة بيد الخلافة - كما كان مأموالا - إلى القوة الحقيقية التي تلعب بمنصب الخلافة - وكانوا غرباء عن حضارة الأمة ، ولم بالقوا - لأنهم عسكر وترك ممالك - مانعنه عقلانية الإسلام من استنارة ، وماعقده الإسلام الحضارى مع العروبة الحضارية من عروة وثقى .. فاختل التوازن ، لحساب « القوة » ، على حساب « العقل » ، لحساب « التصوصية » ، الحامدة ، وعلى حساب « العقلانية المستنيرة » ، ثم كان أن فرضت الأخطار الخارجية - وخاصة الصليبية والمغولية والغربية الحديثة - على الأمة أن تسلم القياد لهذا اللون من ألوان « القوة » ، وطالت أحقاب الخطر الخارجى فامتدت قرون الحكم للترك المغول - المماليك - والترك العثمانيين - فلما طال ليل التخلف ، التابع من غيبة التوازن ، وسيادة الخلل ، لاختفاء الوسطية أو تراجعها ، رأينا التراجع وقد صار جمودا .. ورأينا هذا الجمود وقد أثمر - بمرور القرون - هذا التخلف ، الذى استغفر ويستغفر القوى العاقلة فى الأمة لتجاهد من أجل البقطة الإسلامية . وفى سبيل النهضة التى تخرج المسلمين من المأزق الذى دخلوا فيه !

● وكانت وسطيتنا الإسلامية قد حسنت ذلك التوازن الدقيق بين « الدين » و « الدولة » ، عندما وقفت شريعتهما الإسلامية الإلهية الثابتة عند المقاصد والفلسفات والحدود الثابتة فيما يتعلق بشئون الدولة وسياسة المجتمع وتنمية العمران ، الأمر الذى جعل من هذه الشريعة - فى أحكامها الدنيوية - إطارا حاكما هو أشبه ما يكون بالروح الحضارى والفلسفة التشريعية والأمة .

بداخل هذا الإطار . هي مصدر السلطات : تدع في شئون « الدولة » إبداعها
المحكوم بروح الشريعة الإلهية ومقاصدها ، تلك التي وقفت عند الثوابت
والأصول

وفي ظل هذا التوازن صنعت أمتنا تقدمها . فلما غاب عن « الواقع »
و « الفكر » . وجدنا أنفسنا وقد توزعتنا دعوات تبعدنا فيها سن الأمم
والحضارات الأخرى . شبرا يشرب وذراعا يذراع . حتى لقد دخلنا جحر النضب
الحرب الذي دخلوه - رغم تحذير النبي - صلى الله عليه وسلم - لنا من هذا
المصير ١٢ - . فقال نفر منا بما يشبه « الكهانة » و « الدولة الدينية » . وقال
آخرون « بعلمانية » تدع مالم يقصر لقيصر ومالله لله ١٣ . وتوزعتنا مذاهب . منها
من يجرد الأمة من كل سلطة وسلطان . ومنها من يجرد الإسلام من طابعه المدني
ومدخله في سياسة الدولة وتنظيم المجتمعات ... فكان هذا الباب من أبواب
التخلف الذي دخله المسلمون . يستعبرون « مشكلا » كمي يستعبروا له
« الحلول » . ذاهلين عن وسطيتهم الإسلامية ، وغافلين عن التوازن الذي أثمرته
في هذا الميدان ! .



تلك هي « الوسطية الإسلامية » : الخصيصة الجامعة
كانت « زاوية الرؤية » لكل سمات حضارتنا العربية الإسلامية إبان
ازدهارها وعظمتها .
وكانت « المزاج » الذي طبع قسيات هذه الحضارة ، عندما كانت متارة
الدنيا بأسرها ..

وكانت «الروح» الشارية في «المكونات» : الثوابت» التي مثلت «هوية»
هذه الحضارة و «جوهرها»

وصدق الله العظيم إذ يقول : [وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء
على الناس] .

وصدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذ يقول : «الوسط : العدل .
جعلناكم أمة وسطا ..» (١٢) .

إنها أمة عربية إسلامية متميزة بـ «هوية» حضارية منسجمة ولا بد لبقظتها
ونضتها الحديثة من أن تنأسس على مشروع حضارى يعطى مبرراتها المتميزة .
لا مجرد الوفاء بحق التمايز الحضارى الموروث على دعاء البقظة والنهضة الحديثة .
وإنما تحكم الضرورة التي نعلمنا استعجاله انتمو على البذر إذا هو ألقى في غير المناخ
الصالح كي ينبت فيه .. ونحكم الأضرار المحققة والمائلة في طريق التبعية
للمنموذج الحضارى الغربى ، الذى تنضج الآن أكثر فأكثر المآزق التي تمسك به
بالخناق !

.. إن تميز أصالتنا بهذه «الهوية» الحضارية التي صيغت بها . يتطلب أن تتميز بها
معاصرنا أيضا . وذلك إذا شئنا لبقظتنا ونهضتنا أن تكون عمة انحرارنا من
الأغلال .. أغلال التبعية تقاهرى أمنا . الذين فرضوا عليها التحديات .
تاريخيا . ولا يزالون يفعلون ! وإذا شئنا . كذلك . لحضارتنا وأمتنا أن تعود
ففسهم ، مرة أخرى ، في العطاء الفكرى كحضارة إنسانية . تملورت حول
عقيدة عالمية . حمل رسالتها التي العربى إلى الإنسانية جمعا ،

(١٢) رواه الإمام أحمد

إن حضارتنا إسلامية . كما أن أمتنا إسلامية . ولقد أنجرت أمتنا طور
ازدهارها الحضارى عندما اصطبغت حضارتها بهذه الهوية الإسلامية .
فتأسمت مختلف ميادين الإبداع الحضارى .

وليس معنى أسلمة البقطة والنهضة والمشروع الحضارى الظن بتطابق
« الحضارة » و« الدين » . فـ « الحضارة » إبداع « بشرى - مدنى » ، وإسلاميتها
تعنى تميزها بسيادة المعايير الإسلامية مختلف ميادين إبداعها . فهي ثمرة لتفاعل
« العقيدة » الدينية مع « الواقع » من خلال وبواسطة الإبداع « الإنسانى » . إن
العمارة الإسلامية « وه الفنون الإسلامية » ليست « الدين الإسلامى » ، ولكنها
إبداع الإنسان المسلم عندما يكون مسلماً حقاً . وكذلك الحال فى مختلف ميادين
الإبداعات الحضارية . إنها - بإيجاز - « الوضع البشرى » المؤسس على « الوضع
الإلهى » - « الدين » - ، والمحكوم بأطره ، والمطبوع بطابعه الإلهى ، والمصبوغ
بصبغته الإلهية .

وفى الإبداع الحضارى : وحول النهضة الحضارية بدور الحديث . . فشارع
« الدين » : سبحانه وتعالى قد تكفل بحفظه [إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له
لحافظون] (١٣) . والبقطة المطلوبة . والنهضة المنشودة . هى إسلامية بقدر
استلهاها الهوية الحضارية الإسلامية فى الإبداع الحضارى المدنى المنوط بمسعى
هذا العصر الذى نعيش فيه . . .



تاريخ التراجع الحضارى وأسبابه .. ومظاهره

لم يتبدل «الإسلام - الدين» ولم تضعف حصيلة المسلمين من فقد أسراره ومراميه بل لعل التقدم الذى أحرزته علوم الشريعة والعلوم الطبيعية أن يكون قد أتاح للخلف من أسرار الإسلام ومراميه ما لم يتح للأسلاف

فلماذا تقدم «السلف» .. وتخلف «الخلف» ؟ حتى صرنا إلى ما نحن عليه ، ووجدنا أنفسنا - وغربنا - مدفوعين إلى الخوض فى الحديث عن ضرورة اليقظة الإسلامية التى تخرج الأمة من السبات والنوم ؟ والصحة التى تنقذها من السكر ؟ .. والنهضة التى تغادر بها الركود .. والتقدم الذى يعنفها من التخلف ؟ .. والتجديد الذى يخرج بها من الجمود ؟ .. والاجتهاد الذى يعصمها من التقليد ؟ .. والارتقاء الذى يرفع عنها عار الانحطاط ؟ .. والتواصل الحضارى الذى يحدد الخيوط التى وهنت ، ويبعث الحياة فى قنوات الاتصال بين حياة المسلمين ودينهم الخفيف ؟؟؟

لقد زادت معرفتنا بالإسلام .. وزادت كشوف المسلمين لثروات أوطانهم المادية .. وبلغ تعدادهم المليار .. وهم أكثر أهل الأرض زيادة فى معدل التوالد الجديد ؟! ..

فلماذا تقدم السلف ؟ .. ولماذا تخلف الخلف ؟ ..
سؤال طرحه العقل المسلم منذ القرن الثامن عشر الميلادى .. وأضاف إليه

منذ الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة ، السؤال عن : سر تقدم غير المسلمين !! .

وإذا كانت إجابات هذا السؤال قد تعددت بتعدد مذاهب الذين طرخوا مباحث هذا الميدان فإنني أعتقد أن رصد التحولات الواقعية التي أحالت تقدمنا تخلفا ، عبر مسيرتنا التاريخية ، هو أقوم السبل لحسم النزاع بين المحبين على هذا السؤال ... !



لقد ذهب الصحابي سعد بن هشام بن عامر . رضي الله عنه ، إلى أم المؤمنين عائشة . رضي الله عنها . سائلا .. فقال :

« يا أم المؤمنين . أنبئني عن خلقِ رسول الله . صلى الله عليه وسلم

— فقالت : أأنت تقرأ القرآن ؟

— قال : بلى !

— قالت : فإن خلقَ نبي الله كان القرآن « (١)

هنا . كان القرآن قد تحول ، عبر الذين فقهوه . إلى طاقة حية . تنبع في الواقع بناء حضاريا تنجسد فيه روح القرآن ! ولم يقف الأمر عند الحفظ والتبيل للآيات . بلى ولا الفقه للمرامى والأغراض ؟

وعندما ساوم الباطل — ممثلا في مشركي فريش — الحق — ممثلا في رسول الله . — صلى الله عليه وسلم — بالترغيب والترهيب ، كانت قولته المشعة المدوية : « والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا

الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته...» (٢) !

ولقد صيغت هذه المقولة تلك المرحلة . فكان شعار جيلها القريب :
« احرص على الموت توهب لك الحياة ! » فكان الذي بهر الدنيا
المستضعفون بقوضون عروش الأكاسرة والقباصرة . ولحيون مواسم المواريث
الخصارية القديمة . ويفتحون في ثمانين عاما ما لم يفتح الرومان - سادة الفتح في
التاريخ - في ثمانية قرون . ويبعدون أعظم وأبلى الحضارات التي شهدتها
تاريخ الإنسان

فلماذا ومتى . وكيف حدث الانقلاب ؟ وما هي المسيرة التي سلكتها
الأمة إلى حيث تحققت فيها النبوة السياسية والحضارية . التي نبه عليها
رسولنا - صلى الله عليه وسلم - محذرا . عندما قال : « يوشك أن تداعى عليكم
الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها ! »

فقال سامعوه : « يا رسول الله : أمن قلة بنا يومئذ ؟ »
قال : « أنتم يومئذ كثير ، ولكن تكونون غطاء كثثاء السيل . ولينزعن الله
من صدور عبودكم المهابة بكم . وليقذفن الله في فلوبكم الوهن ! »

فسأل سامعوه : « وما الوهن ؟ يا رسول الله ؟ »
قال : « حب الدنيا وكراهية الموت ! »^(٣)
لماذا ؟ ومتى . وكيف حدث الانقلاب الحضارى . حتى تحققت
« النبوة - المحذرة » لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فغدى المسلمون

(٢) التويرى [نهاية الأرب في فنون الأدب] ج ١٦ ص ٢٠٠ طبعة دار الكتب المصرية

(٣) رواه أبو داود وابن حنبل

غرياء في ديارهم . أسرى لأعدائهم - نستبد بهم وبحقدرائهم التحديت المعادية والمهالة على عالم الإسلام من كل الملل والقوميات - ومن الحضارة الغربية وقواها العدوانية على وجه الخصوص - ٢٤ ..

تلك الحيط من بدايته ولتتابع المسيرة الحضارية . راصدين أسباب التراجع ومظاهره ، لنضع أيدينا وعقولنا على سبيل البقطة التي هي الغاية من وراء هذه الصفحات .



لقد كانت قيادة الشرق . في صراعه التاريخي ضد الغرب : للدولة الفارسية . نهضت بهذه المهمة . ومارست هذا الدور . ناجحة حيناً ومحققة أحياناً ، لعدة قرون [٤٩٠ ق.م - ٦٢٧ ق.م] ١٩ ..

لكن هذه الدولة الفارسية قد بلغت بها أمراضها المستعصية - من النظام الإقطاعي الظالم .. إلى الطبقة الثابتة المغلقة .. إلى استبداد أكاسرتها باسم التفويض الإلهي - بلغت هذه الأمراض حدا جعل كفة الغرب الإغريقي ترجح في هذا الصراع . فكانت الهيمنة الإغريقية الغربية على عالم الشرق منذ حقق الإسكندر الأكبر [٣٥٦ - ٣٢٣ ق.م] انتصاره الحاسم على الفرس سنة ٣٣١ ق.م .. ومنذ ذلك التاريخ :

● رحلت الشام ومصر وبلاد الشمال الإفريقي تحت احكم الإغريقي فالروماني فالبيزنطي ..

● وظل العراق تحت الهيمنة الفارسية .

● وتبادل الفرس والأحباش السيطرة على اليمن وجنوبي شبه الجزيرة العربية ..

● وكان وسط شبه الجزيرة العربية أن يسقط . فتم احتواء كل الشرق نهائيا . في غزو الحبشة لمكة عام الفيل سنة ٥٧١ م . عام ولادة الرسول محمد بن عبدالله ، عليه الصلاة والسلام ١٩ ..

لكن ظهور الإسلام قد جاء إيذانا بتغير صورة هذا الواقع البائس ، وتبدل اتجاه التاريخ العالمي ...

● ففي عام البعثة المحمدية . ومع تبشير الوحي برسالة الإسلام . تحقق للعرب أول انتصار على الفرس في «يوم ذي قار» ١٢

● وبالتوحيد الديني توحدت الهوية القومية والحضارية للعرب . فبنوا دولتهم العربية الإسلامية . التي رفعت رايات الوحدة على شبه الجزيرة كلها للمرة الأولى في التاريخ .

● وانطلقت شعوب المنطقة - حتى الذين ظلوا على عقائدهم الدينية القديمة - خلف العرب المسلمين في موجة الفتوحات العربية الإسلامية . كالإعصار التحريري ، فاقنلوا الهيمنة الغربية البيزنطية التي رسف الشرق في أغلالها لأكثر من عشرة قرون ١٢ .

● وأنجزت هذه الفتوحات وحدة الشرق . تحت قيادة الأمة العربية . وواصلت الدولة العربية الإسلامية المهمة التي عجز عنها الفرس .. مهمة قيادة الشرق في صراعه التاريخي ضد أطماع الغرب واستعمار

لكن الغرب لم يستسلم هذا المصير . فظلت الجبهة «الإسلامية - البيزنطية» مشتعلة بوقائع الغزو والجهاد ..

والذين يراقبون حركة «الخط البياني» لأحداث جبهة الصراع «الإسلامية -

البرنطية . . يلحظون العلاقة العضوية بين «وحدة الأمة الإسلامية» و «وحدة دولها العربية الإسلامية» وبين نواحي انتصارات الجهاد الإسلامي على خط هذه الجبهة . فإذا ضعفت وحدة الأمة واعتزت وحدة الدولة دانت النكسة على حبهة التحديات الخارجية لصالح الأعداء . . أى أن العوامل الداخلية والخارجية قد ارتبطت دائما وأبدا في الصعود والهبوط . في القوة والضعف . في الانتصار والخزيمة . فكان تاريخ «الواقع» الشاهد الأعظم على صدق «المنهاج والنظريات» التي تعلمنا صدق هذه المقولة في شئون الأمم عبر كل الحضارات وفي كل مراحل التاريخ . . فالعلاقة عضوية . والعروة وثقى بين العوامل الداخلية والخارجية في صراعات هذه الأمة . وفيها حققت من تقدم وما أصاب مسيرتها الحضارية من نكسات

فاستداد مخاطر التحديات الخارجية فتح الباب للاهتمام بـ «الدولة» أكثر من «الأمة» . والتركيز على «القوة» على حساب «العدل» . فتغير النهج الإسلامي . تدريجيا . منذ تأسيس الدولة الأموية [٤١ هـ ٦٦١ م] فشابت «الشورى» سلبيات «الملك العضود» . وأصبحت الأموال ذولة بين الأغنياء . بعد أن كانت نهرا أعظم والناس شرهم فيه سواء !؟ الأمر الذي فجر . على أرض الواقع الداخلي سلاسل من «الثورات» و «الانتفاضات» و «الأزمات» . عاجلها «الدولة» بالمزيد من «الأدواء» . فالتفت واجهت الخرق الداخلي بتنمية «القوة» بدلا من إشاعة «العدل» و «الشورى» حتى جاء الوقت الذي تضخمت فيه هذه «القوة» الضاربة . وكانت قد أصبحت غريبة عن الروح الحضارية للأمة . فتم «الانقلاب» الذي قاد النهضة إلى التراجع والجمود !؟

لقد كانت وحدة « الأمة » الاختيارية هي المصدر الطبيعي لقوة « الدولة » وعندما كان الخرق يصيب وحدة « الأمة » كان الوهن يشرب إلى قوة « الدولة » . فتميل الكفة - إعمالا لقانون ارتباط العوامل الداخلية بالخارجية - تميل الكفة لصالح الأعداء على جبهة الغزو والجهاد .

● ففي [٧٠ هـ ٦٨٩ م] انقسمت الأمة في الصراع بين عبد الملك بن مروان [٢٦ - ٨٦ هـ ٦٤٦ - ٧٠٥ م] وعبد الله بن الزبير [١ - ٧٣ هـ ٦٢٢ - ٦٩٣ م] فبلغت « الدولة » من الضعف الحد الذي اضطرها إلى مهادنة الروم الميزنطين لقاء « جزية » - نعم « جزية » - هكذا سماها المؤرخون ! - مقدارها ألف دينار يدفعها خليفة المسلمين عبد الملك بن مروان إلى ملك الروم « كل جمعة » !

● فلما عادت إلى « الأمة » وحدتها وإلى « الدولة » قوتها ، بعد تصفية ثورة ابن الزبير ودولته ، طويت هذه الصفحة من صفحات كتاب العلاقة مع الروم ، واستأنف المسلمون الغزو والجهاد في [سنة ٧٦ هـ سنة ٦٩٥ م] وانتظم هذا الغزو والجهاد ، تقريبا ، كل عام ! .

● فلما جاءت [سنة ٨١ هـ سنة ٧٠٠ م] وحدثت ثورة عبد الرحمن بن الأشعث [٨٥ هـ ٧٠٤ م] كان الخرق والضعف .. فتوقف الغزو والجهاد في ذلك العام ! .

● وإبان تزايد حدة الثورات التي أشعلتها الخوارج والعباسيون ، تفرقت « الأمة » وانخرطت جموعها وقواها خلف أعلام الثوار . فضعفت « الدولة » الأموية . فتوقف الغزو والجهاد طويلا فترة ضعف الدولة الأموية ، وفي مرحلة التأسيس وعدم الاستقرار - بسبب الثورات أيضا - للدولة العباسية . بل لقد

مالت الكفة لصالح الروم ، فشرعوا في غزو ديار الإسلام . وانتزع ملكهم
قسطنطين [٧٤١ - ٧٧٥ م] مدينة «ملطية» عنوة ، وهدم سورها في [سنة
١٣٨ هـ سنة ٧٥٥ م] ١٩

● فلما عادت الوحدة للأمة « والقوة » للدولة « العباسية الجديدة » تغير
ميزان القوى ، فعاودت الدولة غزوها وجهادها .. واستردت مدينة «ملطية»
[سنة ١٤٠ هـ سنة ٧٥٧ م]

● وفي عهد هارون الرشيد [١٤٩ - ١٩٣ هـ ٧٦٦ - ٨٠٩ م] تصاعد
الحط البياني للغزو والجهاد .. حتى إذا حدثت فتنة الأمين [١٧٠ - ١٩٨ هـ
٧٨٧ - ٨١٣ م] والمأمون [١٧٠ - ٢١٨ هـ ٧٨٦ - ٨٣٣ م] تراخى هذا
الحط ، فغابت من سنوات تلك الحقبة ظاهرة الغزو والجهاد ١٩ ..

وفي القرن الثالث الهجري برزت على خريطة الواقع الإسلامي عدة عوامل
وظواهر ذات دلالة بالغة في موضوع هذا الحديث ..

● ثورات الخوارج وهبائهم وانتفاضاتهم قد تواصلت دون انقطاع
● والعلميون ، الذين نافسوا العباسيين على « السلطة » و « الدولة » ، تواصلت
ثوراتهم تحت قيادات « زيدية » .. فكانت لهم في ذلك القرن الثالث الهجري
ثورات : في الكوفة [سنة ٢٤٢ هـ سنة ٨٥٦ م] وطبرستان [سنة ٢٥٠ هـ سنة
٨٦٤ م] والري [سنة ٢٥٠ هـ سنة ٨٦٤ م] وقزوین [سنة ٢٥٠ هـ سنة
٨٦٤ م] والكوفة [سنة ٢٥٠ هـ سنة ٨٦٤ م] وثورة الرنج الكبرى في العراق
وفارس [سنة ٢٤٩ هـ سنة ٨٦٣ م] ..

● والشعبوية ، التي احترفت الكيد لكل ما هو عربي ، والتي لم تنبذ
أحلامها في إحياء الموارث الخوسية الفارسية القديمة ، واصلت هي الأخرى

الكيد لوحدة الأمة ولقوة الدولة .. ولم يتوقف نشاطها بنكية الرشيد للبرامكة [سنة ١٨٨ هـ سنة ٨٠٣ م] .. بل لقد استثمروا هذه النكبة ، عاطفيا ، في الكيد للعروية ودولتها وللإسلام ووحدة أمته .

● وغير الثورات المذهبية والفكرية . تفجرت في الكثير من ولايات الدولة انتفاضات محلية ، لأسباب اقتصادية أو اجتماعية أو عرقية أو قبلية . وذلك من أمثال ما حدث في مصر [سنة ٢١٣ هـ سنة ٨٢٨ م] و [سنة ٢١٤ هـ سنة ٨٢٩ م] و [سنة ٢١٥ هـ سنة ٨٣٠ م] و [سنة ٢١٦ هـ سنة ٨٣١ م] وما حدث في فارس [سنة ٢٢٠ هـ سنة ٨٣٥ م] وما حدث في طبرستان [سنة ٢٢٤ هـ سنة ٨٣٩ م] وما حدث في البحرين [سنة ٢٨٦ هـ سنة ٨٩٩ م]

● وغير هذه الثورات والمكائد . وانتمردات . شهد هذا القرن ، والذي تلاه عددا من الأزمات الداخلية ، ذات الطابع الفكري . أضعفت وحدة الأمة ، فسرى الضعف إلى الدولة والخلافة على نحو مهد السبل لعوامل التراجع والجمود والاضمحلال ..

ففي سنوات [٢١٢ - ٢١٩ هـ ٨٢٧ - ٨٣٤ م] حدثت المحنة التي اشتهرت بمحنة «خلق القرآن» . عندما استخدمت الدولة قوتها في فرض لون من ألوان الفكر على رافضيه . فكان ما كان من انقسامات في صفوف العامة والخاصة على حد سواء ..

وفي [سنة ٢٣٦ هـ سنة ٨٥٠ م] شرع المتوكل العباسي [٢٠٦ - ٢٤٧ هـ ٨٦١ - ٨٢١ م] في اضطهاد الشيعة والمعتزلة والعلويين .. وتصاعد هذا الاضطهاد في عهد القادر بالله [٣٨١ - ٤٢٣ هـ ٩٩١ - ١٠٣١ م] فصدر ما عرف بـ «الاعتقاد القادري» . الذي حرم فكر

المعتزة وأهل العدل والتوحيد . فما يشبه المراسم الكنسية . الغربية عن روح الإسلام ١٤ ..

● وفي خضم هذه الثورات .. والمكائيد .. والتمردات .. والأزمات .. وبثأثيراتها . كان تضعف الدولة المركزية . فظهرت حركة استقلال العديد من الولايات . وخصوصا في الأطراف . فاستقلت الدولة الطولونية [٢٥٤ هـ ٨٦٨ م] والبيوية [٣٣٤ هـ ٩٤٥ م] والغزنوية [٣٩٠ هـ ٩٩٩ م] . وكانت السلطة فيها جميعا أعجمية - تركية ودبلوماسية - ١٥ . وذلك فضلا عن المغرب والأندلس ١٦ .

ثالث كانت أبرز التحديات التي واجهت الدولة الإسلامية في القرن الثالث الهجري ... لماذا صنعت هذه الدولة إزاء هذه التحديات ١٧ ؟

لقد سبقت إشارتنا إلى أن الدولة قد عالجت هذه «الأدواء» بـ «النداء» الذي زادها حدة ونفاذا .. فأغلب هذه الاستفاقات والأزمات قد جاء ثمة لضمور «العدل» و «الشورى» في مناهج الحكم وإغاياته ووسائله . لحساب تركيز السلطة والثروة بيد «الدولة» وأنصارها وعصبيتها . ضما منها أن ذلك هو المعين على مواجهة التحديات الخارجية بكفاءة واقتدار . لكن هذا الطريق في معالجة التحديات قد زادها عددا واستفحالا . على النحو الذي أشرنا إلى أبرز معالجه فيما تقدم من مسطور .

والبعض - ممن يخترق مبهج «التحرير» في كتابة التاريخ - يرى أن «الدولة

(١٤) انظر في تواريخ هذه الأحداث كتاب الترميمات الإسلامية في مقارنة التواريخ المغربية بالسنن الأوربية والقطبية [دراسة وتحقيق : د. محمد عمار - طبعة بيروت سنة ١٩٨١ م]

لم يكن أمامها خيار آخر في معالجة ومواجهة هذه التحديات . فلا يخل الحديديـ
إلا الحديدي ؟!

لكنه نبيه إلى أن النهج الإسلامي . بل والتاريخ الإسلامي . قد عرف .
بل وعارس . خيارا آخر في مواجهة مثل هذه التحديات . . . فخماس الراشدين
عمر بن عبد العزيز [٦١ - ١٠١ هـ ٦٨١ - ٧٤٣ م] عندما حمل أمانة خلافة
المسلمين . واجهته تحديات مماثلة . بل ربما أشد . فعلى جبهة « العدل » .
وجد ثروة الأمة . التي تركها النبي - صلى الله عليه وسلم - والشبهان « نهرا
أعظم » . والناس شريهم فيه سواء » . وجدها قد حيزت من قبل العصبية
الأموية . وغدت دولة بين الأغنياء . . فجعل رسالته الخالدة : رد المظالم إلى
أهلها . بادئا بنفسه وأهله وأمرأه بنى أمة وبطانة الدولة فعمامة الناس ! وعلى
جبهة « الشورى » . وجد أن فلسفة الحكم قد تمكبت طريقتها . وغدت
« الخلافة » ملكا وراثيا عضودا . فعزم على إعادة الأمر شورى بين المسلمين -
وإن يكن أعداؤه لم يتمكنوا من تحقيق عزمه هذا . عندما دبوا له السم
فمات ! - . وعلى جبهة « وحدة الأمة » . واجهته تورات الخوارج والعتوين
وأهل العدل والتوحيد . فحضر الثغرات في جدار وحدة الأمة بالعدل
والسلام العام . وعقد الهدنة مع الجيوش الثائرة والجموع المتمردة . واستبدل
الحوار بالنيف ! . إلى آخر ما صنع رضى الله عنه من معالم النهج الإسلامى
الأمثل في معالجة الأزمات التي تمر بالدول واجتسعت (٤)

صحيح أن الذين خلفوه كانوا ثورة مضادة على هذا النهج الإسلامى

(٤) انظر كتاب : [عمر بن عبد العزيز . . . خماس الخلفاء الراشدين] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٥ م

لكن ما صتعه عمر بن عبد العزيز شاهد على أن للإسلام نهجا مسميا في معالجة الأمراض والتحديات السياسية والاجتماعية والاقتصادية . وليس صحيحا ما يقوله محترفو «التبرير» . من أن الدولة العباسية لم يكن أمامها خيار آخر غير المزيد من «القوة» وتركيز السلطة و«عسكرة المجتمع» لمواجهة هذه التحديات .

لكن الذي حدث قد حدث !..

فلقد أقدم الخليفة العباسي المعتصم [٢١٨-٢٢٧ هـ - ٨٣٣-٨٤٢ م] - كى يواجه التحديات التي أشرنا إليها - على ذلك «الخطأ القاتل» عندما استجلب الترك المماليك . وأقام لهم مدينة «سامراء» معسكرا . وجعلهم مركز الثقل في القوة العسكرية الضاربة لدولة الخلافة . فهنا . وللمرة الأولى في تاريخ الدولة الإسلامية أصبحت القوة الضاربة للدولة عربية عن روح حضارتها . فليست هم عروبة الأمة والدولة والحضارة . وليست لهم عقلانية الإسلام . لأنهم لم يحصلوا منه . بعد شهادة التوحيد . إلا أشكالا ورموزا لا تغني عن جوهر هذا الدين !؟

وراد الظن بـ «أن الدولة» - كى تواجه حدة التحديات - زادت هذه المؤسسة العسكرية عدة وعتاذا . فتغيرت موازين القوة بينها وبين «الخلافة» - الدولة . فبعد أن كان المظنون والمبتغى أن يكون العسكر المماليك أداة طيعة بيد الخلافة ، لعدم ارتباطهم بأطراف الصراع الداخلي في الدولة ، غدت الخلافة لعبة في يد أمراء الأجناد الترك وقادة المماليك «وسامراء» التي بنيت معسكرا لـ «ولاء العسكر» . تابعا للعاصمة «بغداد» غدت - في سنة ٢٢١ هـ سنة ٨٣٦ م - العاصمة التي تتبعها «بغداد» !؟ وكان مقتل الخليفة المتوكل . بيد قادة الجند المماليك بداية هذا التحول الجذري في

مسيرتنا الحضارية ، فدخل ازدهارنا الحضارى ، عبر مراحل طويلة ، ومن خلال دروب متعرجة ، وبمصاحبة صحوات عدة ، ومقاومات باسلة - كما هو شأن التطور الحضارى ، صعودا وهبوطا - دخل ازدهارنا الحضارى ، منذ ذلك التاريخ نحو المهبوط والتراجع والانكسار

ثم قد قضى الأمر ، و « تعمكت » الدولة الإسلامية ، وحدث انقسام حضارى بين « السلطة والدولة » وبين « الأمة وحضارتها » وأصبحت مقاليد الأمر والنهى والحل والعقد بيد رجال من مثل : « وصيف » و « بغا » و « كبغلف » و « ياجور » و « بايكباك » و « بكليا » و « أصعجون » الخ الخ ... !؟

وحدثت الخلافة وأصبح الخليفة لعبة فى أيديهم ، يولونه ويعزلونه ، ويسجنونه ويقدمون له السم فلا يملك إلا أن يتناوله ويموت !؟ ... ولقد أجاد الشاعر الذى شهد ذلك الواقع عندما وصف حال الخليفة المستعين بالله [٢٤٨ - ٢٥٢ هـ ٨٦٢ - ٨٦٦ م] مع قائدى الخند المماليك « وصيف » و « بغا » - فصور الواقع الذى بلغته الخلافة والخليفة فقال :

خليفة فى قفص بين وصيف وبغا
يقول ما قاله كما يقول الببغا !؟

وعندما انتهت حياة الخليفة المستعين بالله مقتولا بيد هؤلاء الخند المماليك ، قال البحرى [٢٠٦ - ٢٨٤ هـ ٨٢١ - ٨٩٨ م] :

لله در عصابة تركية ردوا نوائب دهرهم بالسيف
قتلوا الخليفة أحمد بن محمد وكسوا جميع الناس ثوب الخوف
وظفوا ، فأصبح ملكنا متقسما وإمامنا فيه شبه الضيف !؟

لقد تعسّرت الدولة بهذه «العصاة التركية» - وغدا «السيف - القوة» هو السيد المهروب في كل الأمور - ولم تنجح «القوة» في رأب الصدع ومداواة الجراح ومواجهة التحديات - بل تفاقت الأمور و«أصبح ملكنا متنقلاً - على حد تعبير البحري - أما الخليفة - الإمام - أمير المؤمنين - فلقد أصبح - إلى جانب هذه «العصاة المملوكية» - «شبيه السيف» في الدولة التي هو خليفة عليها (٦) ١٤

لقد قضى الأمر وتعسّرت «الدولة» - ثم جاء دور التحديات الخارجية - فقدت في عمر هذه السلطة العسكرية - فالغزوة الصليبية قد امتدت قرابة القرنين [٤٨٩ - ٦٩٠ هـ ١٠٩٦ - ١٢٩١ م] - والغزوة التتارية قد زلزلت كيان الأمة عندما دمرت بغداد [سنة ٦٥٦ هـ سنة ١٢٥٨ م] حتى لقد ووجهت الأمة أمام هذين الخطرين - اللذين تحالفا في بعض مراحل غزوهما لعالم الإسلام - ووجهت الأمة بخطر الإيادة الحضارية والاقتلاع من وطنها بالاستعمار الصليبي الاستيطاني فرضيت الأمة باستبداد العسكر المماليك - لأن «حديد» فرسان الإقطاع الصليبيين - و«بأس» فرسان الفرسان الموحشين - لم يكن بالإمكان مواجهته وصدّه إلا بـ «حديد» مناظر - و«بأس» مماثل - هو «حديد» و«بأس» الفرسان المماليك !

وكان طول عمر هذه التحديات الخارجية سبباً في تتابع دول العسكر - من النديم والعُزّ - والترك - على حكم عالم الإسلام فتناحرت هيمنة الدولة الزنكية [٥٢١ - ٦٤٨ هـ ١١٢٧ - ١٢٥٠ م] - والأيوبيّة [٥٦٧ - ٦٤٨ هـ ١١٧٧ - ١٢٥٠ م] والمملوكية - البحرية - [٦٤٨ - ٧٨٤ هـ ١٢٥٠ -

(٦) انظر كتابنا [العرب والتتار] ص ١٢٥ وما بعدها - طبعة الكويت سنة ١٩٨٠ م

١٣٨٦ م] فالملوكية - البرجية - [٧٨٤ - ٩٢٢ هـ ١٣٨٢ - ١٥١٧ م] التي
أسلمت الزمام للترك العثمانيين ؟!

ولم يقف الأمر عند «عسكرة الدولة» . بل لقد امتدت تأثيرات هذه
«العسكرة» إلى المجتمع . فأحدثت وأقامت أكثر العوامل السلبية التي فعلت
فعلها في التخلف والتراجع والجمود لحضارتنا العربية الإسلامية .

لكن قبل الحديث عن تأثيرات «العسكرة» على الحضارة .
ومظاهرها في ميدان التراجع الحضارى ... علينا أن نسأل : لماذا اختار المعتصم
العباسى أن تكون «القوة» الضاربة غربية عن أجناس الأمة ؟ ومن الترك
بالمئات ؟ ولماذا لم يلجأ - كخليفة عربى - إلى العرب . يستعين بهم على
مواجهة التحديات التي تواجه الدولة العربية الإسلامية . كما صنع : من قبل .
عمر بن عبد العزيز عندما جدد جهاز الدولة وأحدث فيه ما أحدث من تغييرات
بلغت حد الثورة بواسطة عناصر وقوى وبنااتل من ذات الأمة . وليس من
تأخرها .. ولا من الغرباء عن روح حضارتها ؟؟

إن البعض يبسط الإجابة على هذا السؤال تبسيطاً مبالغاً . عندما يرجع
اختيار المعتصم للترك المالك بسبب من جنسية أمه ، التي كانت جارية
تركية !؟ لكننا نعتقد أن هذا الخليفة . الذى كان كالمأمون [١٧٠ - ٢١٨ هـ
٧٨٦ - ٨٣٣ م] والواقع [٢٢٧ - ٢٢٨ هـ ٨٤٢ - ٨٤٧ م] منحازاً إلى
فكرية التيار العقلانى - المعتزلة . أهل العدل والتوحيد - وواعياً بتحاطر
الشعبية والتهار الشعبى على وحدة الدولة . لم يكن باعترافاً للجنس العربى .
ولا بالتراحة في الاستعانة بالعرب . ليكونوا «القوة الضاربة» التي تواجه بها
الدولة ما فرض عليها من تحديات .. أما لماذا لم يلجأ المعتصم إلى «العرب» .

واستجلب بدلا منهم « الترك - المالك » فإن مرجع ذلك - في اعتقادنا - إلى أسباب ، في مقدمتها :

١ - أن التيار العلوي . المتاهض للعباسيين ، والساعى لانتزاع الدولة منهم . كان قد استقطب العنصر العربي إلى دعونه وثوراته ، وذلك بسبب من الدور الملحوظ للعنصر الفارسي في قيام الدولة العباسية . فلقد أصبح هوى العرب مع آل البيت ، والعلويين منهم على وجه الخصوص ..

٢ - وهو الأهم - أن العنصر العربي كانت قد استوعبته عوامل الترف والرفاهية . فلم يـد مؤهلا ليكون « القوة - الحشة - الضاربة » القادرة على مواجهة ما تواجهه الدولة من تحديات .. أو على الأقل لم يكن ذلك بالأمر السهل في التهيئة والإعداد .. قبلًا من أن تبذل الدولة جهدها في تهيئة العرب كي يكونوا قوتها الضاربة - وهي لا تطمئن إليهم - لأهم طرف في الصراعات القائمة - لجأت إلى عنصر غريب - « الترك - المالك » - ظنًا منها أنهم لغربهم عن أطراف الصراع ، سيكونون أداة خالصة الطاعة وكاملة الولاء للخلافة والدولة العباسية

إذن هو « الترف » و « الرفاهية » اللذان أحجزا العرب عن حماية الدولة والحضارة التي بنوها بثورة الإسلام وعقلانية القرآن وخشونة الجند الفاتحين ! ..

ونحن عندما نتأمل صنيع الخليفة الراشد عمر بن الخطاب [٤٠ ق.هـ - ٢٣ هـ ٥٨٤ - ٦٤٤ م] في هذا الميدان نجد شواهد الصديق على هذا الذي نقول .. لقد كان عمر بن الخطاب حريصا على أن يحفظ هذه الدولة وأمتها وحضارتها قوتها العربية الضاربة ، شديد الوعي لمخاطر الترف والرفاهية - التي عرفها العرب بعد الفتحاحات - على خشونة الجند العربي وأهليته للقتال

والجهاد ... فكان بمصر الأمصار الخاصة بالجند في البلاد التي يفتحونها . حتى لا يندمجوا في الحياة المدنية المترفة في تلك البلاد فيفقدوا خصائص الجند الذين صاعت خشونتهم طبيعة البلاد التي نشأوا فيها .. بل وكان يحرص على تمييزهم في النزي عن أهل البلاد المفتوحة ... وبلغ به هذا الحرص إلى الحد الذي نهاهم فيه عن الزواج من نساء تلك البلاد . وهن كتابيات أحل الإسلام والزواج بهن . فلم يقل عمر أنه « حرام » ولكنه تبه على « مضاره » الاجتماعية والعسكرية على الجند الذين أرادهم قوة ضاربة تحمي الدولة ونصد عنها الغنائم والآف من التحدبات .

كان عمر يصنع ذلك بالذليل خرجوا إلى مواطن الترف فأتعبن . أما من بقى في شبه الجزيرة من أشرف قريش ورعوس الصحابة ، فلقد كان وإعيا بمخاطر خروجهم إلى مواطن الترف وانغمسهم في حياة الرفاهية . ولنتأمل في ذلك عبارة الطبري [٢٢٤ - ٣١٠ هـ - ٨٣٩ - ٩٢٣ م] التي نقول : « إن عمر بن الخطاب كان قد حجر على أعلام قريش . من المهاجرين . الخروج في البلدان إلا بإذن وأجل ! » . فلما ولى عثمان لم يأخذهم بالذي كان عمر يأخذهم به . فخرجوا إلى البلاد . فلما نزلوها ورأوا الدنيا ! ورأهم الناس . فانقطع إليهم الناس وتقربوا إليهم . وقالوا : بملكون فيكون لنا في ملكهم حظوة !^{١٧} فكان ذلك أول وهن على الإسلام . وأول فتنة كانت في العامة !^(١٧)

ولنتأمل أكثر وأكثر وصف الطبري لهذا التحول . تحول جند الدولة وقوتها العربية الضاربة . من خشونة الجند البعيدين عن الترف والرفاهية . إلى نعومة

(٧) ابن أبي الحديد [شرح سراج البلاء] ج ١ ص ١٢ - ١٣ تحقيق : محمد أبو الفصص اراجيم طبعة

القاهرة سنة ١٩٥٩ م

الحياة المدنية المترفة . وصفه هذا التحول بقوله : « فكان ذلك أول وهن على الإسلام »^(٨)

ثم . . لتأمل ، أيضا ، حديث ابن خلدون [٧٣٢ - ٨٠٨ هـ
١٣٣٢ - ١٤٠٦ م] عن تطور انتقال الدولة من « العمران » إلى « الزحف
والرفاهية » . وكيف أن ذلك التحول هو « سن الوقوف لعمر العالم في العمران
والدولة »^(٩) أي علامة الدخول إلى طور التراجع عن العمران - الحضارة -
والدخول في طور الانحلال

فهو إذن « الزحف » والانحسار في حياة « النعومة والرفاهية » . هو الذي أفقد
الدولة العربية الإسلامية قوتها الطبيعية الضاربة والحامية - القوة العربية
- حضاريا - فكان أن لجأ المعتصم العباسي إلى اتخاذ قراره المشؤم . وإقراره
خطته القتال . بتكوين جند الدولة من عنصر غريب عن حضارة الأمة ، هم
« الترك - المماليك » .

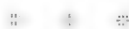
وصدق الله العظيم إذ يقول : [وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترقيها ففسقوا
فيها ففحق عليها القول فدمرناها تدميرا]^(١٠) . « ومن « القراء » من يقرأ [أمرا] -
بتشديد « الميم » مفتوحة . أي جعلناهم أمراء الدولة وقادتها »^(١١)

هكذا تعسكت « الدولة » . فلما طال عليها الأمد - بسبب طول التحديات
الخارجية وحداثتها - امتدت تأثيرات « العسكرية » إلى المجتمع . فأصبحت الكثير
من ميادين الإبداع الحضاري بالذبول والجمود . فدخلت حضارتنا العربية

(٨) [التمهيد] ص ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ . طبعة القاهرة سنة ١٩٢٢ هـ

(٩) الإسراء : ١٦

الإسلامية طور الغفوة والسيبات ، ومرحلة التراجع والتخلف منذ ذلك التاريخ



أما كيف كان ذلك فإلنا نستطيع رصد مظاهر التراجع الحضارى والتخلف الفكرى إذا نحن نظرنا فيما أصابت السبات والقسبات التى تميزت بها حضارتنا . والتى ميزت ازدهار هذه الحضارة . ما أصابها به هذا الانقلاب الذى عسكر الدولة . ومد آثار العسكرية المملوكية إلى كثير من الميادين

وفيما يتعلق بالانحراف عن شريعة الأمة :

كان التيار العقلاني - وفرسانه المعتزلة خاصة - وتيار أهل العدل والتوحيد بعامه - هم الصناع الحقيقيون لقسمة العقلانية فى حضارتنا العربية الإسلامية لقد انطلقوا من القرآن . الذى أعلى مقام العقل . ومن اقتصاد الإسلام فى الغيبات . فصاغوا - من قبل ترجمة الفلسفة اليونانية - وللمرة الأولى فى تاريخ الفكر الفلسفى - صاغوا « علم الكلام الإسلامى » فلسفة إسلامية مؤسسة على الوحي . فيها تزامن « العقل » و « الثقل » . وتأنخت الحكمة والشريعة . وجاورت « العقليات » « السمعيات » . وشد « التوحيد » فى الألوهية من أزر « الطوائع والسيبة » . واستطاعوا بهذه العقلانية الإسلامية المتميزة النبوض بتهمة محاداة الفلاسفة والملاهوتيين من أبناء الملل الأخرى . فوظفوا الفلسفة - لسرد الأولى فى التاريخ - سلاحاً بيد الدين . وكان فم : فى هذا الميدان . فضل نشر الإسلام فى البلاد التى ازدهرت فيها الأبهة الفكرية التى استرشدت بحيرات اليونان الفلسفى والمنطقى فى المناظرة والجدال .

صنع هذا التيار العقائلى فى قسمة العقائلية الإسلامية فى حضارتنا . تلك التى أدهشت مفكرى الغرب من تميزها بالتدين . فكتب الفريد جيوم Alfred Guillaume يقول : « إن قوة الحركة الاعتزالية مردها إقامة علم الكلام الإسلامى على أسس ثابتة من الفلسفة . مصرين فى الوقت نفسه على أن تكون تلك الأسس منطقية مع وجوب أن تدرس بوصفها من صميم العقيدة الدينية .. » (١٠)

وعلى عكس المسيحية وحضارتها الغربية . التى وقفت فلسفتها عند « العقل » - فى معاداة « للنقل » - ودعا ديتها إلى أن يؤمن المؤمن بما يلقى فى قلبه دون نظر عقلى - على حد قول القديس أنسلم Anselme [١١٣٣ - ١١٠٩ م] - جعل المعتزلة « النظر » أول واجبات الإنسان ^(١١) . لأن النظر العقلى هو سبيل معرفة الله والإيمان به . وعليهما يترتب الإيمان بالرسالة والرسل والوحى والكتاب . ومن هنا جاء اعتمادهم على « العقل » مع « الكتاب » و « السنة » و « الإجماع » . بل وتقديمه عليها . لا تقديم تفصيل . وإنما تقديم ترتيب . فقالوا : إن « الأدلة » أوهى . دلالة العقل . لأن به يميز بين الحسن والقبيح . ولأن به يعرف أن الكتاب حجة . وكذلك السنة . والإجماع . وربما تعجب من هذا الترتيب بعضهم . فيظن أن الأدلة هى : الكتاب . السنة . والإجماع . فقط . أو يظن أن العقل إذا كان يدل على أمور فهو مؤخر . وليس كذلك لأن الله تعالى لم يخاطب إلا أهل العقل . ولأن به يعرف أن الكتاب حجة .

(١٠) جيوم (الفلسفة وعلم الكلام) ص ٣٧٩ - ص ٣٨٠ كتاب « نوات الإسلام » - طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م

(١١) د. على مهدي حليم [الجباليان : أبو على وأبو هاشم] ص ٣٣٣ - طبعة طرابلس - ليبيا - سنة ١٩٦٨ م

وكذلك السنة . والإجماع . فهو الأصل في هذا الباب . وإن كنا نقول : إن الكتاب هو الأصل من حيث أن فيه التنبية على ما في العقول . كما أن فيه الأدلة على الأحكام . . . ومنى عرفنا . بالعقل . إلها متفردا بالإخية . وعرفناه حكما . نعلم في كتابه أنه دلالة . ومنى عرفناه رسلا للرسول . وميزا له . بالأعلام المعجزة . من الكاذبين . علمنا أن قول الرسول حجة . وإذا قال - صلى الله عليه وسلم - : « لا تجتمع أمتي على خطأ »^(١٢) وعليكم بالجماعة^(١٣) . علمنا أن الإجماع حجة . . .^(١٤)

فاعتاد العقل هنا . وتقديمه . ليس غضا من شأن « الثقل » . بل مؤازرة ومؤاخاة وتأيدا . فهم لم يقولوا بانفراد العقل بالمعرفة . وإنما اعتمدوه دليلا لمعرفة الأصول الشرعية . فعندهم - كما يقول الماوردي [٣٦٤ - ٤٥٠ هـ ٩٤٥ - ١٠٥٥ م] : أن « السبب المؤدى إلى معرفة الأصول الشرعية والعمل بها شيان : أحدهما علم الحس . وهو العقل . لأن حجج العقل أصل لمعرفة الأصول . إذ ليس تعرف الأصول إلا بحجج العقول . فالعقل : أم الأصول وثانيهما : معرفة لسان العرب - وهو معتبر في حجج السمع خاصة »^(١٥)

فالعلاقة عضوية . والعروة وثقى . في هذه العلاقة الإسلامية - بين « العقل » و « الشرع » باعتبارهما دليلان خلقهما خالق واحد . وجعلهما السبيل هداية الإنسان . وإذا قلنا « إن لكل فضيلة أسا . ولكل أدب ينبوعا . فأس

(١٢) لفظ الحديث في ابن ماجة : « إن أمتي لا تجتمع على ضلالة »

(١٣) رواه . . . بألفاظ متفاوتة - مع التماس المعنى - البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجة

(١٤) قامى الفصاح عبد الخبار بن أحمد [فصل الاعتزال وطبقات المعتزلة] ص ١٢٧ - طبعة تونس

١٩٧٢

(١٥) [أدب القاضي] ج ١ ص ٢٧٤ - ٢٧٥ طبعة بغداد سنة ١٩٧١ م

الفضائل ونسوع الآداب هو العقل . الذى جعله الله تعالى للدين أصلا .
 وللدنيا عمادا . فأوجب التكليف بكأله . وجعل الدنيا مدبرة بأحكامه . وألف
 به بين خلقه . مع اختلاف هممهم وآراءهم . وتباين أغراضهم ومقاصدهم .
 وجعل ما تعبدهم به قسمين : قسما وجب بالعقل . فوكله الشرع . وقسما جاز
 فى العقل . فأوجبه الشرع . فكان العقل لهما عمادا (١٦)

وعلى عكس العقلانية الغربية الملحدة . التى جعلت من إعطاء المادة
 والطبيعة حظها من السببية والفعل أمرا بنى وجود الألوهية . كالسبب الأول
 والأعظم فى هذا الكون . على العكس منها جمعت العقلانية الإسلامية
 بين الأمرين . فللطبيعة فعل . ومادتها وظواهرها وعواملها أسباب
 نسبت . ومع ذلك فإنها - مع فعلها - مخلوقة للسبب الأعظم والأول فى هذا
 الكون . وتلك واحدة من إنجازات علم الكلام الإسلامى . الذى أبدعه التيار
 العقلانى فى حضارتنا . ولنتأمل عبارة الجاحظ [١٦٣ - ٢٥٥ هـ
 ٧٨٠ - ٨٦٩ م] التى يقول فيها : « وليس يكون المتكلم جامعاً لأقطار الكلام .
 متمكناً من الصناعة . يصلح للرياسة . حتى يكون الذى يحسن من كلام الدين
 فى وزن الذى يحسن من كلام الفلسفة ! . والعالم عندنا هو الذى يجمعها
 والمصيب هو الذى يجمع تحقيق « التوحيد » وإعطاء « الطبايع » حقها من
 الأعمال ! . ومن زعم أن « التوحيد » لا يصلح إلا بإبطال حقائق « الطبايع » .
 فقد حمل عجزه على الكلام فى « التوحيد » . وكذلك إذا زعم أن « الطبايع »
 لا تصلح إذا قرئها « بالتوحيد » . ومن قال هذا فقد حمل عجزه على الكلام فى
 « الطبايع » . وإنما يئأس منك الملحد إذا لم يدعك التوفير على « التوحيد » إلى

نحس حقوق « الطامع » ، لأن في رفع « أعماها » رفع « أعماها » ، وإذا كانت
 « الأعيان » هي الدالة على الله . فرفعت « الدليل » . فقد أبطلت « المدلول
 عليه » ! ولعمري ! إن في الجمع بينها لبعض الشدة ١٢ ! وأنا أعوذ بالله تعالى
 أن أكون كلما غمز قناني باب من الكلام صعب المدخل ، نقضت ركنا من
 أركان مقالتي ! ومن كان كذلك لم ينتفع به ١٢ . . . (١٧)

هكذا . . وعلى هذا النحو . وفي مواجهة كل « الثنائيات » . صاغ التيار
 العقلائي القسمة العقلانية لحضارتنا العربية الإسلامية . فوازنوا
 - « بالوسطية » - وجمعوا وألفوا بين ما يمكن جمعه وتأليفه من المتقابلات
 والأقطاب . التي عدت في الحضارات الأخرى نقائص لا يمكن تعاشيها .
 فضلا عن الجمع والتأليف بينها . ثم هم قد كانوا فلاسفة ودعاة إلى الدين
 وعلماء ورجال دولة . وقرسان العلوم النظرية والعملية معا . يبحثون في
 الإلهيات ويغرون التجارب على النباتات والحيوانات . فلقد كان فيهم من
 أشرف أهل الحكمة . مشغولون بعلم الحيوان . يعمرون فيه التجارب والملاحظات
 والاستقرائات . ويقولون في شرفه وفكره « إن هذا العلم يتمتع للجبال فيه
 الشيوخ الجللة والكهول العلية . وحتى ليختاروا النظر فيه على التسييح والتأهيل .
 وقراءة القرآن ، وطول الانتصاب في الصلاة . وحتى ليزعم أهل أنه موق الخج
 والجهد . وفوق كل بر واجتهاد . . ١٢ . . (١٨)

لقد كانوا علماء . . وصناع حضارة . . طبعوا الحضارة التي أبدعوها هذا

(١٧) [كتاب الحيوان] ج ٢ ص ١٣٤ . ١٣٥ تحقيق : الأستاذ عبد السلام هارون . طبعة القاهرة
 - الثانية -

(١٨) [كتاب الحيوان] ص ٢١٦ ، ٢١٧

انطباع العقلاني المتميز والفريد .. فهاذا صنع بهم ، وهذه العقلانية الإسلامية ذلك الانقلاب الذي أحدثته عسكرة الدولة عندما هيمن عليها العسكر الترك المماليك ٩٩ ..



كان الإمام أحمد بن حنبل [١٦٤ - ٢٤١ هـ - ٧٨٠ - ٨٥٥ م] يمثل في بغداد العباسية النقيض الصريح لفكرية التيار العقلاني الإسلامي .. فعداؤه المفهوم للفلسفة اليونانية قاده إلى معاداة علم الكلام الإسلامي وتجريح جميع المتكلمين .. ونفوره من العقلانية وقف به عند النصوص وحدها .. بل وعند ظواهر النصوص .. ولم يكن الإمام أحمد - بداهة - فيلسوفا ولا متكلماً .. بل ولم يكن في الحقيقة فقيهاً ، وإنما كان محدثاً ، جمع واحداً من أكبر مسانيد الحديث النبوي الشريف .. وصاغ أصول « المنهج النصوصي » المعتمد على الأخبار وحدها ، والرافض لما عدا النصوص من أدوات التفكير والبحث والبرهان ..

فأركان منهجه الخمسة - كما يحددها الإمام السنقي ابن القيم [٦٩١ - ٧٥١ هـ - ١٢٩٢ - ١٣٥٠ م] - تجعل محوره الأوحد - تقريباً - هو النصوص ^(١٩) .. « فالأصل الأول : النصوص ... والأصل الثاني : ما أفتى به الصحابة » - وهي نصوص - .. « والأصل الثالث : إذا اختلفت الصحابة فخير من أقوالهم ... » - نصاً من النصوص - .. « والأصل الرابع : الأخذ بالمرسل والحديث الضعيف ... » - وهي نصوص يقدمها - مع ضعفها - على غيرها من

(١٩) [أعلام الموقعين] ج١ ص ٧٦ ، ٧٧ طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م

سبل الاستدلال - «والأصل الخامس : القياس الضرورية» إذا لم يكن عنده في المسألة نص ، ولا قول الصحابة ، أو واحد منهم ، ولا أثر مرسل أو ضعيف .. !

لقد كان معاديا «للرأى» وأصحابه ، ينهى عن سؤال أصحاب الرأى ، ويقول : إن «ضعيف الحديث أقوى من الرأى» .. !

بل لقد صاغ الإمام أحمد بنفسه منهجه النصوصى هذا . صاغه شعرا فقال :

دين النبي محمد آसार نعم المطية للفقى الأخبار
لا تتخذ عن عن الحديث وأهله فالرأى ليل والحديث نهار !
ولرما جهل الفتى طرق الهدى والشمس طالعة لها أنوار
فالدین عنده «نصوص» .. بل و«ظواهر هذه النصوص» .. فقط !
وهذه «النصوص» - وحدها - هي «العلم» أيضا .. ووفق الصياغة الشعرية لواحد من أعلام هذا التيار .. فإن :

العلم : قال الله قال رسوله قال الصحابة ليس خلف فيه
ما العلم نصبك للخلاف سقاهة بين النصوص وبين رأى سفيه
كلا ولا نصب الخلاف جهالة بين الرسول وبين رأى فقيه
كلا ولا رد النصوص تعمدا حذرا من التجسيم والتشبيه
حاشا النصوص من الذى رميت به من فرقة التغطيل والتمويه (٢٠) !

فالنصوص وحدها هي العلم ، ولا عبارة بالرأى . ولا مدخل له فيها حتى لو

العقلانية الإسلامية . إذ كانت مداركهم وأحلامهم أدنى من مستوى العامة في هذا الميدان .. ثم هم كانوا بحاجة إلى تأييد العامة فيما اعتزموا من تغييرات وما دخلوا فيه من صراعات مع التيار العقلائي ، الذي كانت له السيادة والهيمنة حتى ما قبل عهد المتوكل العباسي ... لكل ذلك ، وجدنا هؤلاء التزك المماليك يتزعجون أئمة التيار العقلائي من مواقع القيادة والتأثير . الفكرية والسياسية . بل ويزجون بالكثيرين منهم في السجون . أو يتفنونهم من الأرض . ويأتون بمضطهدي الأئمة . أقطاب التيار النصوصي . يملئون بهم هذه المراكز للتوجيه والتأثير والتنفيذ ... لقد كان انقلاباً فكرياً كاملاً . غدت فيه مقولات التيار العقلائي فكراً مُحَرَّمًا ومُجَرَّمًا بلاحقه الاضطهاد . وغدى فيه أئمة هذه العقلانية موضع التنديد وأسرى للصلاحقة والسجن والاضطهاد .

وهاهو شاعر هذا الانقلاب - علي بن الجهم [٢٤٩ هـ ٨٦٣ م] - المقرب من الخليفة المتوكل يسب المعتزلة . ويضعهم والشيعنة مع النصاري في سلة واحدة .. ويتحدث عن انتصار حزب المتوكل على « الوائقية » - نسبة إلى الخليفة المعتزلي « الوائق » الذي حدث الانقلاب على فكرية عهده ونوجهاته .. هاهو علي بن الجهم يصور لنا هذا الذي حدث فيقول :

تضافرت الروافض والنصارى وأهل الاعتزال على هجائي
وعابوني وماذني إليهم سوى علمي بأولاد الزناء ١٧
أنا المتوكل هوى ورأيا وما « بالوائقية » من خفاء

ثم يوجه سبابه إلى رجل الدولة المعتزلي أحمد بن أبي دؤاد [١٦٠ - ٢٤٠ هـ ٧٧٧ - ٨٥٤ م] - وكان يومئذ معزولاً - مضطهداً ، ومريضاً . فيشير إلى الطابع الفكري لهذا الانقلاب الذي اقتلع التيار العقلائي

من مواقعه ليزرع فيها النصوصيين .. يقول علي بن الجهم : موجهها الحديث إلى ابن أبي دؤاد :

لم يبق منك سوى خيالك لامعا فوق القراش ممهدا بوساد
فرحت بمصرعت البرية كلها من كان منهم موقنا بعباد
كم مجلس لله قد عطسته كي لا يحدث فيه بالإسناد
ولكم مصاييح لنا أطفأنا حتى تزول عن الطريق الهادي
ولكم كرمة معشر أرملتها ومحدث أثقت في الأقياد
إن الأسارى في السجون تفرجوا لما أنثك مواكب العواد !

فهو انقلاب واضح وحاد ضد التيار العقلائي .. أخرج «المحدثين» أصحاب بضاعة «الإسناد» من السجون ، ليحل محلهم فيها القائلون بالعدل والتوحيد . هذه الفكرية التي عُدَّت بدعة ، على حد قول علي بن الجهم في هجاء ابن أبي دؤاد عندما ثفاه المتوكل - وكان من قبل مشير الخليفة - أي أعظم من الوزير- يقول علي بن الجهم :

يا أحمد بن أبي دؤاد دعوة بعث إليك جنادلا وحديدا
ما هذه البدع التي سميتها بالجهل منك العدل والتوحيد !^(٢٢)

ونحن لن نتحدث عن تصاعد الاضطهاد الذي أصاب أئمة التيار العقلائي . فقط نود أن نشير إلى أن اضطهاد فكرهم قد بلغ في عهد الخليفة القادر بالله [٣٨١-٤٢٣ هـ - ٩٩١-١٠٣١ م] إلى الحد الذي اجتمع فيه أئمة التيار النصوصي . بتشجيع من الخليفة . فأصدروا مرسوما سمي «الاعتقاد

(٢٢) الأصفهاني [الأغاني] ج ١ ص ٣٦٧-٣٦٨-٣٦٩ . طبعة القاهرة : دار الشعب

القادرى « . حرّموا فيه فكر التيار العقلاى : وجرّموا فيه فكرية العدل والتوحيد . وعلى نحو يشبه المراسيم الكنسية الغربية عن روح الإسلام والتأدرة الحدوث فى تاريخ المسلمين .. وفى هذا « الاعتقاد » صدرت أوامر الخليفة :

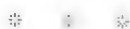
- ١ - يمنع تدريس علم الكلام والمناظرة فى مسائله . خاصة الاعتزال ومقالات أهله . وأنذر المخالفين بالعقوبة والنكال . نفيا وسجنا وقتلا !
- ٢ - ويلعن المعتزلة على منابر المساجد : حتى يصير ذلك سنة من سنن الإسلام !

- ٣ - ويحرم قول المعتزلة فى « التوحيد » . وفى « خلق القرآن » .
 - ٤ - كما يحرم قول المعتزلة فى « العدل » .. ويتحدث عن أن الخلق لا قدرة لهم . بل « كلهم عاجزون » !
 - ٥ - ويحرم قول المعتزلة فى « منزلة بين المنزلتين » .. ويقرر مذهب « المرجئة » فى هذا الموضوع ..
- ولقد صدر هذا « المرسوم الفكرى » باعتبار « اعتقاد المسلمين » . ومن خالفه فقد فسق وكفر « (٢٣) » ! ..

نعم .. حدث هذا . رغم امتياز الإسلام وحضارته بالتأكيد على أن الاجتهاد فرض كفاية أى فريضة اجتماعية ، أكثر أهمية وأكد فى التكليف من فروض العين . يقع إثم التخلف عنها على الأمة جمعا .. ورغم اتفاق أئمة الاجتهاد فى الأمة على مشروعية التعددية الفكرية ، عندما قرروا أن الاجتهاد المختب غير ملزم للمجتهدين الآخرين ! ..

(٢٣) آدم مثر [الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الفجرى] ج١ ص ٣٨١-٣٨٢ طبعة بيروت سنة ١٩٦٧ م

وعلى الذين نجبرهم معرفة الأسباب والبدائيات والملازمات التي أصابت
إبداعنا الحضارى فى المصمى بما عرف به «إغلاق باب الاجتهاد» عليهم أن
يمسكوا بخيوط هذا التحول ، الذى أحدثه هذا الانقلاب ، ففقه تكن البداية .
ومنه بدأ التراجع والجمود والتخلف والانكسار !



وفيما يتعلق بالانحراف عن شريعة الأمة :

فلقد تزامن الضمور الذى أصاب طاقات الإبداع وملكات الاجتهاد ،
عندما سادت فكرية التيار التصويى ، الذى تلى بمحاربة « الأشعرية » بعد أن
أصاب الاعتزال فى مقاتله . تزامن ذلك مع انحراف دولة العسكر المماليك
- وللأسفة الأولى فى مسيرتها التاريخية والحضارية - عن شريعة الأمة ، وفقه
معاملاتها ، وقانونها الطبيعى . فبعد أن كانت الشريعة حاكمة ومهيمنة ولها
المشروعية فى كلى الميادين ، ابتدغ المماليك الازدواجية القانونية والقضائية .
فأبقوا حكم الشريعة فى الأحوال الشخصية - شئون الأسرة - وقضاء العامة
أما « الدولة » أى « الدواوين السلطانية » ، و« العسكر » ، أى الطبقة الحاكمة ،
فإنهم قد استعاروا واستوردوا لقضائهم وتنظيم شئونها والفصل فى منازعاتها
القانون الذى كان سائدا فى المواطن الأصلية التى جلبوا منها ، والذى وضعه الخان
الوثنى جنكركخان [٥٦٢ - ٦٢٤ هـ ١١٦٧ - ١٢٢٧ م] فاقترحه القانون
الأجنبى ، الغربى عن طبيعة الأمة ، على الشريعة حصنها وحماها ، تعبيرا عن
غربة هذه السلطة عن حضارة الأمة ، وشاهدا على التحولات التى مثلت التراجع
والتخلف لازدهارها الحضارى ..

ومؤرخ العصر المملى [٧٦٦ - ٨٤٥ هـ ١٣٦٥ - ١٤٤١ م] يضع يدا

على ملاسات هذا التحول . فيقول : « إن جنكزخان قرر قواعد وعقوبات أثبتها في كتاب سماه « ياسة » ... جعله شريعة لقومه . فالتزموه كالتزام أول المسلمين حكم القرآن » فلما حكم الترك المالك البلاد « جمعوا بين الحق والباطل . وضمو الجيد إلى الرديء . وفوضوا لقاضي القضاة كل ما يتعلق بالأمور الدينية . من الصلاة والصوم والزكاة والحج ، وناطوا به أمر الأوقاف والأيتام ، وجعلوا إليه النظر في الأقضية الشرعية ... واحتاجوا في ذات أنفسهم إلى الرجوع لعادة جنكزخان . والافتداء بحكم الياسة . فلذلك نصبوا الحاجب ليقضي بينهم .. على مقتضى الياسة . وجعلوا إليه ، مع ذلك ، النظر في قضايا الدواوين السلطانية .. » (٢٤) !

صحيح أن هؤلاء الترك المالك قد أسلموا .. وبعبارة المقرري : فهم « قد ربوا بدار الإسلام . ولقنوا القرآن . وعرفوا أحكام الملة المحمدية » لكنهم قد وقفوا بالتدين عند شكل « الإسلام » لأنهم قد أصابوه في الثب عندما طعنوا في عقلانيته . فضممت طاقة الاجتهاد في أمته . ثم ثنوا بانتزاع جهاز الحكم وطبقات الحكام من ولاية الشريعة الإسلامية وسلطانها . فاستنوا - جزئيا - السنة السيئة التي مارسها الاستعمار الغربي الحديث في ميدان التشريع والقضاء !

ومنذ ذلك التاريخ بدأت الحقوة تصع بين « القانون الإسلامي » - فقه المعاملات - وبين واقع المسلمين .. فضمور طاقات الاجتهاد قد تطور منحذرا إلى ما عرف بـ « إغلاق باب الاجتهاد » . وعزل القانون الإسلامي عن الهممة

(٢٤) [المخطوط] ج ٣ ص ٦٠ ، ٦١ ، ٦٣ طبعة القاهرة . دار التحرير

على جهاز الدولة وحكامها وجيشها قد أعجزه عن محاربة الواقع - المتطور دائما - فجمدت الأحكام - وتطور الواقع بعيدا عن سلطان هذه الأحكام - وقع فقهاء السلاطين بالتبرير لما حدث وحدث .. وقع فقهاء العامة بالتفصيل في فقه العبادات .. وذلك هو السر وراء الغنى الزائد عن الحد في «فقه العبادات» ، والفقر الخلل في «فقه المعاملات» .. فالأول قد استمر حيا متطورا - لدواعي الممارسة والاستعمال - أما الثاني فلقد جمد وتحجر - عندما عزل عن ميدان الواقع - فذهبت مباحثه ، وأصابه جفاف شديد - وغدونا - عندما تلمسنا طريقنا إلى البقعة والنهضة - ندرك أكثر فأكثر فداحة الخطب والحرم الذي صنعه بشريعتنا - وهي القانون الطبيعي للأمة - هؤلاء الترك المالك !



وفيما يتعلق بالظلم الاقتصادي والاجتماعي للرعية :

لقد أحرز المالك أعظم الانتصارات على الجبهة العسكرية . وكانوا فرسان الشرق المهرة في ميادين القتال لعدة قرون ولولاهم لتغير وجه العالم والتاريخ .. فهم في عين جالوت [سنة ٦٥٨ هـ سنة ١٢٦٠ م] الذين أنقذوا الشرق وحضارته من المصير الدامي والمروع الذي لقيته بغداد على يد جهافل الصليبيين [سنة ٦٥٦ هـ سنة ١٢٥٨ م] وبسائرهم في الصدى للغزوة الصليبية هي التي أنقذت بلادنا من مصر المستعمرات الاستيطانية اللاتينية التي خططت له الكنيسة الكاثوليكية الأوروبية . ومولت تنفيذ المدن التجارية الأوروبية - وانخرطت في الجيوش لتحقيقه الجواهر الأوروبية الغوغائية المتعصبة

تحت قيادة فرسان الإقطاع الصليبيين ..

تلك صفحة ناصعة - على الجبهة الحربية - في تاريخنا الإسلامي - لفرسان
الماليك -

وبقدر ما كان هذا العمل عظيماً ، كان الثمن الذي دفعته الأمة في سبيله
غالياً ، بل وفادحاً !! ..

لقد كان الصليبيون إذا دخلوا بلداً من بلاد الإسلام ، حولوا أرضه إلى
« إقطاع » لجنودهم وقادة هؤلاء الجنود . كان ذلك « شريعة » من شرائع الفتح
والاستعمار الاستيطاني الذي أقاموه في بلادنا .. أما دول العسكر - من الغز
والماليك - فإنهم صنعوا شيئاً قريباً من صنع الصليبيين - في هذا الميدان -
فالبلاد التي دافعوا عنها وحملوا حياها من الغزو الصليبي ، أو حرروها من
احتلاله - قد أقطعوا أرضها لجنودهم وقادة هؤلاء الأجناد !! صحيح أنهم
لم يخلوا الفلاحين عن أرضهم ، ولم يقتلوه - كما كان يصنع الصليبيون - وإنما
أنقذوا حياتهم .. ولكنهم حولوا هؤلاء الفلاحين إلى « أقتان » في نظام « الإقطاع
الحربي » الذي طرأ على نظم استغلال الأرض الزراعية منذ ذلك التاريخ .

بجدتنا المؤرخ أبو شامة [٥٩٩ - ٦٦٥ هـ ١٢٠٢ - ١٢٦٧ م] في أخبار
[سنة ٥٦٤ هـ سنة ١١٦٨ م] عن خطط وتخطيط الصليبيين لتوزيع أرض مصر
إقطاعاً على جنودهم إذا هم انتصروا عليها في الحملة التي تحركوا فيها لهذا الغرض
في ذلك العام . ويقول : إن ملكهم أحضر « وزيره » وأمره بإقطاع بلاد مصر
لجلائته [فرسانه] - وفرق قراها على أجناده .. وكان ، لعنة الله ، لما دخل ديار

مصر . قد أقام من أصحابه من كتب له أسماء قراها ، ونعرف له خبر ارتضاعها
- [دخلها] - . (٢٥) » .

لكن الصليبيين قد هزموا أمام جيش المغز والترك الذى قاده أسد الدين
شيركوه [٥٦٤ هـ ١١٦٩] الذى أقطع بلاد مصر لجنوده كما يقول المؤرخ
أبو شامة أيضا [١٤] . (٢٦)

وصارت سنة من سنن دول العسكر - المغز والماليك - تغييرها نظام استغلال
الأرض الزراعية ، وتحويلها للفلاح إلى « قن » - ليس عبدا حتى يباع
ويسترق - وليس حرا - وإنما هو مربوط بالأرض ، التى أقطعت للجنود كـ بعض
من أدوات زراعتها ! - . وعن هذه السنة السيئة ، التى مثلت المصدر الأول
للبنس الاجتماعى والظلم الاقتصادى ، ونكبت الشعب بالأويشة وانخاعات ،
يحدثنا المقرئى - مؤرخ العصر - فيقول : « ... واعلم أنه لم يكن فى الدولة
الفاطمية - ولا فيما مضى قبلها من دول - لعساكر البلاد إقطاعات - بمعنى
ما عليه الحال اليوم فى أجناد الدولة التركية ، وإنما كانت البلاد تضمن بقبالات
معروفة لمن شاء - [نظام الالتزام] - ولم يعرف ما يسمى اليوم بالفلاحة - والذى
يسمى فيه المزارع المقيم بالبلد فلاحا قرارا - [أى مربوطا بالأرض مقبدا إليها] -
فيصير عبدا لمن أقطع تلك الناحية ، إلا أنه لأبباع ولا يُعتق : بل هو قن
ما بقى . ومن ولد له كذلك ! » . حدث ذلك عندما تغير الرسم . وقررت
الأرض إقطاعات على الجنود ... (٢٧)

(٢٥) كتاب الموضين فى أخبار الدولتين العوية والصلاحية [ج ١ ص ٢٣٠ طبع القاهرة سنة

١٩٦٢ م

(٢٦) المصدر السابق . ج ١ ص ٤٠٢

(٢٧) [الخطط] ج ١ ص ١٥٧ ، ١٥٣

لقد أنقذ المماليك الأرض ، وحولوها إلى إقطاع حرى لأجنادهم وأمرائهم .. واستمر هذا الإقطاع الحربي سنة متبعة في استغلال الأرض الزراعية - وهي الثروة الأولى في ذلك العصر - حتى رأينا « الروك الناصري » - [أي مسح الأرض - فك الزمام] - الذي تم في عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون [٦٨٤ - ٧٤١ هـ ١٢٨٥ - ١٣٤١ م] في [سنة ٧١٦ هـ سنة ١٣١٦ م] يقسم الأرض إلى أربعة وعشرين قيراطا .. للسلطان - وهو مملوك - أربعة .. وللأجناد - وهم مماليك - عشرة .. وللدولة - وهي مملوكية - عشرة .. ولا شيء للفلاح (٢٨) ١٩ ..

وكما أنقذوا الأرض من التار والصلبيين ، فلقد أنقذوا ما على هذه الأرض من فكر وحضارة ظلت تقاوم وثبت أشعة التقدم والاستنارة بكل الاتجاهات ... لكن الثمن كان غاليا ، والمهر كان فادحا !٢ فلقد أصيبت قسمة « العدل » ، التي ميزت إسلامنا وحضارتنا ، بهذا الإقطاع الحربي في الصميم ١ ..



وفيما يتعلق بالعروبة الحضارية :

كانت « عجمة الدولة والسلطة الحاكمة » في دول العسكر المماليك ، وكذلك في الدولة العثمانية ثغرة وحاجزا صنع المغايرة بين الحكام وجنود الأمة في اللغة ، التي هي في حال لغتنا العربية أكثر من سبيل للتخاطب بين الناس .

(٢٨) الفقهتندى [صبح الأعشى] ج ٣ ص ٤٣٢ طبعة دار الكتب المصرية ود محمد عبادة [مجر
اللفظة القومية] ص ١٦٣ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧ م

فهي لغة القرآن والشريعة والسنة ، وقسمة من القسمة الثابتة في حضارتنا العربية الإسلامية

ولقد أصابت العربية من تأثيرات التراجع الحضاري في ظل دول العسكر المماليك أمراض كثيرة . فهي أداة الإبداع . تنمو بنموه ، ويصيبها الذبول عندما يلحقه الضمور . فبعد الرقة والدقة والجزالة والإحاطة التي جعلت من العربية لغة الحضارة ، في مختلف ميادينها وعلومها وفنونها ، النظرية والعملية أصابها « الركاسة » . وغرقت في « الشكل » السطحي - سجيما ولعبا بالألفاظ ومحسنات لفظية - لأن هذا الشكل السطحي كان النوع المناسب للمضمون المتدني لكثير من اهتمامات أدبائها في ذلك الحين . صحيح أن المماليك لم يحاربوا العربية ، ولم يتخذوا لهم لغة سواها . لكن العجزة الغالبة عليهم - والتردي الذي أصاب الحياة الفكرية والإبداع العقلي أصاب النوع والأداة - العربية - كما أصاب المضامين والأغراض . وفي أشعار ذلك العصر شواهد كثيرة على هذا الذي نقول

ولقد كانت محنة العربية في ظل الدولة العثمانية أشد منها في ظل دولة المماليك . فلقد أضافوا إلى أمراض الركاسة التي أصابها حربا أعلنوها عليها . عندما احتفظوا بمغاييرهم اللغوية للأمة العربية ، واحتفظوا بلغتهم التركية ، رغم فقرها الشديد ، ورغم أنها مجرد خليط مستعار أغلبه من العربية والفارسية فأصبحت التركية - لا العربية - لغة الدولة ودواوينها . تجتذب الخاصة والعامة من راغبي الالتحاق بوظائف الدولة والاقتراب من السلطة ، وأصحاب الحاجات لدى دواوين الدولة وسلطانها . ولذلك ، فهي لم تنافس العربية فقط ، حتى في الولايات العربية التي حكمها العثمانيون ، وإنما تعدى الأمر ونصاعد - في ظل

ما عرف بمحاولة الأتراك «تثريك العرب» ! - تعدى الأمر وتتصاعد إلى حد
إزاحة التركية للعربية من مدارس المشرق العربي ، حتى غدا تعلم أبناء العرب للغتهم
العربية في المدارس مطلبا تناضل في سبيله الأحزاب والجمعيات ، وقضية تناقش
في المؤتمرات (٢٩) ١٩

صحيح أن من العثمانيين علماء عربوا وبرعوا في العربية . وسلاطين
- كمحمد الفاتح [٨٣٣ - ٨٨٦ هـ ١٤٣٠ - ١٤٨١ م] - كان من رأيهم أن
يتعرب الأتراك العثمانيون حتى يندمجوا في « الأمة الأم » - الأمة العربية - فيتلحوا
بأدائها الحضارية ، ويشرفوا بشرفها التابع من دورها الخاص في حياة
الإسلام . لكن هذا التيار لم يكن الغالب ولا المؤثر . وهذا الرأي لم يقدر له
الانتصار . فظل الأتراك العثمانيون على عجمتهم ومغايرتهم العرب لغويا
وقادتهم التطورات إلى أن شنوا الحرب على العربية ، وتوهوا - بسفاهتهم -
إمكانية تثريك العرب وتحويلهم عن لغة القرآن !

لقد كانت مأساة تجسدت في موقف الأتراك العثمانيين من العربية . وعن
هذه المأساة تحدث فأجاد جمال الدين الأفغاني [١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ
١٨٣٨ - ١٨٩٧ م] عندما قال : « لقد أهمل الأتراك أمرا عظيما . وهو اتخاذ
اللسان العربي لسانا للدولة . ولو أن الدولة العثمانية اتخذت اللسان العربي لسانا
رسميا . وسعت لتعريب الأتراك . لكانت في أضع قوة . إنها لو تعربت
لانتفت بين الأمتين - [العربية والتركية] - النعرة القومية . وزال داعي النفور
والانقسام . وصاروا أمة عربية . بكل ما في اللسان من معنى . وفي الدين

(٢٩) انظر [وثائق المؤتمر العربي الأول] - الذي عقد بباريس سنة ١٩١٣ م - ص ١١٥ ، ١١٦ تقديم

ودراسة د. وجيه كورتاني . طبعة بيروت سنة ١٩٨٠ م

الإسلامي من عدل . وفي سيرة أفاضل العرب من أخلاق . وفي مكارمهم من عادات .. كيف يعقل تترك العرب ١٤ .. وقد تبارت الأعاجم في الاستعراب وتسابقت ١٥ .. وكان اللسان العربي لغير المسلمين ، ولم يزل .. من أعز الجامعات وأكبر المفاخر . فالأمة العربية هي «عرب» قبل كل دين ومذهب (٣٠) ..

لكن .. إذا كانت العربية قد أصابها ما أصابها من ركاسة وثوقف عن التطور وملاحقة الجديد في الفكر ومصطلحات العلوم . مثلها في ذلك مثل الأعضاء التي تكف عن الحركة الحيوية فيصيبها الضعف والضمور . فإن هذا الذي أصابها قد ظل في نطاق الأعضاء ، وبعبارة عن القلب النابض بمصدر الحياة ! ذلك أن ارتباط العربية بالقرآن الكريم . وارتباط العروة بالإسلام ، قد جعل من هذه القسمة هوية ثابتة وخصيصة لهذه الأمة تستعصي على الزوال . فحيثما كان القرآن يتلى كانت العربية نحيبا . وعلى امتداد وطن الأمة صمدت المؤسسات العريقة والمنارات الصامدة - من الأزهر .. إلى الزيتونة .. إلى القرويين . إلى الجامع الأموي .. الخ .. الخ - احتضنت الشعلة ، وحافظت عليها ، فلم تستطع إطفاءها الرياح التي هبت في ظل عسكرة الدولة وتأثيراتها السلبية على قسيمات الحضارة العربية الإسلامية .

(٣٠) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] ص ٢٢٢ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ دراسة وتحقيق : د محمد

عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م

وفيما يتعلق بعلاقة الفقهاء بالسلطين :

في بداية الطور العربي الإسلامي لحضارة هذه الأمة . وعندما كانت الحياة الفكرية بسيطة بساطة مجتمع شبه الجزيرة العربية . كان مثقفو الأمة هم «الفراء» - قراء القرآن الكريم وحفظته - . ومع نشأة العلوم والفنون . وتعقد الحياة الفكرية بتعدد المشكلات وتشابك القضايا المستجدة وثراء الموارث الفكرية في البلاد التي فتحتها العرب المسلمون ، عرفت الحياة الفكرية : «الفقهاء» . و « المتكلمين » و « المحدثين » و « المفسرين » و « المؤرخين » . و « علماء الطبيعة » وظواهرها . و « الفلاسفة » . مع ميدان الفنون . شعرا . ونثرا . وموسيقى . الخ . الخ . وكانت الموسوعية هي طابع العصر . فكان العَلم الواحد يجمع العديد من هذه العلوم والفنون . وكانت علوم الشريعة في المقدمة . لشرفها النابع من جمعها بين شئون الدين والدنيا . ولذلك كان « الفقهاء » هم أبرز « مثققي » الأمة في ذلك التاريخ ..

وقبل عسكرة الدولة وانحصر كانت استقلالية الفقهاء عن التبعية للدولة أمرا بارزا وملحوظا وقصة العلاقة بين الإمام مالك [٩٣ - ١٧٩ هـ ٧١٢ - ٧٩٥ م] والإمام أبو حنيفة [٨٠ - ١٥٠ هـ ٦٩٩ - ٧٦٧ م] والإمام أحمد بن حنبل [١٦٤ - ٢٤١ هـ ٧٨٠ - ٨٥٥ م] وبين الدولة العباسية نموذج ومثل لهذه السمة التي ميزت مواقف الأغلبية الساحقة من فقهاء الأمة بالشموخ المتواضع . والاستقلالية الأبية النبيلة عن التبعية للخلفاء والولاة . ناهيك عن نماذج الحسن البصري [٢١ - ١١٠ هـ ٦٤٢ - ٧٢٨ م] وواصل بن عطاء [٨٠ - ١٣١ هـ ٧٠٠ - ٧٤٨ م] وعمر بن عبيد [٨٠ - ١٤٤ هـ ٦٩٩ - ٧٦١ م] وجعفر الصادق [٨٠ - ١٤٨ هـ ٦٩٩ - ٧٦٥ م] وزيد بن علي

[٧٩-١٢٢ هـ ٦٩٨-٧٤٠ م] من الفقهاء والرواة والمتكلمين الزاهدين
الجاهدين الثوار ..

ثلك سمة غلبت على الحياة الفكرية للأمة - سمة استقلالية الفكر والمفكر -
وهي قد لعبت دورها العظيم في تنمية ملكات الخلق والإبداع ، ونمت ، هي
أيضا ، عندما ارتوت من نبع هذا الخلق والإبداع . فالحرية تنرى الفكر ،
والفكر الحر يزيد عود الحرية قوة وعزما ! .

لكن عسكرة الدولة والمجتمع . وقد أصابت الإبداع الفكرى فى الصميم .
نراها قد قللت من شأن العلم والفكر . ومن ثم من شأن المفكرين والعلماء . فلم
تعد الإمامة لمن بلغ فى العلم مرتبة الاجتهاد ، وإنما غدت السلطة لمن غلب ! .
وعندما مالت الكفة لحساب « القوة » على حساب « العقل » . تبدلت مؤهلات
« الصفوة » : فغدت الفروسية والمكر والدهاء وقهر الخصوم هي سبل الوصول إلى
السلطة والدولة ، وهي الموازين التي تزن بها الدولة من تقريهم من الرجال ..

وحدث أن اهتم العسكر الترك - كعادتهم - بشكل التدين أكثر من اهتمامهم
بجوهره . فهم لا يستطيعون غيره . وهو أكثر جلبا لرضا العامة ! .
الذى عزالوا فيه الشريعة عن أن تكون قانون « الدولة » وحكامها . نراهم
يستبدلون الفخامة المترفة بالبساطة فى إقامة المساجد وما ألحق بها من المدارس .
فتحول المسجد إلى مؤسسة ضخمة لا قبل للفقراء بإقامتها مستقلين . فأقامتها
الدولة ، بواسطة السلاطين والأمراء ، وأوقفت عليها الأوقاف الدارة ، بعد أن
انترعت أرضها من ملاكها وفلاحينا .. وغدا الفقهاء الذين يعلمون تلاميذهم ،
فى هذه المؤسسات التى أقامتها وتنشئ عليها الدولة ، غدوا « موظفين » لدى دولة
العسكر المماليك . فغلبت سمة التبعية للدولة على كثير من الفقهاء . للمرة الأولى فى

تاريخ أمنا الحضارى وكان ذلك تحولاً سلبياً أصاب حياتنا الفكرية والسياسية
فى الصميم ١.

فريق من الفقهاء ربطتهم التبعية الاقتصادية بالدولة . فغضوا الطرف عن
تجاوزاتها . ووقفوا إزاء فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند أضغف
الإيمان ١٩.

وفريق قاده هذه التبعية الاقتصادية إلى «التبرير» .. تبرير التجاوزات التى
تقرئها الدولة ضد الرعية .. ورحم الله من قال : «من يأكل عيش الكافر
يخارب بسيفه» ١٩ .. فما بالك إذا كان صاحب «العيش» سلطاناً ممن «يشهد
أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله» ١٩.

بل لقد أُلجأت المخاطر الخارجية المهددة بالوطن والأمة والحضارة . ألجأت
بعضاً من الفقهاء المجتهدين المجاهدين إلى أن يغضوا الطرف عن تجاوزات الدولة
والخرافات الأمراء والسلاطين . إيماناً منهم بأن الخطر الخارجى هو الأعظم .
وأن مجاهدة الدولة - مع ظلمها - لن يقيد - فى ذلك الطرف العصب - سوى
العدو الخارجى الذى يهدد الأمة والحضارة بالقضاء .. فرأينا مجتهداً مجاهداً مثل ابن
تيمية [٦٦١ - ٧٢٨ هـ - ١٢٦٣ - ١٣٢٨ م] . لبصيرته السياسية والحضارية
العبقريّة يقف مع الدولة المملوكية . ينصرها ويناصرها . ويجمع لنصرتها الأعوان
والإمكانات . بل ويطوع الأحاديث النبوية - بالتفسير المتعسف - كى تشهد
بأن المالك هم الفئة المنصورة التى تنبأ بها الرسول ، - صلى الله عليه وسلم - .
كل ذلك إيماناً من ابن تيمية أن بقاء الإسلام وحضارته رهن بقوة هذه
الدولة وانتصارها على التتار .. فلقد كانت الأمة فى «حالة حرب ضروس»
ولن يقل حديد التتار الحمج المتوحشين إلا حديد فرسان المالك .. والضرورات

تبيح المحظورات ، بلى قد نوجبها ! وعلماء الأمة ، من أهل السنة والجماعة ، قد أجازوا إمامة المقتضول دينيا إذا كان أفضل سياسيا وأقدر على مواجهة التحديات المحيطة بالأمة . وإن الله لينصر هذا الدين بالرجل الفاجر . كما جاء في المأثورات ١٩٠ . ثم إنه - ابن تيمية - على مذهب شيخه الإمام أحمد بن حنبل ، الداعى إلى طاعة الدولة ، والبيعة لمن غلب ، والنأهى عن الخروج والثورة وتجريد السيف ضد الحكام ، حتى ولو جاروا وظلموا . فعنده أن «السيف باطل ، ولو قُلت الرجال وسببت الذرية . وأن الإمام قد يكون عادلا . ويكون غير عادل . وليس لنا إزالته وإن كان قاسما» ١٣١ .

فسيرا على هذا النهج : نهى ابن تيمية عن مناهضة الدولة المملوكية - مع تسليحه بظلمها - . وقال : إن «المشهور من مذهب أهل السنة أنهم لا يرون الخروج على الأئمة وقتالهم بالسيف . وإن كان فيهم ظلم . لأن الفساد في القتال والفتنة أعظم من الفساد الحاصل بظلمهم بدون قتال ولا فتنة . فيدفع أعظم الفسادين بالتزام الأدنى .» ١٣٢ !

وهو - كما نرى - موقف من مواقف «السياسة» الإسلامية . أشبه ما يكون بما نسميه في اصطلاحاتنا المعاصرة : «تقديم التناقضات الرئيسية على التناقضات الثانوية» . فتناقض الأمة ودولتها الظالمة مع الخطر الخارجى كان الرئيسى والحاكم . لأنه هو «التناقض العدائى» على نحو جذرى . أما تناقض الأمة مع دولتها الظالمة . فلقد كان - فى ظل التناقض مع التتار ، وبالقياس

(٣١) الأشعرى [مدونات الإسلاميين واختلاف المصطفى] ج ٢ ص ٤٥١ - ٤٥٢ طبعة اسامبول سنة

١٩٢٩ م

(٣٢) (منهاج السنة) ج ٢ ص ٨٧ طبعة القاهرة - الأولى -

عليه - تناقضا ثانويا . من الواجب تأجيله . أو استخدام الأساليب غير العنيفة في مواجهة مظالمه والخرافاته . دون السيف - أي الثورة والقتال - . ولهذا وجدنا ابن تيمية يقف . مع فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، عند درجة الإنكار بالناس . فانتقد الواقع والخرافاته . ونصح للحكام . حتى لقد مات الرجل في سجن المالك ١٩ . ولكنه لم يدع إلى الثورة والتغيير للمنكر بالعنف والثورة والقتال . لا حين منه أو تقصير . فلقد كان مجاهدا . حمل السلاح وقاتل . ولكن ضد العدو الرئيسي والخطر الأكبر : جحافل التتار !

في ضوء هذه الرؤية السياسية والحضارية يجب أن يفهم موقف ابن تيمية من دولة العسكر المالك . ويجب أن نقرأ كلماته التي تطل الموقف السياسي والعسكري والحضاري تحليلا عبقريا . عندما يقول :

« إن سكان اليمن ، في هذا الوقت . ضعاف عاجزون عن الجهاد . أو مضطربون له . وهم مطيعون لمن ملك هذه البلاد . حتى ذكروا أنهم أرسلوا بالسمع والطاعة هؤلاء [التتار] ! ... وأما سكان الحجاز . فأكثرهم . أو كثير منهم خارجون عن الشريعة . وفيهم من البدع والفساد وانفجور ما لا يعلمه إلا الله . وأهل الإيمان والدين فيهم مستضعفون عاجزون . وإنما تكون القوة والعزة . في هذا الوقت . لغير أهل الإسلام بهذه البلاد ٢ . وأما بلاد أفريقيا - [تونس] - فأغرابها غالبون عليها . وهم من شر الخلق . وهم مستحقون للجهاد والغزو ! . وأما المغرب الأقصى . فمع استيلاء الإفرنج على أكثر بلادهم . لا يقومون بجهاد النصاري الذين هناك . بل في عسكرهم من النصاري الذين يحصلون الصليبان خلق عظيم ! ولو استولى التتار على هذه البلاد لكان أهل المغرب معهم من أدل الناس . لاسيما والنصاري تدخل مع التتار .

فبصيرون حزيا على أهل المغرب ! فهذا وغيره مما بين أن هذه العصاية
 -[عسكر المالك]- . التي بالشام ومصر . في هذا الوقت . هم كتيبة
 الإسلام . وعزهم عز الإسلام . فلو استولى عليهم التتار لم يبق للإسلام عز ولا
 كلمة عالية ولا طائفة ظاهرة عالية يخافها أهل الأرض تقاتل عنه . فهم
 -[المالك]- من أحق الناس دخولا في الطائفة المنصورة التي ذكرها
 النبي - صلى الله عليه وسلم - بقوله في الأحاديث المستقبضة عنه : « لا تزال
 طائفة من أمتي ظاهرين على الحق . لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى
 تقوم الساعة » (٣٣) . وثبت عنه في الصحيح . أنه قال : « لا يزال أهل
 الغرب ظاهرين » (٣٤) . والنبي تكلم بهذا الكلام وهو بالمدينة النبوية . فما يغرب
 عنها فهو غرب ، كالشام ومصر » (٣٥) !

لكن هذا الموقف العبقري . والمفهوم . الذي اتخذته ابن تيمية - ومن رأى
 رآه - من دولة العسكر المالك . والذي ناصر الدولة في جهادها للخطر
 الأعظم . وانتقدها . بالوسائل السلمية . على مظالمها وتجاوزاتها . هذا
 الموقف المفهوم . قد استفاد منه « تيار التحرير » و « المسابرة » و « إيثار السلامة » .
 عندما وقفوا عند رفضه للثورة على الدولة الظالمة ومببه عن قتال أحكام
 الجائرين . دون إبراز للملاسلات التي أملت هذا الموقف . تلك التي أوضحها
 ابن تيمية عندما قال لنا : لقد كان هناك تحالف « تترى - صليبي » ضد عالم
 الإسلام . وكان هناك عجز عن مواجهة هذا التحالف المدمر في أغلب بلاد

(٣٣) رواء البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجة والدارمى والإمام أحمد

(٣٤) رواء مسلم

(٣٥) [الفتاوى الكبرى] ج ٤ ص ٣٤٦-٣٥٨ . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ .

الإسلام .. اليمن .. والحجاز .. وإفريقية .. والمغرب الأقصى .. ولم يكن هناك سوى فرسان الممالك ودولتهم من يعلق الإسلام والمسلمون عليهم الآمال في مواجهة هذا التحدي «التتري - الصليبي» . فلذلك وجبت نصرته المالك . في ضوء هذه الظروف والملايسات .

لقد أغفل «أهل التبرير» الملايسات التي حكمت رأى ابن تيمية في الدولة المستوكة . فاستمر «التبرير» بإطلاق يلى وغدا السمة الغالبة والنعمة السائدة حتى بعد الخسار الخطر التتري وانهيار آخر الحصون والقلاع الصليبية [سنة ٦٩٠ هـ سنة ١٢٩١ م] . عندما لم يبق من دولة العسكر المالك سوى السلبات التي أصابت بها حضارتنا العربية الإسلامية . وعندما رالت الدواعي القاهرة التي تبرر للأمة إسلام الزمام والقياد والمقدرات لسلطة جائرة متغلبة على البلاد والعباد



تلك هي أبرز سمات ومظاهر التراجع الحضارى الذى أصاب حضارتنا العربية الإسلامية عندما تعسكرت «الدولة» . وامتدت آثار «العسكرة» إلى كثير من ميادين الإبداع الحضارى

لقد أصاب الضمور قسما «العقلانية» و«العروبة» و«عفوية» انتشارا للدولة والمجتمع وال عمران . و«العدل الاجتماعى» . - وهى من أبرز سمات المكونة لهوية الأمة الحضارية - وضمور الإبداع فى هذه الميادين . تدرت نماذج المبدعين فيها ، من المجتهدين المجتهدين ، ذوى الشموخ الذى يرفعهم عن حطة التبعية للسلطان ومذلتها . وعند ذلك ، سادت نماذج التبعية والتبرير للسلطين ونجاوزاتهم . وشاعت الركاسة . وانتشرت الحرافة .. ومشا التواكل

وزهد الدراويش . وأصاب تصورات العامة وعقائدهم الكثير من مظاهر
الشرك الحق . عندما قدسوا المزارات . والأموات . واتخذوا الوسائط كى
تقرهم وتشفع لهم وتقضى لهم الحاجات . . . وبدلا من « دور الحكمة »
وبيوتها . . . ومجامع الإبداع والترجمة . ومدارس الفقهاء ومذاهب المتكلمين . .
امتلأت المدن والخواضر بالكتابات والخوانق . وأصبح « مشايخ الطرق الصوفية »
- الذين لا علاقة لهم بحقيقة التصوف ، شرعيا كان أو فلسفيا - هم أعلام
العصر . وليس الفقهاء والمتكلمين والفلامنة وأساطين البحث فى علوم الطبيعة
وأسرارها . .

تلك كانت أبرز أسباب تراجعنا الحضارى . وأهم مظاهر وظواهر هذا
التراجع الذى أصاب حضارتنا العربية الإسلامية بالتوقف والجمود .



ونحن إذا شئنا ، عند هذا الحد من هذا الحديث ، شهادة على صدق هذا
الذى رأيناه فإن لدينا الكثير مما سطره أئمة اليقظة الإسلامية الحديثة فى هذا
الموضوع . .

● فالأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦-١٣٢٣ هـ
١٨٤٩-١٩٠٥] يقول عن التأثيرات السلبية لدول العسكر المائيك على
عقلانية حضارتنا وعروبينا : « كان الإسلام دينا عربيا . ثم لحقه العلم فصار
علما عربيا . بعد أن كان يونانيا . . . حتى سيطر الترك والديلم وغيرهم . . ممن لم
يكن لهم ذلك العقل الذى راضه الإسلام . والقلب الذى هذبه الدين . بل
جاءوا إلى الإسلام بخشونة الجهل يحملون الوية الظلم فلبسوا ثوبه على أبدانهم .
ولم ينفذ منه شيء إلى وجدانهم . فمالوا على العلم وصديقه الإسلام ميلتهم . أما

العلم فلم يحفلوا بأهله ، وقبضوا عنه يد المعونة ، وحملوا كثيرا من أعوانهم على أن يندرجوا في سلك العلماء . وأن يتربلوا بسرايلهم ، ليعدوا من قبيلهم . ثم يضعوا للعامة في الدين ما يفيض إليهم العلم ، ويبعد بنفوسهم عن طلبه ، ودخلوا عليهم . وهم أغرار - من باب التقوى وحماية الدين ، زعموا الدين ناقصا ليكلوه أو مريضا ليعملوه ، أو متداعيا ليدعموه . أو يكاد يتقضى ليقبضوه .

نظروا إلى ما كانوا عليه من فخخة الوثنية وفي عادات من كان حولهم من الأمم النصرانية . فاستعاروا من ذلك للإسلام ما هو براء منه . لكنهم نجحوا في إقناع العامة بأن في ذلك تعظيم شعائره ، وتضخيم أوامره ، والغوغاء عون الغاشم ، وهم يد الظالم ، فخلقوا لنا هذه الاحتفالات . وتلك الاجتماعات . وسنوا لنا من عبادة الأولياء والعلماء والمنشئين بهم ما فرق الجماعة وأركس^(٣٦) الناس في الضلالة . وقرروا أن المتأخر ليس له أن يقول بغير ما يقول المتقدم . وجعلوا ذلك عقيدة ، حتى تقف الفكر ، وتجمد العقول . ثم بنوا أعوانهم في أطراف الممالك الإسلامية ، ينشرون من القصص والأخبار والآراء ما يفتح العامة بأن لا نظر لهم في الشئون العامة . وأن كل ما هو من أمور الجماعة والدولة فهو مما فرض فيه النظر على الحكام دون من عداهم . ومن دخل في شيء من ذلك من غيرهم فهو متعرض لما لا يعنيه . وأن ما يظهر من فساد الأعمال واختلال الأحوال ، ليس من صنع الحكام . وإنما هو تحقيق لما ورد في الأخبار من أحوال آخر الزمان . وأنه لا حيلة في إصلاح حال ولا مآل . وأن الأسلم تقويض ذلك إلى الله . وما على المسلم إلا أن يقتصر على خاصة نفسه . ووجدوا في ظواهر الألفاظ لبعض الأحاديث ما يعينهم على ذلك . وفي الموضوعات

(٣٦) أى أعادهم إلى حالتهم الأولى في الضلالة قبل أن يهتدوا

والضعاف^(٣٧) ما شد أزهرهم في بث هذه الأوهام

وقد انتشر بين المسلمين جيش من هؤلاء المضللين ، وتعاون ولادة الشر على مساعدتهم في جميع الأطراف . واتخذوا من عقيدة القدر منبعا للعزائم وغلا للأيدى عن العمل . والعامل الأقوى في حمل النفوس على قبول الخرافات إنما هو السذاجة . وضعف البصيرة في الدين . وموافقة الهوى - أمور إذا اجتمعت أهلكت - فاستتر الحق تحت ظلام الباطل ، ورسخ في نفوس الناس من العقائد ما يتضارب وأصول دينهم ويأينها على خط مستقيم

هذه السياسة - سياسة الظلمة وأهل الأثرة - هي التي روجت ما أدخل على الدين مما لا يعرفه ، وسلبت من المسلم أملا كان يخترق به أطباق السموات ، وأخلدت به إلى يأس يحاور به العجاوات !

فجعل ما تراه الآن مما تسميه العامة إسلاما فهو ليس بإسلام . وإنما حفظ من أعمال الإسلام صورة الصلاة والصوم والحج ، ومن الأقوال قليلا منها حرفت عن معانيها . ووصل الناس - بما عرض لدينهم من البدع والخرافات - إلى الحمد الذي ذكرته : وعدوه دينا ، نعوذ بالله منهم ومما يفترون على الله وعلى دينه هناك استعجم الإسلام وانقلب عجميا !^(٣٨) . . .

هكذا صور الإمام محمد عبده الانقلاب الحضارى الذى صنعه الترك المماليك . وهو الانقلاب الذى جعل الإسلام «عجميا» !^٤ .

(٣٧) أى الأحاديث الموضوعة المكتوبة . . . والضعيفة الإسناد

(٣٨) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده ج ٣ ص ٣١٧-٣١٩ دراسة وتحليل : د. محمد حمارة

طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م

● والإمام الشهيد الشيخ حسن البنا [١٣٢٤ - ١٣٦٨ هـ - ١٩٠٦ - ١٩٤٩ م] - هو الآخر - يدلي بشهادته في هذه القضية ، فيقول : « إن هذا الإسلام الحنيف نشأ عربيا ، ووصل إلى الأمم عن طريق العرب ، وجاء كتابه الكريم بلسان عربي مبين ، وتوحدت الأمم باسمه على هذا اللسان يوم كان المسلمون مسلمين ! وقد جاء في الأثر : « إذا ذل العرب ذل الإسلام » ! ... وقد تحقق هذا المعنى حين ذال سلطان العرب السياسي وانتقل الأمر من أيديهم إلى أيدي غيرهم من الأعاجم والديلم ومن إليهم ... فالعرب هم عصبه الإسلام وحراسه ... ومن هنا وجب على كل مسلم أن يعمل لإحياء الوحدة العربية وتأييدها ومناصرتها ... (٣٩) » !

تلكم شهادتان . إن كان الأمر لا يزال بحاجة إلى إثبات بعد هذا الذي قدمناه .



لقد حققت دول العسكر المالك لأمتنا نصرا مؤزرا . ضد التتار . وضد أطول وأبشع غزوات العصور الوسطى . الغزوة الصليبية [٤٨٩ - ٦٩٠ هـ - ١٠٩٦ - ١٢٩١ م] لكنها . على الجبهة الحضارية ، أصابتنا بالتراجع والهزيمة والجمود ... ولقد حدث وتزامنت هذه المفارقة مع نهضة الغرب الأوربي . الذي اكتشف من خلال صراعه المسلح معنا . تراثه اليوناني ، فأضاف إليه إبداع حضارتنا في المنهج التجريبي ، وإضافاتها في العلوم الطبيعية . فبنى عليهما نهضته الحديثة العملاقة ... فكان أن انتصر المهزوم عسكريا في الميدان

(٣٩) [رسالة المؤتمر الخامس] ص ٤٦ طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧ م

الحضارى - وانهم المنتصر عسكريا في هذا الميدان ١٢... وشهد التاريخ كيف تبادلنا المواقع الحضارية - من حيث النهضة والتراجع - مع الغرب الأوربي . فلقد كنا سادة العلوم الطبيعية وتطبيقاتها ، وكانوا يعيشون الجهل المظلم . وعندما أهدى هارون الرشيد [١٤٩-١٩٣ هـ ٧٦٦-٨٠٩ م] « ساعة » تضبط الوقت إلى ملكهم شلمان [٧٤٢-٨١٤ م] فأحضر شلمان قساوسة الإمبراطورية - مفكرى الغرب يومئذ - لرؤيتها . أصابهم الرعب من حركتها . وقالوا : لا بد وأن يكون قد تقمصها شيطان ١٣... حدث ذلك على عهد الرشيد وشلمان . فلما حدث وتبادلنا معهم المواقع ، رأينا شيوخ الأزهر - وهم ملالة الذين صنعوا أحد العلمى حضارتنا - يذهبون لزيارة مقر البعثة العلمية التى صبحت الحسلة الفرنسية على مصر [١٢١٣-١٢١٦ هـ ١٧٩٨-١٨٠١ م] فإذا رأوا تجربة كيمائية بسيطة فى زجاجة اختبار ، أصابهم ما أصاب قساوسة الغرب عندما رأوا ساعة الرشيد فى بلاط شلمان ١٤... ولسانهم تحدث الخبر عن علم الفرنسيين هذا فقال : « ولهم فيه أمور وأحوال وتراكيب غريبة ، نتج منها نتائج لا يسعها عقول أمثالنا ... ١٤٤... » (١٠)

والأزهر - الذى كان يدرس طلابه علم الفلك ، ويشغل علماءه بصناعته . عندما كانت الكنيسة الأوربية تحاكم جليليو [١٥٦٤-١٦٤٢ م] تبادل مع الغرب المواقع . فهزمت جامعات الغرب ومعاهده فحققت الانتصارات الفلكية الباهرة ... وتخلصنا نحن . حتى ليحكى الجبرئى [١١٦٧-١٢٣٧ هـ ١٧٥٤-١٨٢٢ م] ذلك الحوار الذى دار بين الوالى التركى على مصر سنة ١١٦٢ هـ ١٧٤٩ م - أحمد باشا - وبين شيخ الأزهر الشيخ عبد الله الشبراوى

(١٠) [عجائب الآثار] ج ٣ ص ٣٧

[١٠٩٢-١١٧٠ هـ ١٦٨١-١٧٥٧ م] حول مكان علم الفلك - وكان الوالي من المهتمين بمباحثه - في مناهج الأزهر التعليمية . . وهو حوار شاهد على تبادلنا المواقع مع الغرب في الاهتمام بهذه العلوم التي تؤسس عليها النهضة الحضارية

السوالى : المسموع عندنا بالديار الرومية - [التركية] - أن مصر منبع الفضائل والعلوم . وكنت في غاية الشوق إلى المحي ، إليها . فلما جئتها وجدتها - كما قيل - . تسمع بالمعبدى خير من أن تراه ١٥ .

شيخ الأزهر : هي - يا مولانا - كما سمعتم . معدن العلوم والمعارف
السوالى : وأين هي ؟ وأنتم أعظم علمائها . وقد سألتكم عن مطلوب من العلوم فلم أجده عندكم منها شيئاً . وغاية تحصيلكم : الفقه . والمعقول . والوسائل ونبذتم المقاصد ١٦ !

شيخ الأزهر : نحن لسنا أعظم علمائها . وإنما نحن المتصدرون خدمتهم وقضاء حوائجهم عند أرباب الدولة والحكام . وغالب أهل الأزهر لا يشتغلون بشيء من العلوم الرياضية إلا بقدر الحاجة إلى علم الفرائض والمواريث ١٧

السوالى : وعلم الوقت كذلك من العلوم الشرعية . بل هو من شروط صحة العبادة . كالعلم بدخول الوقت . واستقبال القبلة . وأوقات الصوم والأهلة ، وغير ذلك

شيخ الأزهر : نعم . معرفة ذلك من فروض الكفاية . وإذا قام به البعض سقط عن الباقي . وهذه العلوم نحتاج إلى لوازم وشروط وآلات وصناعات وأمور ذوقية . كرفة الطبيعة . وحسن

الوضع : والخط ، والرسم والتشكيل ، والأمور العطاردية ،
وأهل الأزهر بخلاف ذلك ، غالبهم فقراء ، وأخلاط مجتمعة
من القرى والآفاق ، فيندر فيهم القابلية لذلك ... (١٩) ١٩

تلك كانت حال الأزهر - أعظم منارات العلم في أمتنا يومئذ - وذلك هو
حظه من العلوم التي نهض بها الغرب وتسلح ، ثم خرج للاستكشاف والاستعمار
والهيمنة والاحتواء ؟

وبلغت الهزيمة قمة المأساة .. فصاعت الأندلس ، بعد سقوط غرناطة [سنة
٨٩٧ هـ سنة ١٤٩٢ م] .. واكتشف الغرب طريق رأس الرجاء الصالح [سنة
٩٠٣ هـ سنة ١٤٩٧ م] فالتف من حول الأرض العربية ، ليحتل بلاد الإسلام
في شبه القارة الهندية والشرق الأقصى تمهيدا للاستكشاف على القلب العربي من
مواقع عدة : مصر - بحملة بونايرت [١٧٦٩ - ١٨٢١ م] في [سنة ١٢١٣ هـ
سنة ١٧٩٨ م] .. والجزائر في [سنة ١٩٤٦ هـ سنة ١٨٣٠ م] .. وعدن في
[سنة ١٢٥٤ هـ سنة ١٨٣٨ م] .. ثم الاحتلال الإنجليزي لمصر [سنة
١٢٩٩ هـ سنة ١٨٨٢ م] والفرنسي لتونس [سنة ١٢٩٨ هـ سنة ١٨٨١ م]
والإيطالي لليبيا [سنة ١٣٢٩ هـ سنة ١٩١١ م] والفرنسي للمغرب [سنة
١٣٣٠ هـ سنة ١٩١٢ م] .. ثم عمت البلوى عندما تمخضت الحرب العالمية
الأولى [١٣٣٢ - ١٣٣٧ هـ ١٩١٤ - ١٩١٨ م] عن احتلال الهيمنة الغربية على
كل وطن العروبة وعالم الإسلام ! فوصل المسلمون وعالمهم إلى قمة المنحدر
الذي صنعت بداياته ونسجت خيوطه الهزيمة الخضارية التي صنعتها عسكرة الدولة
والمجتمع في ظل دول العجمة التي بدأت بالترك المالك .. لقد تجمعوا عسكريا ،

(٢١) [عجائب الآثار في التراجم والأخبار] الجزء الأول ص ٢٧٦ وما بعدها . طبعة دار فارس . بيروت

بقيادة الملك الأشرف [٦٨٩ - ٦٩٣ هـ ١٢٩٠ - ١٢٩٣ م] في إزالة آخر
 الحصون الصليبية من عكا [سنة ٦٩٠ هـ سنة ١٢٩١ م] فحققوا بهذا النصر
 أحلام الناصر صلاح الدين الأيوبي [٥٣٢ - ٥٨٩ هـ ١١٣٧ - ١١٩٣ م]
 ولكنهم بالهزيمة الحصارية التي صنعوها قد أصابوا الأمة بالضعف والهزال . بل
 والشلل . الذي أعجزها عن صد الغزوة الاستعمارية الحديثة . فكان أن دخل
 الجنرال الفرنسي جورو [١٨٦٧ - ١٩٤٦ م] على رأس الجيش الغازي إلى
 دمشق [سنة ١٣٣٨ هـ سنة ١٩٢٠ م] . فذهب إلى قبر صلاح الدين ليقول
 له : « ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين » !! فالهزيمة الحصارية التي صنعوها قد
 أثرت . في النهاية ، ضياع الكثير ، بما فيه النصر العسكري الذي أحرزوه !!



على أننا نعلم الحقيقة . كما نعلم أمثنا وتاريخها وحضارتها إذا لم ننبه إلى
 حقيقتين من حقائق هذا الموضوع :

أولاهما : أن التراجع الحضاري لم يكن كاملا . والتخلف لم يكن شاملا .
 والجهود لم يكن عاما في كل ميادين الفكر والعلم والإبداع . فعلاوة على الجهود
 الصالحة التي تبذل بها أعلام أفذاذ في كفاية التاريخ . الذي حفظ للأمة
 ذاكرتها . وفي تدوين الموسوعات التي جمعت علوم الحضارة وفنونها .
 فحفظتها من الضياع . وخففت كارثة تدمير التار لمكتبات بغداد وغير ما
 صنعه الأزهر الشريف . والزيتونة . والقرويون . والجامع الأموي . ومدارس
 بخاري . وحمزة الخ من احتضان العربية وعلومها . والقرآن والحديث
 وعلومها . كانت هناك المدارس التي قامت . منارات للعلم الديني والمغوي .
 منذ عصر صلاح الدين الأيوبي . ففي مصر وحدها - على سبيل المثال - انتظم

التعليم في ثلاثين جامعا ومسجدا ورباطا وزاوية وخانقاه - وذلك غير الأزهر الشريف - كما انتظم التعليم في مائة وخمسين مدرسة في المدة من [سنة ٥٦٦ هـ سنة ١١٧٠ م] سنة إنشاء المدرسة الناصرية إلى [سنة ١١٨٨ هـ سنة ١٧٧٤ م] عندما أنشئت «مدرسة محمد بك أبو الذهب» بجوار الأزهر الشريف (١٢)

وغير مدارس العلم وجهود الجمع والتصنيف للموسوعات والجهود العملاقة في التاريخ كانت هناك ومضات للإبداع في عدد من العلوم وإضافات ذات شأن في بعض الفنون

لكن ذلك كله كان أدنى من المستوى الطبيعي لهذه الأمة وحضارتها فإذا ما قورن بالذي كان يحدث في بلاد الحضارة الغربية ، مركز التحديث التاريخية لبلادنا وأمتنا وحضارتنا ، وضحت المقارقات الصارخة ، وفظهر حيا للعيان أن هذه «الذبالة» التي ظلت مضيئة في الليل الطويل لدول العسكر المماليك ، لم تكن - إذا ما قيست بمناة حضارتنا في عصر ازدهارها - أو قورنت بالهضة الغربية الحديثة ، لا تسمن أو تغنى عندما يجد الجدل ، وتبدأ دورة جديدة من دورات الصراع التاريخي بين أمتنا والحضارة الغربية الطامعة في احتواء عالم الإسلام ..

وهذا بالفعل ، هو الذي كان فعندما هبت على بلادنا عاصفة العزوة الاستعمارية الغربية الحديثة ، وصح للعيان أن ثقافتنا الحضارية قد نزع أسسها الأمة الفاعلة ، بينا يواجهها خصمها بعلوم قد تسيبها ، وتطبيقات هذه العلوم

(١٢) انظر في مدارس مصر وجامعاتها التي كانت مدارس للعلم : الدكتور أحمد حسن من كتاب [التعليم في مصر] لأمين سامي باشا ، ص ٢ - ٣٢ طبعة القاهرة سنة ١٩١٧ م

قد جهلتها ، فكانت الهزيمة التي حوت بلادنا إلى قريسة للغرب ، يفرض عليها
الهيمنة السياسية والاقتصادية والعسكرية . ونجاهد لاحتواء عقلها بفكرية
التغريب .

وثانيتهما : أن الدولة العثمانية [٦٩٩ - ١٣٤٢ هـ - ١٢٩٩ - ١٩٢٤ م] قد
مثلت محاولة هامة وجادة لتجديد شباب الدولة المملوكية عندما أصابها الضعف ،
والتفت الغرب حول وطنها بعد اكتشاف البرتغاليين طريق رأس الرجاء الصالح
[سنة ٩٠٣ هـ سنة ١٤٩٧ م] . ولقد نجح العثمانيون في نقل المعركة إلى قلب
أوروبا . فدوا حدود عالم الإسلام . واتخذوا مواقع الهجوم عندما عجزت الدولة
المملوكية عن النهوض بهام الدفاع كذلك نجح العثمانيون في توحيد أغلب
بقاع العالم الإسلامي في إطار الامبراطورية العثمانية ، فمدوا في عمر الوحدة
الإسلامية . واستمروا قوتها في تأخير الاجتياح الأوربي لعالم الإسلام لعدة
قرون .

لكن هذا الإنجاز العثماني ، على أهميته الكبرى ، لم يكن على مستوى الخطر
القادم من الغرب ، الزاحف بأسلحة النهضة الأوروبية وعلومها . فبدأوا العثمانيين
التي صيغت دولتهم بالصيغة العسكرية . قد جعلت منهم قوة عسكرية صاعدة
لا تستند إلى إبداع حضارى ينمى العمران ويمد الحياة في البلاد التي تفتحها
الجيوش . وهم لذلك كانوا يجددوا « للقوة » التي ضعفت في دول العسكر
المملوكية ، ولم يكونوا يجددوا « للحضارة » العربية الإسلامية

ولقد حرم العثمانيون من « الزاد الحضارى » اللازم لعمران البلاد المفتوحة
والضرورى لتحدث الامبراطورية العظمى التي أقامت قوتهم العسكرية ، حرمهم
من هذا « الزاد الحضارى » فنزحهم من العروبة واحتقارهم للغرب . فلم يتعربوا

حتى يصبحوا جزءا من الحضارة العربية الإسلامية . وإنما احتفظوا بتغابرتهم
للغرب ، فوقفوا - كالثرك المهالك - في كثير من الأحيان عند شكل التدين
بالإسلام . دون أن يفجروا طاقات الإبداع الحضارى الإسلامية . والتي هي
عربية الهوية والمزاج ! .

ولعل هذه « الثغرة القاتلة » هي التي نصاعدت بالفجور التركى من العرب .
فجعلت الإدارة التركية للولايات العربية العثمانية على نحو من الفوضى ودرجة من
الظلم زادا من ضعف الأمة وتخلفها الحضارى . فلم يشهد الخط البياني
لحضارتنا العربية الإسلامية ، خلال الحقبة العثمانية . أى درجة من درجات
الضعف

فما ضعفت الدولة العثمانية ، « كقوة عسكرية ضاربة » . وزاد من هذا
الضعف خلل الإدارة ، وفوضى الخند ، وزيادة المظالم والتعدييات ... لم يكن
هناك الإبداع الحضارى القادر على ترميم الثغرات التي انفتحت في « الجدار
العسكرى العثمانى » فزادت أمراضها استفحالاً ، وبلغت أدواؤها حد الاستعصاء
على الإصلاح ! .

وحتى عندما فكرت في الإصلاح ، فإن نفورها من العروبة قد صرفها عن
التوجه للعرب وتجليد الحضارة العربية الإسلامية ، وتأسيس إصلاحاتها على
نمطها الحضارى . وإنما ذهبت منذ عهد السلطان سليم الثالث
[١٢٠٣ - ١٢٢٢ هـ - ١٧٨٩ - ١٨٠٧ م] إلى الغرب ، تطلب « التحديث »
على النمط الغربى ، حتى جاء الوقت الذى استلهمت فيه من الغرب مفهومه
العنصرى للقومية . فكانت محاولاتها الحرقاء لتثريك العرب في القرن التاسع
عشر الميلادى . تلك التى زادت حدتها بصعود وتصاعد تيار الحركة الطورانية

المعادية للعرب والعروبة . الأمر الذي أتاح الفرصة لبروز فكر قومي عربي معاكس ، شحنته قوى موالية للغرب بالعداء للرابطة العثمانية ، والفصل بين العروبة والإسلام ..

تلك هي « الثغرة القاتلة » التي أعجزت الدولة العثمانية عن تجديد الحضارة العربية الإسلامية ، والتي تقف بها عند حدود « تجديد القوة المضارية لدول العسكر المماليك » التي سبقتها . ولذلك عجز العثمانيون عن تجديد شباب قوتهم عندما دب فيها الضعف . فبدل صمودهم أمام الغرب خضوعاً وتسليماً . فتسللت أوروبا - أولاً - بالامتيازات ، إلى ولايات الدولة العثمانية^(٢٣) . ثم أخذت تقطع الأجزاء تلو الأجزاء من هذه الدولة . وظلت تحرس ضعف « الرجل المريض » ، ترتبياً لأوراق تنافسها الاستعماري على تركته . ونخباً للظروف المناسب للإجهاز عليه ، حتى كانت الحرب العالمية الأولى ، فأجهزت على « رمز » الخلافة الإسلامية ، و« وعاء » وحدة عالم الإسلام . وقسمت أشلاءه بين دولها الاستعمارية . وذلك حتى لا يظل « الرمز » و « الوعاء » يغريان رواد البقطة الإسلامية بتحويل « الرمز » إلى « حقيقة فاعلة » . وملء « الوعاء » بما يصلح شأن المسلمين ويحدد شباب حضارة الإسلام ..

فلا الومضات التي ظلت تبعث الضوء في أماكن متفرقة ومبادئ متناثرة من عالم الإسلام .

ولا القوة المضارية للدولة العثمانية .. قد استطاعت الحيلولة بين التراجع الحضاري وبين النهاية المأساوية التي انتهت إليها الأمور .. وصدق جمال الدين

(٢٣) انظر كتابنا (فجر البقطة القومية) ص ٢٨٧-٢٨٩ طبع بيروت سنة ١٩٨١ م

الأفعالي عندما أشار إلى أن « المقدمات » قد بلغت من القوة حدا جعل السقوط حتماً وقدرًا مقدورا .. فلقد قال :

« إن مبدأ تدهور ممالك المسلمين في الشرق كان من شاهق عظيم . ولا يمكن للحكيم الوقوف في سبيل سقوطه وهو في وسط الانحدار ، أو بقرينه من نقطة المركز .

ذلك الشاهق العظيم . شاهق حكمة الدين ١٢ . وإذا كان الخطاط الأمم مرضا . وله سير معلوم ، فيتعذر على الطبيب الحاذق توقيف السير . بل غاية ما يمكنه : الإتيان بالملطافات والمسكنات ، حتى ينتهي السير . ويبل العليل . ويدخل في دور النقاهة . نعم .. لو استقلت قدرة البشر بالتأثير . ما الخط رفيع . ولا ضعف قوى . ولا انهدم مجد ، ولا تقوض سلطان . (١٣) ١٤

اليقظة الإسلامية

١ - البدايات .. والتحديات

لكن .. ما كان لهذا الواقع - رغم يؤسه وقسوته - أن يصيب حضارتنا العربية الإسلامية بالموت - بل إن المرء ليردد كثيرا في وصف ما أصاب هذه الحضارة ، يومئذ ، بمصطلح « الانحطاط » !

فحيوية الإسلام ، ومكانته في عقل الأمة وضميرها ووجداتها ، كانت دائما وأبدا قوة دفع وضاقة مقاومة لما تراكم على فعالياته من قيود وشوائب ويدع وخرافات .. وكون هذا الإسلام ديننا ودنيا ، عقيدة وشرعية ، عبادات ودولة ، شعائر ونمط سلوكيا في الحياة ، علوم وحجى وشرعية تطبع علوم الدنيا والحضارة بطابع الإيمان .. لذلك كله كان لا بد لهذا الدين من أن يستنفر « عقل الأمة » لمقاومة التخلف والتراجع الحضارى . بالاجتهاد والتجديد .. وبالجهد لوضع هذه الاجتهادات في الممارسة والتطبيق ..

ثم ، إن أمة صنعت بالإسلام ما صنعت من فتوحات باهرة ، على كل الجبهات ، وفي مختلف الميادين ، في الحرب .. وإقامة الدولة .. وبناء الحضارة .. وتراثها في ذلك حى ، جمعه ويؤيه ونظمه أعلام التأليف والتصنيف الموسوعى ، في عصر نوقف الخلق والإضافة والإبداع . إن أمة قام بين ظهرانيها وأمام عقورها صرح هذا التراث الحضارى . كان ولا بد لعقلها أن يتحرك لمواصلة النهوض برسالة الأسلاف ...

وجهود المؤرخين العظام : ابن خلدون [٧٣٢ - ٨٠٨ هـ - ١٣٣٢ -

١٤٠٦ م] والثقلشندى [٧٥٦ - ٨٢١ هـ ١٣٥٥ - ١٤١٨ م].. وثقى الدين المقرئى [٧٦٦ - ٨٤٥ هـ ١٣٦٥ - ١٤٤١ م].. وبدر الدين العيني [٧٦٢ - ٨٥٥ هـ ١٣٦١ - ١٤٥١ م].. وابن تغرى بردى [٨١٣ - ٨٧٤ هـ ١٤١٠ - ١٤٧٠ م] وابن إياس [٨٥٢ - ٩٣٠ هـ ١٤٤٨ - ١٥٢٤ م].. كان لابد وأن تحفظ للأمة ذاكرتها الحضارية . التى تستغفرها للاجتهاد والجهاد حتى تتجاوز السقطة وتنهض من الوعدة التى أوقعها فيها دول العسكر الترك المالك .

ولقد كان معدن الأمة . هو الآخر . عاملا إيجابيا يدفع التطور فى اتجاه اليقظة والمقاومة لهذا التخلف والتراجع والجمود . فى كل المنعطفات التاريخية . وأمام التحديات الكبرى التى هددت كيان الأمة وتميزها عبر مسيرتها التاريخية والحضارية المليئة بالتحديات ، كانت دائما وأبدا تمتلك الإجابة الإيجابية والحركة الفاعلة تجاه ما يفرض عليها من تحديات ... فأمام الحصار « البيزنطى - الفارسى » ، ومحاولات الاحتواء . نهضت بالفتوحات الإسلامية . فامتلكت زمام قيادة الشرق ، وحررت من القهر البيزنطى - الفارسى العتيق . وأمام التحدى الفكرى للمذاهب الغربية . « هيلينية » و« غنوصية » و« لاهوتيا مسيحيا » تحول عن أصوله الشرقية إلى نسق فكرى ملىء بالتأثيرات اليونانية . أمام هذا التحدى ، المسلح بفلسفة اليونان وعقلانيته . صاغت الأمة عقلانيته الإسلامية . وفلسفتها المتميزة . فشرت إسلامها وأبدعت حضارتها . منتصرة على هذه التحديات . وأمام جحافل الدمار الصليبي والتترى . أقامت الأمة نظام فروميتها - الذى جاء - لأسباب أشرفنا إليها - تركيا مملوكيا - فكسرت به شوكة أطول وأبشع حملات الغزو والابادة التى شهدتها ذلك التاريخ .

واستمرارا لهذا التاريخ ، وإعمالا لذات القانون الذى حكم تاريخ الأمة ومواقفها إزاء التحديات العظمى . اختلج عقل الأمة ووجداتها فقدم . من ترسانة مقاومتها ومخزون طاقاتها . صور المقاومة للتخلف والتراجع والجمود الحضارى ... وكان ذلك فى صورة الجهود الفكرية والعملية التى تمثلت فى أعلام الاجتهاد والتجديد ...

ذلك هو السلاح الذى امتشقتة الأمة لتقاوم به عوامل التخلف والتراجع والجمود فرسول هذه الأمة ، عليه الصلاة والسلام . قد علمها أن المنظومات الفكرية . ديناً كانت أو حضارة ، إذا أصابها التطور بما يقلل من فعاليتها ، بالبدع والخرافات والتخلف والجمود ، فإن التجديد هو السبيل لليقظة والنهوض من جديد لمواصلة الطريق . فهو المقاتل : « يبعث الله هذه الأمة على رأس كل مائة عام من يجدد لها دينها » (١) .

وإذا كان حديث الاجتهاد والتجديد . والأعلام الذين ساروا على دربه يحاولون مقاومة عوامل التخلف ومظاهره . سعياً إلى إيقاظ الأمة وبعث نهضتها من جديد ... إذا كان هذا الحديث من المراء بحيث يحتاج إلى عمل مفرد وجهد مستقل وكبير .. فإننا نكتفى . فى هذا المقام - بتبديد الوهم شائع بحسب أصحابه أن الظلام كان تاماً ، والاستسلام كان عاماً - نكتفى بذكر أسماء كوكبة من العلماء والأعلام . الذين تميزت إبداعاتهم الفكرية بموضات تجديدية . مثلت عوامل مقاومة لما شاع فى ذلك العصر من تخلف وتراجع وجمود ...

فمن سلطان العلماء . العزيز عبد السلام | ٥٧٧ - ٦٦٠ هـ

(١) رواه أبو داود

١١٨١-١٢٦٢ م] وتلميذه الفذ . الإمام القرافي . أبو العباس أحمد بن
 إدريس [٦٨٤ هـ - ١٢٨٥] وحتى عصرنا الراهن امتدت وتناثرت جهود
 العلماء الجاهدين من مثل : ابن الوزير . محمد بن إبراهيم الوزير
 [٧٧٥ - ٨٤١ هـ - ١٣٧٣ - ١٤٣٦ م] . والمقبلي . الخفي . صالح بن مهدي
 [١٠٤٧ - ١١٠٨ هـ - ١٦٣٧ - ١٦٩٦ م] .. وولي الله الدهلوي [١١٠ -
 ١١٧٦ هـ - ١٦٩٩ - ١٧٦٢ م] .. ومرتضى الزبيدي [١١٤٥ - ١٢٠٥ هـ
 - ١٧٣٢ - ١٧٩٠ م] .. وصالح بن محمد بن نوح الفلاكي [١١٦٦ -
 ١٢١٨ هـ - ١٧٥٣ - ١٨٠٣ م] .. وعثمان دان فوديو (الفودي)
 [١١٦٨ - ١٢٣٢ هـ - ١٧٥٥ - ١٨١٧ م] .. وعمر مكرم [١١٦٨ -
 ١٢٣٧ هـ - ١٧٥٥ - ١٨٢٢ م] .. ومحمد بن علي الشوكاني [١١٧٣ -
 ١٢٥٠ هـ - ١٧٦٠ - ١٨٣٤ م] .. وحسن الخطار [١١٩٠ - ١٢٥٠ هـ
 - ١٧٧٦ - ١٨٣٥ هـ] .. والشهاب الألويسي [١٢١٧ - ١٢٧٠ هـ - ٨٠٣ -
 ١٨٥٤ م] .. ومحمد بن علي السنوسي [١٢٠٢ - ١٢٧٦ هـ - ١٧٨٧ -
 ١٨٥٩ م] .. والحاج عمر (سيدوتل) [١٢١٢ - ١٢٨٠ هـ - ١٧٩٧ -
 ١٨٦٤ م] .. ورفاعة رافع الطهطاوي [١٢١٦ - ١٢٩٠ هـ - ١٨٠١ -
 ١٨٧٣ م] .. وعبد القادر الجزائري [١٢٢٢ - ١٣٠٠ هـ - ١٨٠٧ -
 ١٨٨٣ م] .. ومحمد أحمد (المهدي) [١٢٦٠ - ١٣٠٢ هـ - ١٨٤٤ -
 ١٨٨٥ م] .. ومحمد قدرى (باشا) [١٢٣٧ - ١٣٠٦ هـ - ١٨٢١ -
 ١٨٨٨ م] .. وأبو الطيب محمد صديق خاں [١٢٤٨ - ١٣٠٧ هـ - ١٨٣٢ -
 ١٨٨٩ م] .. وخير الدين التونسي [١٢٢٥ - ١٣٠٨ هـ - ١٨١٠ -
 ١٨٩٠ م] .. وعبد الله النديم [١٢٦١ - ١٣١٤ هـ - ١٨٤٥ - ١٨٩٦ م] ..
 وجمال الدين الأفغاني [١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ - ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م] .. وعبد

الرحمن الكواكبي [١٢٧٠ - ١٣٢٠ هـ ١٨٥٤ - ١٩٠٢ م] . ومحمد عبده
 [١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م] .. ومصطفى كامل (باشا) [١٢٩١ -
 ١٣٢٦ هـ ١٨٧٤ - ١٩٠٨ م] .. وحسين بن محسن الأنصاري [١٣٢٧ هـ -
 ١٩٠٩ م] . وعبد الحميد الزهراوي [١٢٧٢ - ١٣٣٤ هـ ١٨٨٥ -
 ١٩١٦ م] . وعبد العزيز جاويز [١٢٩٣ - ١٣٤٧ هـ ١٨٧٦ -
 ١٩٢٩ م] . ومحمد رشيد رضا [١٢٨٢ - ١٣٥٤ هـ ١٨٦٥ - ١٩٣٥ م] .
 ومحمد إقبال [١٢٨٩ - ١٣٥٧ هـ ١٨٧٣ - ١٩٣٨ م] . وعبد الحميد بن
 باديس [١٣٠٥ - ١٣٥٩ هـ ١٨٨٧ - ١٩٤٠ م] . ومحمد مصطفى المراغي
 [١٢٩٨ - ١٣٦٤ هـ ١٨٨١ - ١٩٤٥ م] .. ومصطفى عبد الرازق [١٣٠٢ -
 ١٣٦٦ هـ ١٨٨٥ - ١٩٤٦ م] . وشكيب أرسلان [١٢٨٦ - ١٣٦٦ هـ
 ١٨٦٩ - ١٩٤٦ م] .. وحسن البنا [١٣٢٤ - ١٣٦٨ هـ ١٩٠٦ - ١٩٤٩ م] .
 ومحمد فريد وجدي [١٢٩٥ - ١٣٧٣ هـ ١٨٧٨ - ١٩٥٤ م] . وعبد
 الوهاب خلافت [١٣٧٥ هـ ١٩٥٦ م] . وعبد القادر المغربي [١٢٨٤ -
 ١٣٧٦ هـ ١٨٦٧ - ١٩٥٦ م] . ومحمد الخضر حسين [١٢٩٣ - ١٣٧٧ هـ
 ١٨٧٦ - ١٩٥٨ م] . ومحمود شلتوت [١٣١٠ - ١٣٨٣ هـ ١٨٩٣ -
 ١٩٦٣ م] .. ومحمد الفاضل بن عاشور [١٣٢٧ - ١٣٩٠ هـ ١٩٠٩ -
 ١٩٧٠ م] . ومالك بن نبي [١٣٢٣ - ١٣٩٣ هـ ١٩٠٥ - ١٩٧٣ م] .
 وعزالل الفاسي [١٣٩٤ هـ ١٩٧٤ م] . وأبو الأعلى المودودي [١٣٢١ -
 ١٣٩٩ هـ ١٩٠٣ - ١٩٧٩ م] . وعبد الجليل عيسى [١٣٠٥ - ١٤٠٠ هـ
 ١٨٨٨ - ١٩٨٠ م] .. ومحب الدين الخطيب [١٣٠٣ - ١٣٨٩ هـ ١٨٨٦ -
 ١٩٦٩ م] . ومحمد أبو زهرة [١٣١٦ - ١٣٩٤ هـ ١٨٩٨ - ١٩٧٤ م] .
 وعلى الحقييف ... الخ .. الخ ..

إنهم أمثلة - مجرد أمثلة - لأعلام شهدت جهودهم في الفكر والممارسة أن
تخلقنا الحضارى ، على قسوته وبشاعته ، لم يصل بحضارتنا إلى حد
«الموت» .. فلقد كانت روح المقاومة دائمة الفعل ، تجاهد لايقاظ الأمة
وانهاضها وبعث حضارتها من جديد ..

ونحن نلاحظ أن سمات التجديد والاجتهاد لم تكتمل دائما لدى كل مجتهد
ومجدد من هؤلاء المجتهدين المجددين .. فكثيرون منهم كانت تجديداتهم في
ميدان دون ميدان أو ميادين .. كما نلاحظ أن توجهاتهم التجديدية لم تكن
متطابقة في كثير من الأحيان وعديد من المجالات .. وهذه الحقيقة تضع يدنا على
أمور هامة ، منها :

١ - أن تغاير الزمان والمكان وتنوع التحديات لابد وأن يترك بصماته على
فكر المفكر واجتهاد المجتهد .. وأن مراعاة هذه الحقيقة شرط للتقييم الموضوعي
لإضافات أى من هؤلاء المفكرين ..

٢ - وأن تنوع ميادين التجديد والإبداع وتغايرها عند الواحد منهم
بالمقارنة مع غيره ، توجب علينا احتضان تراثهم جميعا ، لنستخلص من كل
عناصر التجديد والإبداع ، فبدلك نبلغ أقصى درجات الاستفادة ، وننجو
من نهج التعصب لمفكر بعينه أو مذهب بذاته . ذلك النهج الذى يفرض علينا
ضم الغث إلى الرقيق ، وخطئ السليبيات والجمود . لدى هذا المفكر ، بما قدم
من إيجابيات وتجديد ... فهم جزء متميز من تراثنا ، وعلينا أن نختصهم
جميعا - مع نظرائهم - لنستخلص ما يركب في واقعنا الراهن توجهات وعوامل
الاجتهاد والنهضة واليقظة والتجديد ..

٣ - إن تعدد الرؤى والمناهج لدى كثير من هؤلاء الأعلام تضع يدنا على

محة من السمات الهامة التي تتميز بها حضارتنا .. وهي محة «التعددية» في ميادين «الاجتهاد» .. فأصول الإسلام وعقائده وأركانه وغيبياته وشعائره عباداته .. هي جميعا مما اتفق المسلمون عليها ، فتلقيها جميعا بمجمعين عليها ومجتمعين ، حتى لقد قال خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز : «إن هذه الأمة لم تختلف في الدين» .. أما الفروع ، والسبل والوسائل والأدوات والمناهج ، وشئون الدنيا المتعلقة بسياسة الدولة وتنظيم المجتمع وتنمية العمران - أي الحضارة - التي هي إبداع بشري يحكم بمقاصد الشريعة الإلهية ، فإنها هي التي شهدت الاجتهاد ، والتعددية في هذا الاجتهاد ..

ومن الأمور التي استقر عليها أمر هذه الأمة أن اجتهاد المجتهد غير ملزم لغيره من المجتهدين .. وقصة الإمام مالك عندما رفض رغبة المنصور العباسي [٩٥-١٥٨ هـ - ٧١٤-٧٧٥ م] جعل كتابه [الموطأ] القانون الملزم للدولة والأمة ، شهيرة وذات دلالة في هذا الباب .. لقد رفض أن يكون اجتهاده ملزما لغيره من المجتهدين ... وهذه الحقيقة تفرض علينا ، ونحن نتوجه لإذكاء روح اليقظة في أمتنا ، احتضان عواملها أيما وجدناها في مختلف ميادين الإبداع لدى جميع المجتهدين والمجتهدين .. وأيضا تفرض علينا الإيمان بمشروعية التعددية في الرؤى والسبل والمناهج عند الأعلام والمفكرين والحجرات الساعية إلى هذه النهضة ، والعاملة في ميادينها .. فإذا كان الإسلام هو فكرية - «أيدولوجية» - الأمة .. وإذا كانت هذه الأمة قد اتفقت وتفق على أصوله وأركانه وعقائده وغيبياته كما جاءت في السمعية ، فإن قضية الحضارة العربية الإسلامية ، سياسة واجتماعا واقتصادا وعمرانا وعلوما إنسانية ، هي مما تعدد فيها الرؤى وتمايز فيها الاتجاهات بتعدد وتمايز جماهير الأمة ومفكرها إزاء هذه المعضلات .. فالتعددية ، إذن ، في الدعوات

والاجتهاد والحركات والجماعات العاملة في ميدان الإحياء الإسلامى واليقظة الإسلامية هي ظاهرة طبيعية ، بل وصحية . أما الذين يتصورون الوحدةانية والافتقار بالنجاة في هذا الميدان لفرقة بذاتها وجماعة بعينها . قائلين إن من عداها هم في النار . فإنهم يخلطون بين « عقائد » الإسلام و« حضارة » الإسلام ؟! . في عقائد الإسلام وأصوله وأركانه . لا تعددية . بل ولا رأى ولا اجتهاد . وفي هذا الميدان . نعم النجاة للفرقة « المتبعة » دون « المتدعين » . الذين مآلهم جميعا إلى النار . أما في ميدان « الحضارة » فإن الاجتهاد ، ومن ثم التعددية ، هما السبيل الطبيعية . بل الواجبة لتنمية « الإبداع » الذى هو السبيل إلى بناء الحضارة ، وإلى تجديدها ونهضة أممتها .

بهذه الروح . . . وفي ضوء هذه الحقيقة ، يجب أن ننظر إلى نماذج اجتهادات الأئمة المجتهدين . وإلى التعددية في مجال الدعوات والحركات والجماعات الساعية إلى البعث الحضارى لأمة الإسلام .

٤ - لابد أن نتنبه ، ونحن ننظر في فكر اليقظة الإسلامية واهتمامات دعائها وحركاتها ، إلى أن الهجمة الاستعمارية الغربية الحديثة قد أحدثت إضافات وتحولات في اهتمام أعلام هذه اليقظة وحركاتها فقبل هذه الهجمة . كانت جهود الاجتهاد والتجديد منصبة على إنجاز مهمة محددة ، هي كسر قيود الجمود . والبعث الحضارى الذى يتبع للأمة نفق غبار التخلف عن عقلها وطاقتها كي تواصل مسيرتها الحضارية من جديد وعندما بدأت الهجمة الاستعمارية الغربية الحديثة بحملة بونايرت على مصر وأواخر القرن الثامن عشر الميلادى . وعلى امتداد القرن التاسع عشر . وضعت حركة اليقظة الإسلامية في مقدمة مهامها . إلى جانب محاربة الجمود بالاجتهاد والتجديد - مهمة التصدى للزحف الاستعمارى

الغربي على بلاد الإسلام . . . ولقد ظل الحال كذلك حتى سقوط الخلافة العثمانية
 أوائل العقد الثالث من هذا القرن العشرين ، عندما نجح الغرب الاستعماري في
 احتلال مجمل عالم الإسلام ، وفرض عليه التبعية السياسية والعسكرية
 والاقتصادية ، وأحرز - أيضا - قدرا كبيرا من النجاح في فرض التبعية الفكرية
 على بلادنا ، بأدواته المباشرة ، وهـ بالنخبة ، وهـ الصفوة ، التي صنعها على
 عينه ، وضرب عقولها وفق مناهج حضارته وصاغ توجهاتها وأذواقها وفق فلسفة
 الحضارة الغربية . . . هنا ، وعند هذه المرحلة من مراحل المواجهة بين دعوات
 وحركات اليقظة الإسلامية وبين التحديات التاريخية المانعة لنهضة الأمة ، بدأ
 تركيز رواد اليقظة ومفكروها وحركاتها على محاربة آثار ومظاهر «التغريب» في
 عقول الأمة وواقعها . . .

وهذه الحقيقة ، تستدعي منا - قبل الإشارة إلى أبرز دعوات اليقظة
 الإسلامية وحركاتها - إشارات إلى ما يعنيه «التغريب» . . .



التغريب :

لقد جاء الغرب إلى بلادنا ، في غزواته الاستعمارية الخديئة ، وقد وعى
 دروس غزواته الصليبية في العصور الوسطى . . . فلقد كان في الغزوة الصليبية
 مجردا من الفكر والحضارة ، ليس لديه ما يغري أهل البلاد التي سيطر عليها
 فرسانه الصليبيون ، الذين كانوا كما قال الفارسي المؤرخ أسامة بن منقذ
 [٤٨٨ - ٥٨٤ هـ ١٠٩٥ - ١١٨٨ م] : كانوا «بهائم» ليس لديهم سوى
 «فضيلة» القتال . . . فلما استفزت فروسيته الممجيّة فروسيتها الإسلامية ،
 واندحرت غزواتهم واستسلمت حصونهم لم يخلفوا وراءهم - بعد قرن من

الرومان - أى أثر فى عقل الأمة الإسلامية يجرى بالافتداء والاستلهاهم والتقليد .. فكان جلاء قوات الغزو إنجازا كاملا للاستقلال الوطنى الكامل ..

جاء الغرب فى غزواته الحديثة وهو على وعى كامل بهذا الدرس .. وكان عازما على أن يلحق عالم الإسلام بالمركز الغربى إحقاقا مؤيدا ، فخطط - منذ البدء - لتلافى مصيره فى غزوته الصليبية .. فالاحتلال العسكرى لابد أن يستنز الحس الوطنى فيجلبه .. والنهب الاقتصادى لابد وأن يستنز المصالح القومية فتستزع الأمة ثرواتها من مغامريه وشركائه .. والأيدى العاملة الرخيصة التى تعتمد احتكاراته جهودها لابد وأن يوقظ الاستغلال حسها الطبقي فتثور على هذا الاستغلال .. إذن .. كيف السبيل لتأييد تبعية عالمنا الإسلامى للغرب وحضارته ١٩ ..

لقد فكروا - وهم يبيتون لغزوتهم الحديثة - فى هذا الأمر .. وكانت روح الاستعلاء والعدوان ، المميزة لحضارتهم الغربية قد جعلتهم مؤمنين بأن إلحافنا بهم إنما يمثل « رسالة الرجل الأبيض » ! .. فالحضارة الغربية - بزعمهم - هى الحضارة الإنسانية الوحيدة ، بدأت باليونان ، وانتهت بنهضة الغرب فى العصر الحديث .. وما العرب المسلمون إلا نقلة لموارث اليونان خلال غفوة الغرب فى عصره الوسيط .. وفلسفة هذه الحضارة صاغها تشارلز داروين Darwin

[١٨٠٩-١٨٨٢ م] فى قانون : البقاء للأصلح ، والأصلح هو الأقوى فإذا ما خرج الرجل الأبيض غازيا - وهو الأقوى - فإن هذا « القانون » يدعو إلى أن يمسح وينسخ الموارث الحضارية للأمم والبلاد التى تسقط فى قبضته ، وأن يلحقها بمركز الأرض ومصدر حضارتها الوحيدة فى الغرب ! .. فنلك « رسالة » ينهض فيها الرجل الأبيض بتطبيق « القانون » العلمى ١٩ .. ولذلك ، فإن الهدف من هذه الغزوة لا يقف ، فقط ، عند احتلال الأرض ونهب الثروة واستغلال

الإنسان ، وإنما يتجاوز ذلك - لكي يؤيد ويؤيد كل ذلك - إلى احتلال العقل ، حتى نقتل التبعية - تبعيتنا - للمركز الغربي قائمة دون جيوش احتلال ، لأنها ستكون - أى التبعية - مذهبنا نحن ، ومطلبنا نحن التابعين ... وعلى هذا الدرب بدأت جهود الغرب الاستعماري فيها تسميه بـ «التغريب» ، أى إلحاق الشرق بالغرب ، باحتلال عقله ، وشده إلى المركز الغربي بحيث من التبعية الفكرية ، نحن وناعم ولذيذ ١٢ ..

لقد بدأ فأطلق على بلادنا أسماء ، فقبلناها ، دون أن نقطن إلى أنها «طعم» و«طعام» يؤدي تناوله إلى ترسيخ فكرة: أن الغرب هو «المركز» وماعدها فهو «الخامش» - التابع - . فـ «الشرق الأدنى» هو كذلك لأنه الأدنى من المركز الغربي ... وكذلك ... «الأوسط» و «الأقصى» ١٣ .. إنه هو «وحدة القياس» ١٤ ... ثم مضى على هذا الدرب حتى غدت مفاهيمه وتجاربه ومذاهبه ، بل و«ثقافته» ، هي أول مايقفز إلى ذهن «التخبة» و«الصفوة» التي تغربت ، كمعايير ووحدات قياس ، عندما يذكر أمر من الأمور ، فليبرالية هي النموذج للبرابرة ، وشموليت هي النموذج للشموليين منا ... ومذاهبه الأدبية والفنية هي الغاية والنموذج ... وفلسفته هي الفلسفة ... والروح المادية الحاكمة لعلومه الإنسانية ، هي التي سرت في دراساتها هذه العلوم الإنسانية ... وكل ما هو غربي فهو المتحضر ، وما عداه رجعية وتعصب وتخلف متلكي في مجرى تطور التاريخ ١٥ ..

وعلى درب «التغريب» هذا ، وفي ميادينه يستطيع الباحث أن يرصد الكثير من المعالم والشواهد التي مثلت ، ولا تزال ، «جهودا» و«معارك» و«أفكارا» و«دعوات» حاول بها الغرب وعملاؤه والذين خدعوا بمقولاته أو اتدهشوا وانبهروا بزخرف دعاويه ، إغواء أمنا بالالتحاق بحضارته الغربية ، والتخلي عن

درب «التواصل الحضارى» الذى يجعل نهضتنا المأمولة الامتداد المتطور
لحضارتنا المتميزة ..

● ف « بالتبشير » خلق للمذاهب الدينية ركائز وكنائس فى بلادنا ، انترعت
أرضنا التحقت بمراكز اللاهوت فى بلاده .. وكان ذلك على حساب إسلامنا
حيناً ، وعلى حساب كنائسنا الوطنية الشرقية فى أغلب الأحيان ؟

● وه « بالاستشراق » الذى ارتاد أعلامه مبادئ تحقيق مخطوطات تراثنا
والكتابة عن مذاهبنا وفرقنا ومجتمعاتنا .. سلط الضوء على كل ما يؤدى إلى
ضعفنا ونشرذمنا ، لتسهيل التبعية ويتيسر الإلحاق .. فتوجهت جهود كثير من
الدراسات الاستشرقية لتسليط الأضواء على الفرق الشاذة ، والأقليات
النافرة ، والمذاهب الدخيلة ، تعطيها أكثر من حقها ، وتضئ عليها جمالا
لا تملكه .. وبث أغلب هذه الدراسات فى عقول قرائها أن أسلافنا لم يكونوا
غير نقلة وحفظة لتراث اليونان ، ليتولد فى هذه العقول اقتناع باستحالة إبداعنا
لمستقبل متميز ومهضة مستقلة . طامنا أن التميز والاستقلال ليسا أكثر من خرافة
حتى فى تاريخنا الحضارى وتراثنا الذى نفخر به ونتبه 19 .. وحتى الدراسات
التي لم تقل ذلك ولم تقصد إليه جعلت معاييرها فى تقييم تراثنا معايير غربية ،
فأمسهمت ، هى الأخرى ، فى تكريس روح التغريب فى ثقافتنا المعاصرة 20 ..

● وانطلاقاً من « المعايير الغربية » ، التي جعلت حضارة الغرب ، وتطوره
التاريخي « وحدة القياس » فى كل شئ ، شهدت ساحات الفكر فى بلادنا
تحت هيمنة الاستعمار ودعاة التغريب - الكثير من الدعوات التي قامت حولها
المعارك الفكرية ...

فالمستشرقون يدرسون « مقدساتنا » كتاريخ بشرى ، لا قداسة له .. وفى هذه

الدراسات غير الخطأ والجهل والمغالطات ، غمز ولمز كثير . وعلى هذا الدرب سار منا نفر ، تناولوا بعضا من مقدساتنا بنفس الروح وذات المعايير ! .

واللاتينية عندهم قد أخذت المكان للغات القومية . فرأيانهم يدعون إلى دفن العربية ، وإحلال العاميات المحلية مكانها . متجاهلين الفروق الموضوعية التي تميزنا عنهم في هذا الميدان . فنحن أمة واحدة ، أما هم فقوميات وأمم عدة . وأن العربية ، فضلا عن أنها رباط الوحدة القومية للأمة الواحدة ، فهي لسان «الإسلام-الدين» . ولم تكن كذلك لا تبليتهم في علاقتها بالمسيحية . والذين دعوا إلى ذلك ، لفصور زعموه في وفاء العربية بمتطلبات النهضة العلمية الحديثة . لم يقولوا لنا : وكيف استطاعت العربية يوما أن تكون لسان العلم العالمي ؟ . ولم يقولوا أيضا - هل مشيخص بهذه المهمة - خيرا من العربية - العاميات المحلية ؟! . لم يقولوا شيئا من ذلك . فلقد كان الهدف واضحا : إزاحة العربية لمصلحة اللغات الغربية الوافدة !^{١٢} . واستخدام التعددية في اللهجات العامية . لتتفصم عروة وثقى من عرى وحدة الأمة . وفوق ذلك ، وقبله ، جعل العلاقة منبئة بين حاضرتنا ومستقبلنا وبين تراثنا الحضارى ، المكتوب بالعربية . وذلك حتى لا يكون هذا الحاضر والمستقبل الامتداد لماضى الأمة الحضارى . وإنما الطامش التابع للمركز الغربى وحضارته الغربية ! ... فلما فشلت هذه المعركة ، خاضوا أخرى دعوا فيها إلى الإبقاء على العربية مع كتابتها بالحرف اللاتينى . لتغرب الأمة وتغرب عن دينها وتراثها تحقيقا لذات الأهداف المبتغاة من «التغريب» ! .

● وحتى يومنا بأن «تقدما» لا بد وأن يكون «تحديثا» على النمط الغربى ، وأن خيارنا فى الخلاص من مشكلاتنا لا بد وأن يكون «خيارا» غربيا ،

ذهبوا يوهوننا بوحدة نمط التطور في تاريخنا وتاريخهم . منطلقين من الاستعلاء
الذى يريد أن يفرض على الأمم والشعوب «النمط الغربى» . لا للمستقبل
فقط ، وإنما للماضى وتطوره الحضارى أيضا !..

فكما كانت علاقة دينهم بدولتهم «كهانة» وه «ثيوقراطية» وه تفويضاً إلهياً
و«حكماً بالحق الإلهى» . زعموا أن إسلامنا كان كذلك ، وأنه قد جعل خلافتنا
الإسلامية حكماً مطلقاً ، الخليفة فيه يستمد سلطانه من الله ، لا من الأمة .
وولايته على دين الناس وديانهم عامة ومطلقة كولاية الله . سبحانه ، ورسوله
- صلى الله عليه وسلم - على الناس ..

ولما كانت مسيحيتهم قد طلبت أن يدع الناس ما لقبصر لقيصر وما لله لله .
لأنها رسالة روحية مهمتها خلاص الروح وتنظيم مملكة السماء ، ولا مدخل لها
في سياسة الدولة وتنظيم المجتمع وتنمية العمران المدنى . فلقد حاولوا تصوير
إسلامنا مسيحية ، ليجردوه من جوانبه المدنية ، فزعموا «أن محمدا - صلى الله
عليه وسلم - ما كان إلا رسولا لدعوة دينية خالصة للدين ، لا تشوبها نزعة
ملك ، ولا دعوة لدولة ، وأنه لم يكن للنبي - صلى الله عليه وسلم - ملك ولا
حكومة ، وإنه - صلى الله عليه وسلم - لم يقم بتأسيس مملكة ، بالغنى الذى
يفهم سياسة من هذه الكلمة ومرادفاتها . ما كان إلا رسولا كإخوانه الخائين من
الرسول ، وما كان ملكا ولا مؤسس دولة ، ولا داعيا إلى ملك ..» (٢) !

وهم بذلك لا ينكرون حقائق التاريخ وحدها ، بل ويتكبرون لحقيقة التمايز
بين الحضارات والأمم في أنماط التطور ... فإذا كانت هيمنة الكنيسة على الدول
والاجتماعات الغربية قد أصابها بالجمود والجهل والتخلف في كل الميادين ، فإن

(٢) عل عبد الرازق [الإسلام وأصول الحكم] ص ٦٤ ، ٦٥ طبعة القاهرة سنة ١٩٢٥ م .

احتكام أمتنا إلى شريعتها هو الذى أثمر أزهى عصور ازدهارنا الحضارى . وقد استنارتنا وعقلانيتنا .. ولم تدخل أمتنا - كما سبقت إشاراتنا - إلى طور التراجع والتخلف والجمود إلا عندما أزاحت دول العسكر المالىك الصبغة الإسلامية عن قطاعات من الواقع وعن القانون الذى ينظم حركة هذا الواقع !..

ولما كانوا قد حلوا مشكل استبداد كنيتهم بدولتهم وفق «المعيار الانجليي» :
دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله : فلقد أرادوا أن تكون «علمانيتهم» ، التى تفصل «الدين» عن «الدولة» ، هى النهج الذى يحكم علاقة الإسلام بالنسبة فى بلادنا . فارتبط تزايد نفوذهم الاستعماري بين ظهرائنا باستبدال قانونهم - المعبر عن فلسفة حضارتهم - بفقہ المعاملات الإسلامی . الذى هو القانون الطبیعی للأمة الإسلامية ، المتسق مع عقيدتها ، والمحقق لقاصد شريعتها ، والذى نكن له الاحترام ..

● وعلى عكس مفهوم حضارتنا «لأمة» - وهو المفهوم الذى يرى من عصبية العرق - حتى لقد وفق وجمع وألف بين الولاء للدوائر «الوطنية» و«القومية» و«الإسلامية» ، دونما تعارض أو تناقض .. على عكس هذا المفهوم ، رأيناهم يزعمون فى واقعنا الفكرى والسياسى «المفاهيم القومية» للحضارة الغربية ، فقامت ، تبعاً لها ، فى عقول البعض وتوجهاتهم وبرامج أحزابهم التناقضات بين هذه الدوائر ، ورأينا من يقف عند الدائرة «الوطنية» دون «القومية» ، ومن يهمل ، بل وينكر الدائرة «الوطنية» و«الإسلامية» معا . مانحاً ولاءه فقط للدائرة «القومية» ، لأن المفاهيم والمعايير الغربية لهذه المصطلحات وتطبيقات تلك المفاهيم قد صنعت ذلك فى التطور القومى لأهم الحضارة الغربية ١٩ ..

● نعم .. لقد نجح الغرب الاستعماري ، مستخدماً سلطانه السياسى

والعسكري والاقتصادي ، ومستفيدا من هيمنته الاستعمارية على مبادئ التأثير
الفكري وأدواتها في بلادنا ، ومستندا إلى الإنجازات الرائعة التي حققها نهضته
الحضارية الحديثة . نجح في خلق « نخبة » و « صفوة » متغربة من أبناء أمتنا ،
أغلبها سلك هذا السبيل عندما انهر بروعة الحضارة الغربية وهو يقارنها بتخلفنا
الموروث عن نظم وأحقاب دول العسكر الترك والماليك ، ظاننا أن هذا
« الميراث » هو حقيقة الإسلام وحضارته ، فاعتقد - « مخطئا - ومخلصا »^(٣) - أن
السبيل إلى التقدم ، وإلى مغالبة الغرب ، والانعتاق من قيوده الاستعمارية ، هو
في استعارة الحضارة الغربية بتجربتها ومرها ، بتجربتها وشرها ، فدعا إلى أن نكون
غربا ، نصيب كما يصيبون ، ونخطئ كما يخطئون .. وحتى يدعم من منطلقات
هذه الدعوى ، ويجمع لها المبررات ، ذهب ليوهم الأمة أنها والغرب يجمعها
جامع حضارى واحد هو حضارة البحر المتوسط ، وأن هذا الجامع هو أكثر
الجوامع الحضارية أصالة ومثانة وجدوى في تاريخنا ، وأن غيره من التأثيرات
الحضارية - إفريقية - أو آسيوية (إسلامية) - إنما هي عابرة ومسطحية
وموقوفة^(٤) ! ..

وإنصافا للحقيقة ، ولهذا الفريق من « النخبة » و « الصفوة » المتغربة ، فإن
الكثير من أعلام هذا الفريق ، قد عاد - بعد مرحلة الانهيار - فراجع موقفه ،
وانحاز إلى الخيار العربي الإسلامى . ومنهم من انتقد مرحلة « تغربه
الفكرى »^(٥) . ومنهم من أشار لذلك ، عمليا ، بالاهتمامات التي ركز عليها في
إنتاجه الفكرى الجديد ..

(٣) نموذج لذلك : د طه حسين في كتابه [مستقبل الثقافة في مصر] طبعة القاهرة سنة ١٩٣٧ م

(٤) انظر ما كتبه عن موقف الدكتور محمد حسين هيكل [١٣٠٥ - ١٣٧٥ هـ - ١٨٨٨ - ١٩٥٦ م] في

كتابه [العولمة ونهضة الحديثة] ص ١٦٥ - ١٧٣ ، طبعة القاهرة سنة ١٩٨٦ م

لكن فريفا آخر من الذين تغربوا لم يكن دافعهم إلى تبني هذا «الخيار» والدعوة إليه «خطأ المخلصين» المنهين بالحصارة الغربية . والساعين إلى إيهاض الأمة كي تتحرر من هيمنة استعمارها . وإنما كان دافعهم الكراهة للإسلام . والرغبة في إزاحة نطفة الحضاري عن النهضة المنشودة . فكان النموذج الغربي في الحضارة هو البديل . الذي ليس لديهم سواه . كي لا تضطجع نهضتنا بالإسلام الذي يكرهون ؟ !

وهذا الفريق من المتغربين هو الذي تكون من عدد من المسيحيين الشوام . الفارين من تسلط الدولة العثمانية . فتلور تيارهم المتغرب على أعتاب دار المعتمد البريطاني في مصر . ثم جعلوا من صحيفة «المقطم» [١٨٨٩-١٩٥٢ م] مدرسة هذا اللون من فكرة التغريب ... ولقد نحا نحوهم . وسار على دربهم نفر ضئيل من أبناء الوطن . حمل للإسلام العداء الذي يعملون . وكان سلامة موسى [١٨٨٨-١٩٥٨ م] الصوت العالي لهذا الفريق .. فهو القائل : «إنه إذا كانت الرابطة الشرقية سخافة . لأنها تقوم على أصل كاذب . فإن الرابطة الدينية وقاحة . إننا أبناء القرن العشرين أكبر من أن نعتمد على الدين جامعة تربطنا .. ونحن في حاجة إلى ثقافة حرة أبعد ما تكون عن الأدبان . وحكومة ديمقراطية برلمانية . كما هي في أوروبا . وأن يعاقب كل من يحاول أن يجعلها مثل حكومة هارون الرشيد أو المأمون . أوتوقراطية دينية ... وكلما ازدادت خبرة وتجربة وثقافة توضحت أمامي أغراضى .. يجب علينا أن نخرج من آسيا^(٥) . وأن نلتحق بأوروبا . فإني كلما زادت معرفتي بالشرق زادت كراهيتي له وشعوري بأنه غريب عني . وكلما زادت معرفتي بأوروبا زاد

(٥) الإشارة إلى الإسلام . القادم من آسيا ١٩

حيي لها وتعلق بها ، وزاد شعوري بأنها منى وأنا منها وهذا هو مذهبي الذي
أعمل له طول حياتي سرا وجهرا ، فأنا كافر بالشرق ، مؤمن
بالغرب ... (٦) « ١٩ » ..

هكذا أرادوا ، بالتغريب ، نقي « الإسلام - الحضارى » ، عندما أنكروا
التمايز الحضارى ، تاريخيا ، والتعددية الحضارية للأمم العريقة فى موارثها
الحضارية ، ومن ثم أنكروا التمايز فى سبل البقطة والنهضة الحديثة ، وأرادوا
بـ « الخيار الغربى » فى « التحديث » تأييد تبعية أمتنا العربية الإسلامية للمركز
الغربى والهيمنة الغربية ..

وهكذا وجدت دعوات البقطة الإسلامية وحركاتها وجماعاتها - منذ أواخر
القرن التاسع عشر - أن التحديات التى تواجهها والعقبات التى تواجهها - قد
أضيفت إليها مخاطر « التغريب » .. فكان عليها أن تبذل جهدا ملحوظا على
الجبهة الحضارية ، لصياغة مشروع حضارى عربى إسلامى ، يكون دليل
البقطة الإسلامية إلى النهضة المستقلة استقلالاً حقيقياً عن الحائث والشرائح التى
صنعها ويصنعها الاستعمار على جبهة « فكرة التغريب » ..

ومنذ تلك المرحلة أضيف هذا التحدى إلى المهام الأولى للبقطة الإسلامية :
مواجهة الجمود بالاجتهاد والتحديد ... والتصدى للغزوة الاستعمارية بالجهاد
والتحرير ! ..

(٦) سلامة موسى [اليوم والغد] طبعة القاهرة سنة ١٩٢٧ م (والنص مأخوذ من كتاب : د. محمد محمد
حسن [الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر] ج ٢ ص ٢١٢ - ٢١٥ طبعة القاهرة سنة
١٩٨٠ م]

اليقظة الإسلامية

٢- أبرز الدعوات .. والتيارات والجماعات

على امتداد تاريخ حركة اليقظة الإسلامية .. تعددت في إطارها الرؤى والسبل والمناهج والأساليب والأدوات .. وتعددت كذلك .. في هذا الإطار الرموز والجماعات ..

فعلاوة على الأعلام والعلماء المحددين .. وفضلا عن المؤسسات « الفكرية - التعليمية » - من مثل الأزهر ، ومن سار على دربه - والتي وإن حدثت من فاعليتها في « حركة » اليقظة علاقاتها وروابطها بـ « الدول » و « الحكومات » ، إلا أنها كانت ، في كثير من المراحل ، « ترسانات » الصباغة « تفكير » اليقظة والإعداد « لدعاتها » - ... علاوة على هؤلاء الأعلام وهذه المؤسسات كانت هناك الدعوات المنظمة .. والتيارات المتميزة .. والجماعات والجمعيات .. تلك التي اتخذت من « سلاح التنظيم » سبيلا لزيادة فعاليات « الأفكار والنظريات » ..

ولقد أثبتت هذه التجربة وخبرتها ، ولا تزال تثبت ، الأهمية العظمى « لسلاح التنظيم » في حركة اليقظة الإسلامية .. وفي الحركات الفكرية والعقائدية على وجه العموم ..

● فبغير « الجماعة » و « سلطة الدولة والإمارة » ما كان لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب [١١١٥ - ١٢٠٦ هـ ١٧٠٣ - ١٧٩٢ م] أن تصنع ما صنعت . بل ولا أن تبقى حية فاعلة بعد وفاة رائدها ..

● وبغير « الطريقة » السنوسية وه زواياها » ما كان لدعوة شيخها محمد بن علي السنوسي [١٢٠٢-١٢٧٦ هـ ١٧٨٧-١٨٥٩ م] أن تنهض بما نهضت به من إنجازات .. وكذلك الحال مع الدعوة « المهدية » في السودان .

● ولولا « الحزب الوطني الحر » . الذي أقامه جمال الدين الأفغاني [١٢٥٤-١٣١٤ هـ ١٨٣٨-١٨٩٧ م] بمصر في سبعينيات القرن التاسع عشر .. ثم « جمعية العروة الوثقى » . التي امتدت « عقودها » - فروعها - عبر أوطان المسلمين - وخاصة مصر واثنين - لما ترك الأفغاني البصمات الفاعلة والدائمة التي تركها في حركة البقطة الإسلامية . ولوقفت هذه التأثيرات عند النطاق الفكري لواحد من فلاسفة الإصلاح .

● وحسن البنا [١٣٢٤-١٣٦٨ هـ ١٩٠٦-١٩٤٩ م] ما نطق أنه قد بلغ في العلم قريبا من مرتبة الإمام محمد عبده [١٢٦٦-١٣٢٣ هـ ١٨٤٩-١٩٠٥ م] . ومع ذلك ، فلقد غدا أكثر أعلام البقطة الإسلامية فعالية وتأثيرا . بل لا نبالغ إذا قلنا إنه أبرز أعلامها في القرن الرابع عشر الهجري على الإطلاق . ومرجع ذلك إلى « التنظيم » الذي أسسه وهو في العام الثالث والعشرين من عمره ١٩ . والذي أحدث به ما أحدث . وأنتج بواسطته ما أنتج . وما تزال بصماته بارزة على امتداد العالم الإسلامي . حتى في صفوف الأجيال الجديدة التي تفرزها حركة البقطة الإسلامية المعاصرة . فلقد كان التنظيم . في دعونه . « الأداة » التي تمتد بالدعوة إلى الآفاق . وه الوعاء « الذي يجمع الطاقات خوفا من كل الآفاق » . لينظمها ويوجهها من جديد ! ولولا هذا التنظيم لكان البنا مجرد « داعية » دمى الخلق . و« واعظ » ذي سلطان ساحر للقلوب ! لكنه - بالتنظيم - صنع ما لم يصنعه العلماء والدعاة والوعاظ ، رغم استشهاده وهو في سن الشباب ! ..

فإذا كانت اليقظة الإسلامية قد بدأت بالاجتهادات التي أيدعها علماء
أعلام .. فإن واحدا من أبرز دروس مسيرتها هو ضرورة تجسد هذه الاجتهادات
- بالتنظيم - في الجامعات والمؤسسات البحثية والمناظر الفكرية والجماعات
والجمعيات ... ورحم الله عبد الرحمن الكواكبي [١٢٧٠-١٣٢٠ هـ
١٨٥٤-١٩٠٢ م] - مؤسس «جمعية أم القرى» - فلقد قال عن ميزة
الجمعيات المنظمة : «إنها تبقى بما لا يلقى به عمر الأفراد» (١) .

ولذلك ، كان ضروريا - عند هذا الحد من هذه الدراسة - أن نلقى بعض
المضوء على أبرز التيارات والدعوات والجماعات الناهضة برسالة اليقظة الإسلامية
في عصرنا الحديث .. وعلى وجه التحديد - وبإيجاز يفرضه المقام - :

- ١ - الوهابة .. في شبه الجزيرة العربية .
- ٢ - السنوسية .. في ليبيا وشمال إفريقيا .
- ٣ - المهديّة .. في السودان .
- ٤ - الجامعة الإسلامية .
- ٥ - جماعة الإخوان المسلمين .
- ٦ - الجماعة الإسلامية .. بالهند وباكستان .
- ٧ - تيار «الرفض» الجديد - (التيار الانقلابي) - .

وذلك حتى تكتمل معالم حركة اليقظة الإسلامية ، وما في ساحتها من رؤى
ومناهج وتيارات ...

(١) [الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي] ص ٢٤٣ دراسة وتحقيق د : محمد عمار طبعه بيروت

(١) الوهابية

في بيئة بدوية بسيطة ، هي « نجد » ، بشبه الجزيرة العربية ، ولد ونشأ محمد بن عبد الوهاب [١١١٥ - ١٢٠٦ هـ ١٧٠٣ - ١٧٩٢ م] ..

وكانت السيادة الإسمية والرمحية على موطنه لخلفاء آل عثمان . وكان ابن عبد الوهاب سليل أسرة من الفقهاء . أخذ عنهم علوم الدين . كما درس على علماء مكة والمدينة . وظهر نزوعه المبكر إلى النهج السلفي . الرفض لما طرأ على عقائد الإسلام وعباداته من بدع وخرافات وإضافات ..

لقد نظر ابن عبد الوهاب فوجد عامة الناس يتخذون الوسائل والوسائط شفعاء إلى الله ، بل ويتوجهون إليهم بالطلب والدعاء والاستغاثة في الملمات .. كما وجد البدع قد أصابت العبادات ، بالزيادة والنقصان .. فلما عرض صورة « إسلام العامة » هذا على حقيقة « إسلام السلف » وجد أن الإسلام الأول - إسلام السلف - قد أصبح « غريبا » ! .. فكان أن وجد نفسه في ذات الموقف الذي وقفه إمام السلفيين القدماء : الإمام أحمد بن حنبل [١٦٤ - ٢٤١ هـ ٧٨٠ - ٨٥٥ م] عندما دعا إلى العودة لإسلام شبه الجزيرة . الأول ، إسلام ما قبل عصر الفتوحات ، ذلك الذي يكفي الإنسان منه النصوص ، دونما حاجة إلى العقلانية الكلامية أو الفلسفية . وما أثمرت من « قياس » و « رأي » و « تأويل »^(١) ! .. وكانت بيئة « نجد » ، البسيطة ، أكثر ملاءمة للإسلام

(١) انظر الفصل الذي كتبناه عن « السلفية » بكتابنا : [تيارات الفكر الإسلامي] ص ١٢٥ - ١٦١

السلفي البسيط . فظواهر النصوص تنكفئ للإجابة على علامات استنهام إنسانها
البسيط . كما تنكفئ لتصحيح معتقداته وتصوراتهِ وإعادة عباداته إلى إطار
الإسلام الصحيح والبسيط

بدأ ابن عبد الوهاب بدعوة إلى إسلام السلف . ويشرح فكر ابن حنبل .
وابن تيمية [٦٦١ - ٧٢٨ هـ ١٢٦٣ - ١٣٢٨ م] وابن قيم الجوزية [٦٩١ -
٧٥١ هـ ١٢٩٢ - ١٣٥٠ م] ويركز على إصلاح « العقائد » وتقوم
« التصورات » وتصحيح « العبادات » . فحكم بالشرك ، الظاهر والباطن .
على المتوسلين إلى الله بالأولياء والصالحين والمشاهد والمزارات والرموز . بل رأى
أن شركهم هذا هو أعظم من شرك الجاهلية الأولى^(٢) . ورفض - كما صنع
أعلام السلفية الأولى - أن يحتكم لغير النصوص . فهاجم « القياس » . حتى لو
كان صحيحا . وأعرض عن « التأويل » في فهم النصوص وتفسيرها^(٣)
وأعلن أن « الرأي » لا وزن له بجانب النصوص^(٤) .

وكان طبعيا أن تصطدم هذه الدعوة السلفية فكرية العصور الوسطى .
تلك التي كان يرعاها خلفاء آل عثمان ! ..

ولم يقف أمر هذا التصادم عند الحدود الفكرية . فلقد كان ابن عبد
الوهاب أكثر من « شيخ » . وأعظم من « فقيه » . وأكبر من « داعية » .
ومن ثم فإنه لم يشأ أن يقف بدعوته عند رسائل يؤلفها أو مواعظ يلقيها أو مذهب
فقهي يشر به . أو حتى حلقة من الأتباع والمريدين . لقد أراد أن تكون

(٢) ابن عبد الوهاب : رسالة [هدية طيبة] - مطبوعة ضمن [مجموعة التوحيد] ص ١٥٦

(٣) المقصد السابق . رسالة [هذه مسائل الجاهلية] ص ٨٧

(٤) عبد الكريم الخطيب [الدعوة الوهابية] ص ١٢ . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٤ م

« لدعوته » « دولة » . تضمن لها التطبيق والانتشار والاستمرار . فالتدريج
 « بالسلطان » « مالا يزغ » بالقرآن « ١٢ » . ولقد زاد هذا العزم والمسي من
 احتمالات التصادم ومن حجمه مع خلفاء آل عثمان !

غادر ابن عبد الوهاب « حرملا » - التي بدأ فيها دعوته - إلى « العينة » .
 فعرض مذهبه على رئيسها عثمان بن أحمد بن معمر . الذي استجاب لدعوته .
 فعقد معه عهدا أن ينصر دعوة [لا إله إلا الله] . ويسخر قوته لافتلاع عقائد
 « الشرك » ورموزه . مقابل « أن يملكه الله نجدا وأغرابا » (٥١) فتحرك
 جيش « العينة » . وفي مقدمته ابن عبد الوهاب . هدم القباب . واقتلاع
 الأشجار وإزالة الرموز التي كان العامة يقدسونها ويتخللونها وسائط تفرهم -
 بزعمهم - إلى الله زلقا ! . وكان قبر الصحابي زيد بن الخطاب [١٢ هـ
 ٦٣٣ م] . باليامة . من بين القباب التي قاد ابن عبد الوهاب عملية هدمها .
 بعد أن أحفل حتى جند أمير « العينة » عن الإقدام على هدمه ! . ولقد استفز
 ذلك أغراب الناحية . فخشي عثمان بن معمر عداءهم . فطلب إلى ابن عبد
 الوهاب مغادرة المنطقة خوفا على حياته . فغادر « العينة » إلى « الدرعية » سنة
 ١١٥٨ هـ سنة ١٧٤٥ م

وفي « الدرعية » تحالف ابن عبد الوهاب مع أميرها محمد بن سعود
 [١١٧٩ هـ ١٧٦٥ م] . فسادت الدعوة السلفية فيها وفي نجد وما تاحدها . ثم
 أخذ يعرض دعوته على حجاج بيت الله الحرام وزوار مسجده الرسول - صلى الله
 عليه وسلم - في موسم الحج والزيارة .. وبدأ الحجاج يسمعون ويتناقضون آراءه
 التي تحكم « بالكفر » حتى على خليفة المسلمين العثماني !

(٥) المرجع السابق . ص ٦٩

وكان ابن عبد الوهاب يقود الجهاد ، في طليعة جيش ابن سعود
فهاجموا « كربلاء » ، بالعراق ، واستولوا على الكنوز الذهبية والفضية النفيسة
لمشاهدها ومزاراتها سنة ١٢١٦ هـ سنة ١٨٠١ م . ودخلوا المدينة المنورة سنة
١٢٢٠ هـ ١٨٠٥ م . وأزالوا القباب والشواهد الخاصة بمزارات الصحابة في
مقابر البقيع . . وفي العام التالي ذهب ابن سعود إلى مكة ، حاجاً ومستعرضاً
قوته ، فبايعه « شريفها » ، وطرد من كان بها من رجال الدولة العثمانية
وهكذا تمت للوهابية - الدعوة والسلطة - السيطرة على الحرمين ونجد والحجاز ،
فتمساعد تحديها « للدولة العثمانية » ، و « لفكرتها » الملتزمة بالشعوذة والخرافة !
لكن العثمانيين ، بعد أن فشلوا في مواجهة الوهابية ، استعانوا بتحمد علي
باشا [١١٨٤ - ١٢٦٥ هـ ١٧٧٠ - ١٨٤٩ م] والجيش المصري ، الذي أحبط
الدولة الوهابية وأجهز عليها عندما احتل عاصمتها « الدرعية » في ٧ ذي القعدة
سنة ١٢٣٣ هـ (٨ سبتمبر سنة ١٨١٨ م) . بعد سنوات طويلة من القتال
وبعد ثلاثة أرباع القرن على ظهور دعوة ابن عبد الوهاب ، وبقيت الوهابية
« دعوة » تسعى لإقامة « الدولة » ، حتى تيسر لها ذلك في العقدين التاليين
والثالث من القرن العشرين ، على يد الملك عبد العزيز آل سعود [١٢٩٣ -
١٣٧٣ هـ ١٨٧٦ - ١٩٥٣ م] .



● كانت الوهابية ، على حجة « العقائد والشعائر الدينية » ، حركة تجديد
سلفية ، نشأت في بيئة عربية بسيطة ، لم تعرف الفكر المركب ، خفوها من
تعقيدات الحضارة وأغاطها الفكرية المركبة ، فكانت صورة إسلامها هي صورة
الإسلام العربي الأول في عصر صدر الإسلام . . ومن هنا كانت ثورة تجديدية

ضد صورة الإسلام المعنوي . ذلك الذي أثقلته البدع والخرافات طوال العصر
الذي فقدت فيه حضارتنا مقومات الإبداع وقسمات الاستقلال . وكان
« التوحيد » الإسلامي الخالص . كما بشرت به الوهابية . إسهاما في إعادة روح
الحيز والاستقلال إلى البناء الحضاري لأمتنا على حجة « العقائد والشعائر
الدبية » .

● والوهابية . كامتداد للفكر السلفي : الرافض للتأثيرات الفلسفية اليونانية
في حضارتنا . قد تبنت إبداع أعلام السلفية - وخاصة إبداع ابن تيمية - في
صياغة « منطق إسلامي » متميز لحضارتنا . بدلا من « منطق أرسطو » الذي
تبناه عدد من فلاسفة المسلمين . أو تأثروا به . فإزاء هذه القسمة من قسمات
تأخيرنا الحضاري . كانت السلفية . عند ابن تيمية . تنويها لجهود عربية إسلامية
استقلالية بدأت وتمت . بدأت بإبداع الإمام الشافعي . محمد بن إدريس
[١٥٠ - ٢٠٤ هـ - ٧٦٧ - ٨٢٠ م] في « أصول الفقه » . التي قدمها في مقابل
« منطق أرسطو » . الذي رفضه باعتباره ابنا للغة اليونان . يستحيل أن يكون
منطقا لأهل اللغة العربية ! . وتمت هذه الجهود بإبداع المتكلمين المسلمين - من
المعتزلة وغيرهم - لأصول الدين - علم الكلام - الذي رفضوا فيه وبه منطق
أرسطو . لارتباطه « بالميتافيزيقا » اليونانية الوثنية - التي لم تعرف الوحي ولم
تعترف به - وانخلفة لأحيات المسلمين والإسلام !

ولقد تخرج ابن تيمية هذه الجهود - التي تمت على درب التأخر والاستقلال
الحضاري . بنقده منطق أرسطو . الذي رآه مقيدا للفترة الإسلامية بقوانين
صناعية متكلفة . وحائلا بقوانينه الكلية الثابتة دون الوفاء بالحاجة الإسلامية
المتغيرة . وداخلا فيما لا ضرورة له . حيث لم يشتغل به الصحابة ولا الأئمة .

ومع ذلك فلقد توصلوا - كما يقول - إلى كل نواحي العلم !؟ توجت هذه الجهود بتبلور منطق الحضارة العربية الإسلامية الاستقرائي ، القائم على الملاحظة والتجريب . في مقابل منطق أرسطو - القائم على المنهج القياسي . والنابع من روح الحضارة اليونانية . التي لم تحفل بالتجربة بقدر ما ركزت إلى النظر الفكري والفلسفي ^(٦)

وعلى هذه الجبهة الفكرية . كانت الوهابية . كامتداد للفكر السلفي . إسهاما في الاستقلال الحضاري لأمتنا العربية الإسلامية . وإن تكن بداوة بيئتها . وفقر الفكر الفلسفي عند أعلامها قد جعل إسهامها على هذه الجبهة متمثلا في رفض التبعية الفكرية . مع العجز عن الإبداع في بلورة البديل وتطويره !

● وعلى «جبهة العروبة» كانت الوهابية إسهاما في الجهد المبذول حتى تستعيد الأمة هذه القسمة من قسائم استقلالها الحضاري . فهي «كدعوة» و «كدولة» . قد مثلت طليعة التحديات العربية للسلطنة العثمانية المتسلطة على أغلب أقاليم الوطن العربي . ثم هي . في أحوال الفكرى . قد سحبت - إسلاميا - الشرعية والمشروعية عن ولاية العثمانيين على العرب . عندما تبنت وأبرزت موقف أغلب فقهاء الإسلام - ومنهم فقهاء السلفية - المنحاز لضرورة توافر شرط العروبة القرشية فيمن يتولى منصب الخليفة والإمام .

لقد مثلت الوهابية - بهذا الموقف الفكرى والعمل - في بقظتنا الحديثة :

(٦) د على سامى انتشار إشباع البحث عنه مفكرى الإسلام وكتشاف السج العلمى فى شعالم الإسلامى آ ص ١٨٧ د ٢٠١ : ٢٠٢ : ٢٦٣ : ٣٠٥ : ٣٧٨ : ٣٨٠ طبعه القاهرة سنة

بعدا قوميا . لم يصل بها إلى حد جعلها حركة قومية عربية - بالمعنى المتعارف عليه في الأدب السياسي الحديث - لكنه مثل إسهاما بارزا على درب العروبة الساعية كي تنفض عن كاهلها سلطة الترك العثمانيين !

● لكن الوهابية ، بسبب من بداعة البيئة التي نشأت بها ، قد اتخذت موقفا غير ودي من « العقلانية » ومن « التمدن » . فظواهر النصوص كانت كافية للإجابة على مآثره بيثها البدوية البسيطة من مشكلات ، ومآثر حده من علامات استفهام . وموارثها السلفية ، التي بدأت بإمام السلفية أحمد بن حنبل ، قد رفضت « عقلانية المسلمين » ضمن رفضها « عقلانية اليونان » ! وجاءت الوهابية ، محكومة بأوضاع بيثها البدوية ، فرفضت « التمدن » عامة ، كجزء من رفضها ذلك « التمدن الغربي » الذي كان يتسلل إلى عالم الإسلام من تلك الشفرات التي فتحتها الغرب في جدار آل عثمان !

ولقد دفع الوهابية على هذا الدرب ، وأوغل بها في هذا السبيل خطفها الشديد بين ماهو « دنيا » وماهو « دين » ، فلما لم « تميز » بينهما ، حسبت أن تجديد « الدنيا » يتحقق بما يتجدد به « الدين » ، فدعت إلى « السلفية الدينية » كما دعت إلى « السلفية الدينية » . وغفلت عن أن تجديد ثواب الدين لا بد فيه من « الاتباع » دون « الابتداع » . فيما تجديد متغيرات الدنيا لا بد فيه من « الابتداع » . في إطار المقاصد الدينية والأطر العامة التي نزل بها الروح الأمين على الرسول - عليه الصلاة والسلام - . ولم تدرك الوهابية أن « الاتباع » هنا لا يثمر « التجديد » . بل يؤدي إلى « الجمود » !

ولقد تحدث الإمام محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م]

عن هذه السلبية في الدعوة الوهابية ، رغم اتخافه معها في « السلفية الدينية » .

التي جعلته يدعو إلى « فهم الدين على طريقة سلف الأمة . قبل ظهور الخلاف ، والرجوع في كسب معارفه إلى بناييعها الأولى » (٧) . يتحدث الإمام محمد عبده عن قصور الوهابية على جبهة « العقلانية » و « التخلف » . فيقول : « إهم أضيق عطنا - [أفقا] - وأخرج صدرا من المقلدين . فهم وإن أنكروا كثيرا من البدع . ونحوا عن الدين كثيرا مما أضيف إليه وليس منه . إلا أنهم يريدون وجوب الأخذ بما يفهم من لفظ الوارد . والتقيده به . بدون التفات إلى ما تقتضيه الأصول التي قام عليها الدين وإليها كانت الدعوة ولأجلها منحت النبوة . فلم يكونوا للعلم أولياء . ولا للمدينة أحياء » (٨) .



في هذه المواقع . وعند هذه الحدود وقفت الوهابية على جبهة تضال أمتنا لاستعادة استقلالها الحضاري . وبلورته . في عصرنا الحديث لقد انتصرت « للسلفية الدينية » . و « للعبودية » . لكنها خلفت عن مستويات طموحات أمتنا الحضارية على جبهة « التخلف » . عندما استبدلت - على هذه الجبهة - « سلفية الدين » « بمستقبلية الدنيا » وتبدلت ! - عوفقت صلاحيات فكرتها في « التخلف » عند حدود البيئة البدوية التي نشأت وتبلورت فيها . وعجزت عن تلبية حاجات البيئات العربية الإسلامية المتحصرة . ذات الفكر المركب والطور الحضاري المتقدم !

لكنها كانت طليعة الدعوات المنظمة ذات التأثير . في تيار اليقظة الإسلامية

الحديث . (٩)

(٧) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٢ ص ٣١٨ دراسة وتحقيق : محمد طهارة طبعه بيروت

سنة ١٩٧٢ م . (٨) المصدر السابق ج ٢ ص ٣١٤

(٩) لمزيد من التفاصيل انظر كتابنا [تيارات الفكر الإسلامي] ص ٢٥٣ - ٢٥٨

(٢)

السَّنُوسِيَّة

تَيزَتْ نَشَأَةُ إِمَامِ السَّنُوسِيَةِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ السَّنُوسِيِّ [١٢٠٢ - ١٢٧٦ هـ
١٧٨٧ - ١٨٥٩ م] عَنْ نَشَأَةِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ . فَلَقَدْ وُلِدَ السَّنُوسِيُّ بِقَرْيَةِ
« الْوَاسِطَةِ » بِالْقُرْبِ مِنْ « مَسْنَاخِم » بِمَقَاعِطِ « وَهْرَانِ » الْخَزَائِرِيَّةِ ، فِي بَيْتَةٍ
عَرَبِيَّةٍ لَا تَغْلِبُ عَلَيْهَا الْبَدَاوَةُ .

وَكَانَ ظَمُوحُهُ إِلَى الْعِلْمِ وَالْقُرْأَنَةِ مَلْحُوظًا مِنْذُ النِّشَاءِ الْمُبَكِّرَةِ . فَتَنَّدَ الصَّبَا
كَانَ يَشْمُ بِيَوْمِهِ إِلَى قِسْمَيْنِ ، أَحَدُهُمَا لَطْفُ الْعِلْمِ ، وَالْآخَرُ لِلْقُرْأَنَةِ وَالتَّدَرُّبِ
عَلَى الْقِتَالِ ! ... وَهُوَ قَدْ دَرَسَ فِي « الْقُرُوبَيْنِ » ، بِمَدِينَةِ فَاسِ الْمَغْرِبِيَّةِ .
و « الْأَزْهَرِ » ، بِالْقَاهِرَةِ . وَأَخْرُطَ فِي عِدَدٍ مِنْ طُرُقِ التَّصَوُّفِ . وَتَلَقَّى الْعِلْمَ عَنْ
عِدَدٍ مِنْ شُعَبِ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ .

وَكَانَ السَّنُوسِيُّ مَالِكِي الْمَذْهَبِ فِي الْفَقْهِ . وَنَاسِ بْنِ الْإِمَامِ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ
[٩٣ - ١٧٩ هـ ٧١٢ - ٧٩٥ م] وَبَيْنَ « الْعَقْلَانِيَّةِ » مَا بَيْنَ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ
وَالْمُتَّبِعِ الْعَقْلِيِّ مِنْ حَصَامٍ ؟! . وَفِي بَيْتِهِ غَيْرُ عَارِيَةٍ مِنْ قِسْمَاتِ الْمَدِينَةِ وَالْخَلْدِ
كَوْنِ السَّنُوسِيِّ طَرِيقَتِهِ : وَشَرَعَ بِبَيْتِ الدَّعْوَةِ وَبَصْنِ الدَّعَاةِ

● وَلَقَدْ كَانَتْ سُلُفِيَّةُ السَّنُوسِيَّةِ مُمْتَزِةً ، لِذَلِكَ ، عَنْ سُلُفِيَّةِ الْوَهَّابِيَّةِ .
فَهِيَ تَشَارَكُهَا فِي الدَّعْوَةِ إِلَى فَتْحِ بَابِ الْأَجْتِهَادِ لِتَجْدِيدِ الدِّينِ . وَفِي رَفْضِ
فِكْرِيَّةِ السُّلْطَانَةِ الْعِمَّانِيَّةِ . لَمَّا أَثْقَلَ إِسْلَامُهَا مِنْ خُرَافَاتٍ وَزَوَائِدَ وَبَدَعَ . لَكِنْ
الطَّرِيقَةُ السَّنُوسِيَّةُ قَدْ مَزَجَتْ « الشَّرِيعَةَ » بِشَيْءٍ مِنْ « التَّصَوُّفِ » ، وَخَلَطَتْ

« البرهان » « بالإشراق » ! - فهي « بالشرعية والبرهان » تحدد الدين . عندما تعود إلى منابعه كى تفهم عقائده وشعائره وشرائعه . وهى « بالنصوف » تستعين على تربية النفس وتقويم السلوك وصفل الملكات والسمو بالوجدان ! صنعت ذلك المزيج مع ميل ملحوظ إلى « الشرعية والبرهان » !

ولقد اتفرت السنوسية على هذا الدرب إنجازا عظيما . فهي قد صححت عقائد الذين انحطوا فيها من الاتباع والمريدين ، وكثير منهم . وخاصة فى الصحراء الغربية . كانت تشوب عقائدهم الإسلامية . بل وشعائرههم عناصر وثنية وجاهلية عديدة ! وهى قد نشرت الإسلام بين أقوام أعارفة كثيرين كانوا وثنيين . فقصعت الطريق على التبشير الاستعمارى الذى كان يمهّد . بالمسيحية . الأرض للنهب والاحتلال والاحتواء ! ولقد كان لها الفضل فى صنع « الحزام الإسلامى » . الممتد فى وسط أفريقيا ، من شرقها إلى غربها . وإقامة سلطانات وإمارات إسلامية عدة حاربت الاستعمار الغربى وأعاقت سيطرته سنوات وصنعت ذلك أيضا عندما تصدت للاستعمارين الإيطالى والإنجليزى على الجبهة الشمالية والشرقية . وعندما أفلقت السيطرة الفرنسية على بلاد الشمال الأفريقى .

وكان هذا إنجازا هاما وإسهاما بارزا استعانت السنوسية فى صمعه « بساقيتها المجددة » . تلك التى واجهت بها خرافة عصر الجمود وخطير اند الاستعمارى على هوية الأمة واستقلالها الحضارى . وبقيتها الحديثة ..

● وعلى حجة « العروبة » - عروبة « الدولة » و « الفكر » و « الحضارة » - أسهمت السنوسية إسهاما بارزا وملحوظا . فهي قد نشرت العربية مع نشرها الإسلام فى أصقاع جديدة .. وهى قد رفضت الاعتراف بشرعية التسلط العثمانى على حكم الأمة العربية . عندما تبنت وأبرزت موقف فقهاء الإسلام من ضرورة

عروبة الخلافة وقرشيتها . . وفي كتاب السنوسي [الدور السنية في أخبار السلالة الإدريسية] يدافع عن هذا الشرط من شروط الخليفة . ويستشهد برأى أبي الحسن الماوردي [٣٦٤ - ٤٥٠ هـ - ٩٧٤ - ١٠٥٨ م] ويرفض رأى الذين يشيعونها في غير العرب من المسلمين ! .

ثم إن السنوسية السياسية قد اتخذت من الدولة العثمانية موقفا يتراوح ما بين « انصمت الخدر » . و « المراوغة » . أو « العداء » ! . . . فهي قد أزعجت طلائع المد الاستعماري الغربي على إفريقيا . وأقلقست الاستعمار الفرنسي في المغرب العربي . وخاصة في الجزائر . حتى لقد كتب وزير الخارجية الفرنسي جابريل هانوتو G.Hanotaux [١٨٥٣ - ١٩٤٤ م] وهو يتحدث عن « المسألة الإسلامية » . فعبّر عن انزعاجه من « كفاح » السنوسيين ضد الأوروبيين . و « كراهيتهم للمدنية » الأوربية ! . وصرح بأن موقفهم غير النودي من الدولة العثمانية . ومقاطعتهم لها سببها ما بين هذه الدولة وبين أوروبا من علاقات ! . وعبّر عن مخاوفه من مقاومتهم للسيطرة الأوربية المسيحية الاستعمارية فقال : « إن جرائم الخطر لا تزال موجودة في ثنايا الفتوح وطي أفكار المقيهورين الذين أتعبتهم النكبات التي حاقت بهم . ولكن لم تنبسط همهم » ! . . . ثم يستطرد هانوتو في الحديث عن خطر السنوسية على الاستعمار الفرنسي ونمطه الحضاري فيقول : « لقد أسس الشيخ السنوسي . في جهة ليست بعيدة من الأصقاع التي تلي أملاكنا في الجزائر - [١٤] - مذهبا خطيرا . له أشياء وأنصار . ومن مذهبهم التشدد في القواعد الدينية . ولقد لبثوا زمنا مديدا لا يرتبطون بعلاقة عامع الدولة العلية [العثمانية] بسبب ما بينها من العلاقات وبين الدول المسيحية - [الاستعمارية الأوربية] - وهم يطرحون حباتل الدسائس التي أوقفت رجال بعثاتنا عن كل عمل مفيد لصالحنا

في إفريقيا الجنوبية ١٩ . فهناك ، في قرانا وبلداننا - [كذا ١٩] - ترى درويشا فقيرا ، متدثرا بأرديته البيضاء : المعلمة بخطوط سوداء ، يلهج لسانه بذكر الله والصلاة على نبيه ، لا يلبوه عن ذلك شيء .. وهذا الدرويش - الذي يتقل من خيمة إلى خيمة ومن قرية إلى قرية - راويا حوادث الأقطاب الأولياء من مشايخ الإسلام - إنما يذخر في القلوب . حيثما حل وأبنا توجه ، بذور الحق والضعفة علينا .. (١٠) ١٩ ..

وعندما ضغطت الدول الأوروبية الاستعمارية على السلطان العثماني عبد الحميد [١٢٥٨ - ١٣٣٦ هـ ١٨٤٢ - ١٩١٨ م] كي يوقف النشاط السنوسي ، استجاب لهذا الضغط - بعد تمنع وإبطاء - فاستدعى المهدي السنوسي [١٢٦٠ - ١٣٢٠ هـ ١٨٤٤ - ١٩٠٢ م] ليقم في الآستانة ، في « قفص ذهبي » ! كالذي احتبس فيه ذلك السلطان جمال الدين الأفغاني . حول ذات التاريخ ؟! .. ولكن المهدي السنوسي تخلص من هذا الفخ . متلطفا .. بل ونقل مقره بعيدا في الصحراء الليبية . فغادر « جغبوب » إلى « الكفرة » . فلما زاد الخطر واقترب ، انتقل من « الكفرة » إلى « فرو » . بالسودان الأوسط ١٩ ..

ذلك أن السنوسية كانت تدرك أن الضعف العثماني قد حول الدولة العثمانية إلى جدار مليء بالثقرات التي يتسلل من خلالها نفوذ الغرب الاستعماري كي يلتهم ديار العروبة والإسلام .. حتى لقد غدا « الترك » كما يقول أحمد الشريف السنوسي [١٢٨٤ - ١٣٥١ هـ ١٨٦٧ - ١٩٣٣ م] : « مقدمة النصاري - [أي المستعمرين الأوروبيين] - ما دخلوا محلا إلا ودخله النصاري ! » .. وحتى

(١٠) [الإسلام والمرد على مقتديه] ص ١٨ ، ١٩ . طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨ م

ليقول المهدي السنوسي [١٢٦٠ - ١٣٢٠ هـ - ١٨٤٤ - ١٩٠٢ م] « الترك والنصارى : إني أقاتلهم معا ! » .

فالسنوسيون : متوقفهم مع العربية ، ومع الإسلام العربي . وبعنائهم لأعدائهم . أوريين كان هؤلاء الأعداء أو أتراكا عثمانيين . وألبانيا . بما أعادوا وبعثوا من فروسية عربية في الخلق والقتال . وبما اغتازوا إليه من ضرورة عروية الخلافة وقرشيتها . كانوا أصحاب إسهام عظيم على هذه الجبهة من جهات الاستقلال الحضاري لأمتنا العربية الإسلامية

● وإزاء قسمة « التمدن » أبدعت السنوسية نموذجاً متميزاً يختلف الأنظار ويدعو البصائر إلى التأمل العميق . فالسنوسي كان صاحب نظر في العلوم الطبيعية . واقتناء لأدواتها . إلى جانب تبحره في علوم الدين واجتهاده فيها ! وأمام الخطر الاستعماري الشامل والمهدد لكيان الأمة . أدرك الرجل أن لابد من « المراقبة » . بما عنده هذا النظام في تاريخ الإسلام من تنظيم لطاقت الأمة وحشد لها في وحدات مقاومة مترابطة تتصلى . « بالبناء والقتال » . لخطر الأعداء ! . فكانت فكرة « الزاوية » السنوسية . كمؤسسة متكاملة لصنع الرجال . دينياً ودينيوياً . وتنمية المجتمع ، ومجاهدة الأعداء . ونشر العروبة والإسلام ! . كانت « الرباط » الإسلامية الحديث ، الذي يبعث ويجدد روح الرباط « و « المراقبة » الإسلامية الأولى ، تلك التي قال عنها الرسول - صلى الله عليه وسلم - : « رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ! » ^(١١) . والتي قامت عليها وباسمها دولة جددت الإسلام بالمغرب حيناً من الدهر . هي دولة « المرابطين » [٤٤٨ - ٥٤١ هـ - ١٠٥٦ - ١١٤٦ م] .

(١١) رواه : البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه والدارمي وابن حنبل

كانت « الزاوية » السنوسية هي : مؤسسة « الحكيم » - [الطريقة] -
ومزرعة الدولة . ونموذج الخنوع الحديد الموعد . فغير المسجد . تجد فيها :
مترا لقائدها - [المقدم] - والوكيل : والشيخ . وفيها بيوت للضيوف وعابري
السبيل . وللفقراء الذين لا مأوى لهم . وفيها مساكن للخدم ، وغازل للسنن
واصطبل . ومتجر . وفرن . وسوق . وحول هذه المباني « العامة » توجد
المساكن الخاصة بالقبائل التي تقوم « الزاوية » في منطقتهم . لتطويرهم
وقيادتهم .

و « للزاوية » أرض زراعية خاصة بها . وآبار جوفية . وصهاريج لحفظ
المياه . وأرضها وحدائقها تزرع جماعيا ، تعمل فيها القبائل . بلا أجر . يوم
الخميس من كل أسبوع ١٤ . كما تندرب فيها يوم الجمعة من كل أسبوع على
القروية والقتال ! . ومحصول أرض الزاوية ينفق على احتياجات فقراها ،
وضيوفها . غذاء وكساء وتعليما وعلاجاً وزواجا . ومابقى يذهب لقر « الطريقة »
الرئيسي .

و « مقدم » الزاوية هو ممثل شيخ الطريقة . وقائد قبائلها في الجهاد !
و « الوكيل » هو المشرف على الزراعة وشئون الإدارة والاقتصاد . أما
« الشيخ » فإنه يتولى التعليم وشئون الزواج . ومن هؤلاء الثلاثة ومن رؤساء
القبائل المحيطة « بالزاوية » يتكون مجلس إدارتها .

تلك هي « الزاوية » السنوسية : أداة التنمية المتميزة . التي صاغها البيئة .
والتي جعل منها الخطر الاستعماري قنعة للذب عن العروبة والإسلام والجهاد في
سبيل الله ! . ولقد وصفها السنوسي فقال : « إن الأرض تبتهج من حوضها
بأنواع الأشجار . ويكثر بها السكان لكثرة الثمار . وتنتشر فيها العمارة . وتوسع

الإدارة .. والعاملون فيها ، بالزراعة والحرف . هم السابقون عند الله للعাকفين
على الأوراد والأوراق والمسابح ! ..

لقد صاغت بيئة « الزاوية » ، وحدد الخطر المحقق بأهلها الصورة والحدود
التي جاء عليها هذا النموذج السنوسي في « التمدن » ... وهو وإن لم يكن النموذج
الأصلح لبيئات أكثر تطورا ، إلا أنه قد كان . في واقعه وظروفه ، إنجازا عبقريا
على درب التمايز والاستقلال الحضارى . كما كان أداة فاعلة من أدوات اليقظة
الإسلامية التي واجهت التخلف الموروث ، والوافد الغربى . استعمارا وفكرا
جاء في ركاب الاستعمار ! .. (١٢)

(١٢) انظر عن السنوسية : د أحمد ممدوح الدجاني [الحركة السنوسية] طبعة بيروت سنة ١٩٦٧ م
وشكيب أرسلان [حاضرم العالم الإسلامى] طبعة بيروت سنة ١٩٧١ م و د محمد حمادة [الغرب
والتحدى] ص ١٦٦ - ١٧٥ و [تيارات الفكر الإسلامى] ص ٢٦٦ - ٢٧٠

(٣) المَهْدِيَّة

في جزيرة « ثب » ، على بعد خمسة عشر كيلومترا من « دنقلة » ، بالسودان . ولد مؤسس « المهديّة » - « المهدي » - محمد أحمد [١٢٦٠ - ١٣٠٢ هـ - ١٨٤٤ - ١٨٨٥ م] في أسرة فقيرة . قعدت بها إمكانياتها الفقيرة عن أن ترسله إلى الأزهر الشريف كي يتعلم فيه ، فاحترف التجارة ، لكنه حصل علم « الفقهاء الفقراء » المحليين ! . ومارس التعليم ... ثم اتجه إلى التصوف . فزهد ، وتسلق ، حتى ذاعت شهرته ، وعلا نجمه ، وأصبح - في « الطريقة السانية » - خليفة له « راية » وه « مريدون » ! ... ثم أصبح شيخا لهذه الطريقة سنة ١٢٩٧ هـ سنة ١٨٨٠ م .

وكان محمد أحمد طموح إلى الإصلاح العام للمجتمع . وإلى بناء مجتمع على غرار مجتمع الرسول - صلى الله عليه وسلم - في صدر الإسلام ... ولقد استعان على ذلك الإصلاح بالفقهاء والحكام ، لكنهم خذلوه . فأتجه إلى عامة الناس !؟ ..

وفي الأول من شعبان سنة ١٢٩٨ هـ ٢٩ يونيو سنة ١٨٨١ م أعلن محمد أحمد على الناس أنه « المهدي » ، وأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد جاءه في الرؤيا . وكلفه « بالمهديّة » . ودعا الناس إلى الإيمان به « مهديا » . وإلى الهجرة إليه . والجهاد معه لإقامة الدين . وتحرير البلاد من الأتراك

والأجانب . وإنقاذ ديار الإسلام فاطمة « من غانة إلى فرغانة » (١٣)



كانت مهمة التجديد واليقظة والتحرير بالسودان أكثر صعوبة منها في غيره من البلاد . فوحدة الشعب لم تبلور بعد . والتفتت الإدارى والفرق القبلى بثقلان الخطو نحو بلوغها . والفقهاء قد تحولوا إلى أتباع للحكام . يبررون مطالبهم . ويحكمون قبضتهم على العقول والقلوب . والمتصوفة قد استقطبوا عامة الناس إلى « أقطابهم » ! « اقتسموهم في » طرقهم « ١ . وأشاعوا في حياتهم الخرافة التى قتلت فيهم الطموح وأمانت منهم الطاقات وعطلت لهم العقول ٢ !

وأمام هذه المهمة الصعبة وقف محمد أحمد . فبلغت به المعاناة حد تمثل الأسطورة - « المهديّة » رؤية تمام . بل وبقطة ! وعقدت هذه الأسطورة الوثيقة الأفعال في صهر الأمة وتوحيد الجماعة واستنفارها للجهاد خلف مهديها للتجديد والتحرير والإصلاح !



● ولقد واكبت المهديّة صعود نجم « الثورة العربية » ضد الخديوى توفيق [١٢٦٨ - ١٣٠٩ هـ ١٨٥٢ - ١٨٩٢ م] والتدخل الأوربى الاستعمارى في

(١٣) « غانة » مدينة عربية إسلامية ، في أقصى جنوب المغرب العربى . و « فرغانة » مدينة إسلامية في بلاد ما وراء النهر ، متاخمة لبلاد التركمان - التى تمثل الآن إحدى الجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفيتى - . والعبارة تعنى : من مغرب عالم الإسلام إلى مشرقه . انظر : ضيق الدين السبى (محمد الأصلاح على أسماء الأمكنة والبلدان) تحقيق : على شيبانوى طبعه القاهرة سنة ١٩٥٥ .

مصر .. وكان هذا التدخل . الذى تسلى إلى بلادنا من الثغرات التى صنعها
عجز الأتراك العثمانيين ، قد جعل السودانين ، بقيادة « المهدي » . يرون فى
هذا الثالث ، المكون من : الأوروبيين .. والأتراك .. والحكومة الخديوية :
عدوا واحدا وبلاد متحدا .. !

فبعد معاهدة لندن سنة ١٢٥٦ هـ سنة ١٨٤٠ م . التى قنت اختراق تجربة
مصر المستقلة من قبل أوروبا والعثمانيين . زاد النفوذ الأجنبي فى مصر ، وخاصة
زمن حكم الخديوى سعيد [١٢٧٠ - ١٢٧٩ هـ ١٨٥٤ - ١٨٦٣ م] والخديوى
إسماعيل [١٢٧٩ - ١٢٩٦ هـ ١٨٦٣ - ١٨٧٩ م] .. وبصورة أكبر عندما تولى
الحكم الخديوى توفيق [١٢٩٦ هـ ١٨٧٩ م] .. وانعكس ذلك على
السودان . الذى كانت إدارته للحكومة الخديوية المصرية . حتى بلغ الأمر حد
تعيين العديد من الأوروبيين حكاما على أقاليم السودان . ليحكموه باسم
الخديوى ! . فى « بحر الغزال » حكم الإيطالى « جيسى » . ثم خلفه الإنجليزى
« ليتون بك » ! . وفى « دارفور » حكم النمساوى « سلاطين » ! . وفى
« كوفى » حكم « أميليانى » ! . وفى « الفاشر » حكم « سيداليا » ! . وفى
« لادو » حكم الألماني « سنزر » ! . وفى « فاشودة » حكم النمساوى « ارنت
مانرو » !

وكان السودانيون يسمون الحكم الخديوى بالحكم التركى . ويصفون
حكامهم بالأتراك ! .. وزادت مبررات هذا الوصف عندما انحاز الخديوى
توفيق إلى الغرب والأتراك ضد الثورة العرابية ! ..

وكانت المظالم الاجتماعية لهذا الحكم « التركى » قد بلغت فى السودان
وبأهله حد المأساة ! ..

وأمام هذا « العدو » كان رد فعل « المهديّة » المعادي للأتراك . فهم
 « كفرة » . لا بد من جهادهم . وهم أعداء . لا بد من « مغايرتهم » . حتى في
 النزي والعادات والتقاليد . ولا سبيل للتعامل معهم إلا السيف !

يقول « المهدي » لأتباعه : في أحاديثه ومشتواته . معبرا عن مآثره :
 « قسمة عربية . معادية للسيطرة التركية » . يقول : « اتركوا كل ما يؤدي إلى
 التشبه بالترك الكفرة . كما قال الله تعالى في الحديث القدسي : [قل لعبادي .
 المخرجين إليّ . لا يدخلون مداخل أعدائي . ولا يلبسون ملابس أعدائي .
 فيكونون هم أعدائي . كما هم أعدائي] فكل الذي يكون من علاماتهم
 ولباساتهم فاتركوه ^(١٤) !

وهو يتحدثهم عن أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد أمره بذلك .
 وحرّضه عليه . فعداء الترك واحد من « المهام المهديّة » . فيقول لأتباعه :
 « لقد حرّضني سيد الوجود - صلى الله عليه وسلم - على قتال الترك وجهادهم
 لقد أمرنا النبي أمرا صريحا بقتال الترك . وأخبرنا بأنهم كفار . نخالفهم أمر
 الرسول باتباعنا . ولازادتهم إطفاء نور الله تعالى الذي أراد به إظهار عدله
 ولقد أعلمني الرسول أن الترك لا تظهرهم المواعظ . بل لا يظهرهم إلا السيف .
 إلا من تداركه الله بلطفه !... » ^(١٥)

وهو يذكرهم بظلم الترك وعسفهم فيقول : « إن الترك قد وضعوا الجزية في
 رقابكم . مع سائر المسلمين . وكانوا يسحبون رجالكم - ويسجنونهم في
 القبود . ويأسرون نساءكم وأولادكم . ويقتلون النفس التي حرم الله بغير

(١٤) [مشورات المهديّة] ص ١٦٦ تحقيق د محمد ابراهيم أبو سليم . طبعة بيروت سنة ١٩٦٩ م

(١٥) المصدر السابق ص ٧٤ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣٣٢

حقها . وكل ذلك لأجل الجزية التي لم يأمر الله بها ولا رسوله . فلم يرحموا
صغيركم ولم يوقروا كبيركم !...»^(١٦)

فتشحن قومه بشحنة قومية ، عندما استنفر فيهم روح « المغايرة » للأتراك .
وكان هذا إسهاما « للمهدية » على درب التمايز القومي عن الأتراك العثمانيين

* * *

● وأمام « الفكرية » التي بلغت بها « طرق » النصوص والمتصوفة قمة الخرافة
والشعوذة . كانت دعوة « المهدية » إلى سلفية تحرر العقل من هذه القيود
والأغلال التي عطلت طاقات الفكر الإسلامي ، وتكشف عن هذا الفكر الركام
الذي أفقده معمله الحقيقية . فدعت « المهدية » إلى العودة للمنايع ، وإسقاط
التفسيرات التي جاءت بنت زمانها وظروفها . بعد أن مر الزمان وتغيرت
الظروف . فالمتقدمون رجال « فكروا » لعصورهم ، ونحن رجال « تفكر » .
في إطار الأصول . لعصرنا . ولقد حدث « المهدي » أنصاره ، وحاور
مجادليه فقال لهم : « لا تعرضوا لي بنصوصكم وعلمكم عن المتقدمين . فلكل
وقت ومقام حال . ولكل زمان وأوان رجال . ولقد كانت الآيات تنسخ ، في
زمن النبي . على حسب مصالح الخلق . وكذلك الأحاديث تنسخ بعضها
البعض على حسب المصالح . نحن نقفوا آثار من سلف من المهتدين السالفين .
على نهج محمد - صلى الله عليه وسلم - ... فاتبعوا : أحبابي . كلام الله في
القرآن ، ولا تتبعوا ترهات فآيت الزمان ! . وقد بايعتموني على أن لا تشركوا بالله
شيئا ! »^(١٧)

(١٦) المصدر السابق . من ٤١ : ٤٢

(١٧) المصدر السابق . من ٢٨٨ : ٣١

لقد عادت « المهديّة » - على الجبهة الفكرية - لتستلهم المنابع الأولى . فالمهدي : خليفة الرسول ، وخلفاؤه هم خلفاء الراشدين الأربعة ... وهم قد تحفظوا بذلك تجارب الأمة المساوية التي مزقت الشمل وأفقدت حضارتها الاستقلال ... وعلى الجبهة الفكرية ألغت « المهديّة » تراث المذاهب الفقهية - أو حوّلته إلى « تراث تاريخي » - و دَوّن « المهدي » للشعب أحكاما فقهية لم تلتزم بمذهب فقهي واحد - وإن وضح فيها أثر المذهب الشافعي أكثر من غيره - ... كما ألغت « الطرق الصوفية » وتراثها الخرافي ... وعادت تستلهم الكتاب والسنة ، وتعلّي من قدر « المصلحة » في تفسيرها لتصوصها المتعلقة بأمور الدنيا . وتسلّك سبيل الاجتهاد إلى هذه السلفية المحددة !

وكان هذا إسهاما لا ينكر على درب الاستقلال الحضاري للأمة ، ويفظها الإسلامية الحديثة .



● وعلى جبهة « التحدّن » - وجدت « المهديّة » في « جماعية الفكر الاجتماعي للإسلام » : الفكر النظري الذي يلبي احتياجات المجتمع السوداني ، القبلي والسطح . والذي لم تمايز فيه بعد الطبقات تمايزا جادا وراسخا وعريقا كما وجدت فيها العلاج الثوري الناجع للمظالم الاجتماعية التي رزح الناس تحت نيرها واكتسوا بنارها قرونا تطاول عليها الأمد !..

لقد انحاز الحكماء وأغلب الفقهاء إلى صف أعداء « المهديّة » . ومعهم المنتصون بالظلم الاجتماعي الذي ساد قبل الثورة . أما أتباع « المهدي » وأنصاره فإن أغليتهم الساحقة قد تألفت من العامة والفقراء والأعراب . الذين حرّموا من الثروة . ومن العلم معا ! . و « المهدي » قد استنفر جماهيره إلى الجهاد

بالجنة الموعودة ، وهى لهم سبل العيش وأدوات الجهاد بالجماعية الإسلامية التى أقامها لهم فى الثروات والأموال والاقتصاد ..

وعندما كان خصوم « المهدي » يعيرون عليها فقر أتباعها فى المال والتعليم ، كان « المهدي » يفاخر ويضجر على هؤلاء الخصوم بهذا التفرد ! فإراه شرفا يسلكه هو وأتباعه فى سلك السلف الصالح .. فيقول : « إن أتباع الرسل كانوا هم الضعفاء والجهلاء .. أما الملوك والأغنياء وأهل الترفه فلم يتبعوهم إلا بعد أن خربوا ديارهم وقتلوا أشرفهم وملكوهم بالنهر ، كما قال تعالى : حاكيا عن قوم نوح : [وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي] ^(١٨٨) وقال تعالى : [وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها : إنا بما أرسلتم به كافرون . وقالوا : نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين] ^(١٨٩) .. ولقد قال أهل الغنى والطغيان عن أتباع نبينا : إنهم الأجلاف الأعراب ، عراة الأجساد ، جياع الأكباد ... فلم ينفعهم غناهم ، بل ضرت عليهم المذلة والمسكنة .. وجعلهم الله غنيمة للضعفاء الأعراب الذين كانوا يستبزون بهم وكذلك نرجو الله أن يكون الأغنياء ، ومن وراءهم ، غنيمة للبشارة والجهلاء والأعراب ! .. » ^(٢٠) .

ويرد « المهدي » على خصومه . من الأثرياء ، والفتهاء المدافعين عن الأثرياء ، بحجة أنه قد كان فى صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من كانوا أغنياء يتلكون أسباب الثروة . يرد « المهدي » على خصومه هؤلاء .

(١٨) مود : ٢٧

(١٩) سبأ : ٣٤ ، ٣٥

(٢٠) [مشورات المهدي] من ٣٩٣ ، ٣٩٤

ويناقش شهبهم . فيقول : « . إن الصحابة الذين باشروا الأسباب ^(٢١) » لم يدخلوا فيها إلا بعد الخروج عن كل شيء . حتى تمكن نور الإيمان في قلوبهم . . . ومن كان عنده منهم أسباب فهي إنما كانت في أيديهم ، لا في قلوبهم . وكانوا عليها كالوكلاء . يتفقونها حسب أوامر موكلهم ومولاهم . ولذا قال لهم ربهم : [وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه] ^(٢٢) ولم يقل : وأنفقوا مما ملككموه ! . وقال - صلى الله عليه وسلم - : آخر أصحابي دخولا الجنة : عبد الرحمن بن عوف . لمكان غناه . وهو أول من يدخل الجنة من أغنياء أمي . . . ١٤ . . . ^(٢٣) .

وانطلاقاً من هذا الفكر الإسلامي المتنازع إلى الجماعية ، واستجابة لضرورات اجتماع السوداني وطابعه ، أقام « المهدي » التجربة الاجتماعية المتميزة عن التطبيقات العثمانية والمملوكية ، وعن تطبيقات الحضارة الأوربية في الأموال والاقتصاد . . . ففي البيعة له « بالمهدية » ، كان المبايعون يعطونه أنفسهم وأموالهم . . . وهو هنا الرمز والتجسيد للجماعة و « للدولة » ! . وفي الأرض الزراعية ، وقف بالملكية عند الحد الذي يستطيع الإنسان المالك أن يزرعه . ومازاد على ذلك « يعطيه لأخيه المؤمن المحتاج » . . . أما الدكاكين ، والوكالات التجارية ، والقيصريات ، والمعاصر والطواحين ، وموانئ السفن - [المشارع] - والحدائق الخ . الخ . فلقد اعتبرت ، كالفقهاء ، مصالح عامة ، فهي للمجاهدين والمساكين . . .

(٢١) الأسباب : تقارب ما تسميه اليوم « رأس المال » الذي يستثمر

(٢٢) الحديد : ٧

(٢٣) [منشورات المهدي] ص ٣٣ ، ٣٤ ، ٥٦ ، ٥٢ ، ٢٦٧

وفي هذا التنظيم الاجتماعي الجماعي . تقررت للإنسان المقادير الكافلة سد ماله من احتياجات ضرورية . دون ما زاد عن الضرورات . فمن انضم للجهاد فله ضرورته . والزائد على الضرورة إنما هو على العبد . لا له ! ! ومصلح الخلق كلها متعلقة ببيت المال ! ! كما يقول « المهدي » (٢٤) .

هكذا أبدعت « المهدي » في « التمدن » ، وفي ميدانه الاجتماعي خاصة . أمرا متميزا . استلهمت فيه جماعية الإسلام . واستجابت به لضرورات المجتمع ومصلحه . .

أما في الميدان السياسي « للتمدن » فلقد كانت « المهدي » إبداعا يستلهم الأسطورة التراثية التي جعلت من « المهدي » ذلك البطل الأسطوري الذي تعدو السماء ليتنشل المجتمع من أزمته ويخلصه من مأزقه . فبسلط الأرض عدلا بعد أن امتلأت بالجور والفساد ! (٢٥)



هذا عن دعوات التجديد الديني السلفية : « الوهابية » . و « السنوسية » . و « المهدي » . ومبدى إسهام تجديدها السلفي في الاقتراب من مطلب أمنا في « الاستقلال الحضاري » و « النقطة الإسلامية » .

وإذا كانت هذه الدعوات وحركاتها قد منعتها « بداوة البيئة » من أن تولي « التمدن » ما يجعله النموذج الصالح للتعميم . والوافي باحتياجات النهضة الكفيلة بمواجهة الغزوة الأوربية المسلحة بخضارتها الحديثة . فإن هناك « فصيلة » أخرى

(٢٤) المصدر السابق ص ٢٢٨ - ٢٤٥ - ١٦٤ - ١٩٦ - ١٩٧ - ٢٦٥ - ٢٦٦ - ٢٦٨ - ٢٧١

(٢٥) لمزيد من التفاصيل . انظر كتابات [تيارات الفكر الإسلامى] ص ٢٧١ - ٢٨٤

من فصائل التجديد الديني قد برزت دعوتها من هذه الثغرات والسيئات ، وهي مدرسة [الجامعة الإسلامية] ، التي تبلورت من حول جمال الدين الأفغاني [١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م] والإمام محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م] وعبد الرحمن الكواكبي [١٢٧٠ - ١٣٢٠ هـ ١٨٥٤ - ١٩١٢ م] وعبد الحميد بن باديس [١٣٠٥ - ١٣٥٩ هـ ١٨٨٧ - ١٩٤٠ م] فتبار [الجامعة الإسلامية] هذا قد استفاد من تجارب أمتنا في هذا الميدان . . . ولذلك وجدنا عنده :

- (أ) السلفية في الدين . تجده . والعقلانية أداة في هذا التجديد . .
 - (ب) والعروة في القومية . . على أسس حضارية . غير عرقية .
 - (جـ) والموازنة بين الخصوصية الحضارية . وبين الاستفادة من الحضارات الأخرى . .
 - (د) والنظرة المستقبلية المستنيرة في « النمدن » . .
 - (هـ) والموازنة بين « الخصوصية القومية » للعرب . وبين « الرابطة الإسلامية » الجامعة لقوميات أمة الإسلام . .
- ففي فكر أعلام هذا التيار - الذي لم تقم بعد التجربة التي تجسده - تكمل العناصر الأولية والضرورية لمشروع الاستقلال الحضاري لأمتنا العربية الإسلامية . . .

(٤)

تيار الجامعة الإسلامية

أعلام هذا التيار :

أعلام تيار [الجامعة الإسلامية] كثيرون . وانتشارهم . بالذات أو بالفكر . قد غطى أنحاء الوطن العربي والعالم الإسلامي . وقد يتميز واحد منهم بقسمة فكرية عن آخر . وقد تدعو البيئة أو الأولويات أو طبيعة التحديات إلى أن يكون تركيز بعضهم على قضايا بعينها دون القضايا الأخرى . لكنهم . في مجموعهم . قد جمعتهم القسمة العامة التي ميزت هذا التيار التجديدي عن غيره من التيارات التي قادت حركة البقطة الإسلامية الحديثة

● وأول أعلام هذا التيار هو جمال الدين الأفغاني [١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ - ١٨٣٨ - ١٨٩٣ م] . عرف النسب - وإن ولد ونشأ في بلاد الأفغان - فنسبه يرجع إلى الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب . رضى الله عنهما . وعرف العقل والفكر منذ نشأته الأولى . فقبل أن يبلغ الثامنة عشرة من عمره كان قد درس . علوم العربية . والتاريخ . وعلوم الشريعة . من تفسير وحديث وفقه وأصول . وكلام وتصوف . والعلوم العقلية . من منطق وحكمة عملية سياسية ومترلية تهذيبية . وحكمة نظرية . طبيعية وإلهية . والعلوم الرياضية . من حساب وهندسة وجبر وهيئة أفلاك . ونظريات الطب والنشريح .

وهو سى المذهب . في نشأته . توثقت علاقته الشخصية والفكرية

بعلماء الشيعة وفكرها ومراكزها ، بالعراق ، منذ صدر شبابه .. فلما تبلورت دعويته للتجديد واليقظة كان عقله قد وصل به إلى حيث أصبح فوق المذاهب التي عرفتها المسلمين ، لأن سلفيته في الدين تسبق المذاهب ، وعقلايته ترفض البقاء في أسر خلافاتها التي تجاوزها العصر ، واستنارته تراها عقبه أمام ما يريد تحقيقه لأمته من نهضة وانطلاق .

وكان عداؤه للاستعمار مبكرا .. ولم يكن بالعداء الفكرى والنظري فقط ، فلقد انخرط منذ شبابه في التيار الوطنى الأفغانى الذى قاده الأمير محمد أعظم خان [١٢٨١ - ١٢٨٤ هـ - ١٨٦٤ - ١٨٦٧ م] لماواة النفوذ الانجليزى الطامع في أفغانستان .. ووصل مجال الدين في هذا النشاط الوطنى إلى منصب « الوزير الأول » في البلاد . وقاد معارك حربية ضد المتعاونين مع الانجليز . الذين تزعمهم الأمير شير على [١٢٤٠ - ١٢٩٦ هـ - ١٨٢٥ - ١٨٧٩ م] . فلما انتصر خصومه ، اضططر للسفر للهند [سنة ١٢٨٥ هـ سنة ١٨٦٨ م] . فلما ضيق عليه الانجليز فيها الحناق ، بدأ رحلته إلى الوطن العربى ، فوصل إلى مصر سنة ١٢٨٦ هـ سنة ١٨٦٩ م . ثم الآستانة .. ثم رجع إلى مصر فأقام بها قرابة التسع سنوات [١٢٨٨ - ١٢٩٦ هـ - ١٨٧١ - ١٨٧٩ م] كانت أخصب فترات حياته الفكرية والنضالية ، وفيها تبلور نياره ومذهبه في اليقظة والثورة والتجديد .

ففيها أملى على تلاميذه الأمانى والتعليقات التى شرح بها كتباً قديمة في الفلسفة الإسلامية .. وكان عهد مصر قد انقطع بهذا اللون من ألوان الفكر منذ أن زالت الدولة الفاطمية ، وأحلت « دول العسكر » تكايا الصوفية وخوانقها والمدارس الأشعرية محل [دار الحكمة] و [مجالس الدعاة] ومهاج [الأزهر] العقلانى ! ..

وفيها أنشأ ورعى تيار الصحافة غير الحكومية ، وكانت من قبله حكومية في الأساس . فكانت صحف [مصر] التي رأسها أدب اسحق [١٢٧٢ - ١٣٠٢ هـ ١٨٥٦ - ١٨٨٥ م] و [التجارة] التي رأسها سليم نقاش [١٣٠١ هـ ١٨٨٤ م] و [مرآة الشرق] التي أسسها إبراهيم الثقفي ، طليعة الصحافة الشعبية في البلاد .. وكان الأفغاني يكتب فيها بتوقيع : « مظهر بن وضاح » . كما كان يملئ على تلاميذه مقالات ينشرونها بأسمائهم . حتى نشأت من حوله كوكبة من الكتاب الشباب ، جددت أساليب العربية في الإنشاء ، وأدخلت فيها فن « المقال » الحديث ..

وفيها تبلور من حوله التيار الشعبي في التنوير .. ومن قبله كان جهاز الدولة المصرية هو المصدر الوحيد للتنوير .. وفيها كانت الترية الخصبة التي استقبلت بدور أفكاره أصيب استتبال . حيث نبت ونمت وأبنت . وآتت من الثمار ما لم تزل في بلد آخر حل فيه هذا الفيلسوف العظيم

وفيها أنشأ [الحزب الوطني الحر] الذي جمع تلاميذه وأنصار دعوته ، وهو الحزب الذي قاد الثورة العراقية وبعد هزيمتها هباً نفر من بنيه لنشأة [الحزب الوطني] الذي قاده مصطفى كامل [١٢٩١ - ١٣٢٦ هـ ١٨٧٤ - ١٩٠٨ م] ونفر آخر منهم انضم إلى جمعية [العروة الوثقى] السرية . التي قادها الأفغاني ، وأصدر مجلتها من باريس ..

ولما نفي جمال الدين من مصر . بإيعاز من القناصل الأوروبيين للمخيلوي توفيق [١٢٩٦ هـ ١٨٧٩ م] ذهب إلى الهند .. وهناك منع من الحركة حتى تمت هزيمة العراقيين .. فسافر إلى باريس [١٣٠٠ هـ ١٨٨٣ م] . ثم إلى لندن .. ثم عاد إلى باريس . فأصدر مجلة [العروة الوثقى] ومعه الشيخ محمد

عبده فلما توقفت ذهب إلى شبه الجزيرة العربية [١٣٠٣ - ١٨٨٦ م] .
 فايران [١٣٠٤ هـ - ١٨٨٧ م] . فوسكو . فيبوليج . فايران . ثانية
 [١٣٠٧ هـ - ١٨٩٠ م] . فالعراق [١٣٠٨ هـ - ١٨٩١ م] . فلندن ..

وفي كل هذه المواطن لم يعرف الرجل لنفسه حرفة سوى حرفة الثورة على
 الباقى . والدعوة إلى اليقظة والتجديد . ولم يتخذ لنفسه أسرة سوى الأنصار
 والتمايذ الذين أعدهم ودفع بهم في الصراع ضد الترحف الاستعماري
 الغربي ، الذي كان يحث الخطأ لالتهم بلاد العرب وأقطار الإسلام . وظل
 ذلك شأنه حتى نجح السلطان عبد الحميد [١٢٥٨ - ١٣٣٦ هـ - ١٨٤٢ -
 ١٩١٨ م] في استسلامه إلى الآستانة [١٣١٠ هـ - ١٨٩٢ م] . وهناك أحاطه
 بالعيون والجواسيس . فعاش في « قفص السلطان الذهبي » ! حتى فاضت
 روحه إلى بارئها [١٣١٤ هـ - ١٨٩٧ م] .. (٢٦)

● وثاني أعلام هذا التيار : الإمام محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ
 ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م] . الذي تعلم على الأفغانى . ثم فاقه في التركيز على
 الإصلاح الدينى . وإن لم يبلغ شأواً أستاذة في الفكر السياسى . وهو فلاح
 مصرى ، فقير في المال ، بلغ بعقله وفكره إلى مكان هائبة فيه الملوك . فقال
 عنه خصمه الحديوى عباس حلمى الثانى [١٢٩١ - ١٣٦٣ هـ - ١٨٧٤ -
 ١٩٤٢ م] : « إنه يدخل على كفرعون ! » . وداعبه أستاذة الأفغانى
 مستائلاً : « قل لى : ابن أى ملك من الملوك أنت ؟ » ..

دخل الأزهر صغيراً ، فصدده عن علومه جمود شيوخه وعقم وسائل

(٢٦) انظر دراستنا عن حياته في تقديمنا لأعماله الكاملة طبعه القاهرة سنة ١٩٦٨ م . وطبعة بيروت سنة

التعليم فيه . ثم أعانه نهج الصوفية المتسكين على مواصلة الدراسة . حتى كان لقاءه بالأفغانى [١٢٨٨ هـ - ١٨٧١ م] فحدث له التحول الكبير . فمن التصوف المتسكى تحول إلى التصوف الفلسفى . ومن أفق طلاب الأزهر المحدود انطلق إلى حيث استشراف الآفاق التى كان يستشرفها أستاذه . وفى صحبة الأفغانى . بمصر . كان أبرز مريدیه . ثم أصبح بعد تقيه « روح الدعوة » إلى التجديد . وأسهم . من موقع الاعتدال . فى الثورة العربية . ثم نرى فبمن نرى من قادتها . فعاش زمنا بباريس . يحرر [العروة الوثقى] . وينوب عن الأفغانى فى رحلات سرية لشئون الجمعية التنظيمية . ثم أقام ببيروت . فلما سمع له بالعودة إلى مصر . هجر العمل السياسى . وركز على محاولة إصلاح المؤسسات الإسلامية : الأزهر . والأوقاف . والقضاء الشرعى . مع التركيز على التجديد الدينى بتحرير العقل المسلم من أسر التقليد . وتعدد اللغة العربية وتطويرها . ولقد أصاب الكثير من النجاح فى العديد من المبادئ . ولكن صدامه مع الحديوى عباس حلقى أعاق الكثير من مشروعاته الإصلاحية . كما أن جمود أغلب شيوخ الأزهر قد منع جهوده الإصلاحية من بلوغ ما أراد لها فى إصلاح الأزهر . حتى لقد مات كمدا بسبب هذا الإخفاق [١٣٢٣ هـ - ١٩٠٥ م] (٢٧) ١١ .

● وفى المشرق العربى كان عبد الرحمن الكواكبي [١٢٧٠ - ١٣٢٠ هـ - ١٨٥٤ - ١٩٠٢ م] من أبرز من مثلت أفكاره القسبات الفكرية لهذا التيار . وهى الأفكار التى خلفها لنا فى كتابيه [أم القرى] و [طبائع الاستبداد] . ولقد ولد الكواكبي فى حلب . لأسرة كانت فيها ثقافة الأشراف قبل أن

(٢٧) انظر دراستنا عن حياته فى تقديمنا لأعماله الكاملة . ج ١ طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م

يقتصبها منها الشيخ أبو الهدى الصيادي [١٢٦٦ - ١٣٢٧ هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٩ م] ..

وفي [١٢٩٥ هـ ١٨٧٨ م] أصدر الكواكبي صحيفة [الشهباء] ، أول صحيفة عربية تصدر في ولاية حلب . فلم يمهلهما العثمانيون أكثر من خمسة عشر عدداً . فأصدر ، في العام التالي ، جريدة [الاعتدال] . ولقد أوصله نضاله إلى هجران الوظائف ، وإفلاس التجارة ، وتعرض حياته للخطر ثم قاده إلى السجن [١٣٠٣ هـ ١٨٨٦ م] . فلما اضطروا العثمانيون إلى الإفراج عنه تحت ضغط جماهير الولاية . أطلقوا سراحه . ثم عادوا للإلقاء القبض عليه . ولفقوا له الاتهام بالانتماء بدولة أجنبية . وحكموا بإعدامه ! . ولكن الجماهير عاودت ضغطها . فأجبرت العثمانيين على إعادة محاكمته خارج الولاية ، فعرضت القضية على محكمة بيروت ، التي حكمت ببراءته ! ..

وفي تلك الأثناء كان الكواكبي قد أنشأ [جمعية أم القرى] . وهي الجمعية التي عقدت مؤتمرها السري بمكة . والتي أصبحت مداورات مؤتمرها هذا أساس كتابه [أم القرى] . وفي هذا المؤتمر حضر ممثلون للبلاد العربية والإسلامية وللجاليات الإسلامية التي تعيش خارج العالم الإسلامي

ولما أضحت حياة الكواكبي مهددة في حلب . قرر الهجرة منها إلى مصر . فوصل إليها سرا [١٣١٦ هـ ١٨٩٩ م] . وفي مصر أقام من تناقضات كانت بين حكومتها والدولة العثمانية يومئذ . فنشر كتابه ، فصولاً في الصحف . ثم جمع الفصول فصدرت في الكتابين . ومنها قام برحلة إلى بلاد المشرق العربي ، والمناطق العربية والمسلمة في إفريقيا

وبعد نحو أربع سنوات قاضى روحه إلى بارئها . بمؤامرة دس فيها السم

له جاسوس من جواسيس السلطان عبد الحميد ، فكان استشهاده [١٣٢٠هـ - ١٩٠٢م] .. (٢٨)

● أما في المغرب العربي . فإن الشيخ عبد الحميد بن باديس [١٣٠٥ - ١٣٥٩هـ - ١٨٨٧ - ١٩٤٠م] يعد أبرز ممثلي هذا التيار . وهو من مواليد قسنطينة . بالجزائر . وفيها تعلم علوم العربية والإسلام . ومن شيوخه في تلك المرحلة : الشيخ حمدان الونيسي : الذي أخذ عليه عهداً أن يقاطع الحكومة الاستعمارية . فالتزم العهد ، وصار يأخذه على تلاميذه فيما بعد !

وفي التاسعة عشرة من عمره [١٣٢٦هـ - ١٩٠٨م] ذهب إلى جامعة الزيتونة ، بتونس . فدرس فيها ما لم يكن يستطيع أن يدرسه بالجزائر في ظل الاستعمار الفرنسي . الذي كان يحرم العربية ويطارد السات القومية للجزائريين كي يستحقها . وليجعل منهم فرنسيين « مسلمين » . ومن وطنهم الامتداد الفرنسي . عبر البحر المتوسط . في القارة الأفريقية !

وفي [١٣٣٠هـ - ١٩١٢م] سافر . حاجاً . إلى الحجاز . وهناك التقى بعدد من الشيوخ الجزائريين الذين هاجروا وجاوروا بمكة والمدينة . فعرض عليه بعضهم أن يحاور ، مثلهم . الحرميين الشرقيين . ولكنه كان قد شرب التفكير في مقاومة الاستعمار الفرنسي بالجزائر . فرفض الهجرة . وقال : « نحن لانهاجر . نحن حراس الإسلام والعربية والقومية في هذا الوطن » . وقبل عودته إلى الجزائر اتفق مع الشيخ البشير الإبراهيمي على خطة لتنفيذ البرنامج الذي لخصته كلماته هذه .. وكانت الخطة هي إعداد جيل من الرجال الذين يواجهون محاولة سحق القومي في الجزائر . ويعيدون الجزائر إلى « العروبة

(٢٨) انظر دراستنا عن حياته في تقديمنا لأعماله الكاملة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٥ م

والإسلام والقومية ... رجال « بملكون وضوحا في الهدف . وفكرة صحيحة
توصل إليه . حتى وإن كانوا ذوي علم قليل ! ويعرفون حدود غاياتهم . التي
تنتهي عند تسليم الأمانة لجيل ثان يعلن الثورة . ويستخلص الاستقلال من
المستعمرين ! »

ولقد مكث ابن باديس ثمانية عشر عاما بعد هذا الجيل . قائلا : أنا لا
أؤلف الكتب . وإنما أريد صنع الرجال !.. فكان يعظ في المساجد . ويقرأ
القرآن . ويعلم العربية للأطفال . ويجوب القرى والمدن ويصعد الجبال .
فاجتمع له من [١٣٣١ هـ - ١٩١٣ م] حتى [١٣٣٦ هـ - ١٩١٨ م] ألف من
هؤلاء الرجال !..

وعندما أقامت فرنسا احتفالاتها الصاخبة والاستفزازية . بمناسبة مرور قرن
على احتلالها للجزائر [١٣٤٩ هـ - ١٩٣٠ م] كان رد ابن باديس هو إعلان
المشروع الذي خطط له منذ [١٣٣٠ هـ - ١٩١٢ م] . فقامت [جمعية العلماء
المسلمين الجزائريين] في ذى الحجة ١٣٤٩ هـ مايو سنة ١٩٣١ م حملة رسالة
العودة بالجزائر إلى هويتها العربية الإسلامية . ومهددة الطريق لجيل الثورة
المسلحة على الاستعمار ..

وكانت أغلب « الطرق الصوفية » قد أصبحت سندا أساسيا للسلطة
الاستعمارية بالجزائر . فحاربها ابن باديس منذ سنة ١٣٤٣ هـ سنة ١٩٢٥ م .
وتعرض بسبب ذلك لمحاولة اغتياله [١٣٤٥ هـ - ١٩٢٧ م]

وفي [١٣٤٣ هـ - ١٩٢٥ م] بدأ نشاطه الصحفي . فشارك في تحرير
صحيفة [النجاح] . ثم أصدر مجلة [المنتقد] سنة ١٣٤٤ هـ سنة ١٩٢٦ م .
وكان شعارها : « الحق فوق كل أحد . والوطن قبل كل شيء ! » . فغطها

الاستعمار بعد ثمانية عشر عددا .. لكنه عاد فأصدر صحيفة [الشهاب] .
أسبوعية . ثم شهرية .. كما أصدر صحفا أخرى تعرضت للمصادرة والإلغاء .
منها [الشريعة] ، و [السنة المحمدية] و [الصراط] .

وقبل أن ينتقل ابن باديس إلى جوار ربه في ربيع الأول سنة ١٣٥٩ هـ
إبريل سنة ١٩٤٠ م كان قد وضع وطنه بيد الجيل الذي أعاده إلى أحضان
العروبة والإسلام . والذي صنع جيل الثورة المسلحة التي تفجرت ضد فرنسا
[١٣٧٤ هـ ١٩٥٤ م] وحقق بدماء المليون شهيد استقلال الوطن الجزائري
العربي المسلم سنة ١٣٨٢ هـ سنة ١٩٦٢ م . فتحقق الهدف الذي رسمه ابن
باديس ، بمكة ، قبل نصف قرن . يوم قال : « نحن لانهاجر نحن حراس
الإسلام والعربية والقومية في هذا الوطن ! » . فأثبت أن الإسلام والعربية
والقومية لن تضيق . ولن يضيق من أحضانها الوطن إذا كان لها حراس من
أمثال عبد الحميد بن باديس . وأثبت أيضا أنه أبرز ممثلي تيار [الجامعة
الإسلامية] وأعظم أعلامه في بلاد المغرب العربي على الإطلاق ! ... (٢٩) .

هذا عن أبرز أعلام هذا التيار ..

والمناخ الذي تبلور فيه :

في مصر - أكثر المجتمعات العربية الإسلامية تحضرا وتطورا - تبلور تيار
[الجامعة الإسلامية] حول رائده جمال الدين الأفغاني . ولذلك . فلقد
كان مستحيلا أن يصطبغ فكر هذا التيار بصبغة « البداوة » ، التي اضطربت
بها دعوات تجديدية إسلامية تبلورت في محيط بدوي ، « كالوهابية » .

(٢٩) انظر الفصل الذي كتبناه عنه بكتابنا [مسلمون نوّار] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٨ م .

مثلا .. وكان مستحيلا أن يقف هذا التيار من « العفلائية » ومن « التثدن » موقفا غير ودي .. كما كان مستحيلا ، كذلك ، بحكم الانتماء الإسلامي والمصطلقات الإسلامية لهذا التيار ، أن يسلك إلى التجديد طريق « التغريب » ! ..

لقد كان تبلور هذا التيار ، بمصر ، طليعة قيام « التيار الشعبي » ، المتميز عن « جهاز الدولة » - الذي انفرذ بالتطوير والتطوير للمجتمع حتى ظهور هذا التيار في سبعينيات القرن التاسع عشر - وهو لم « يتميز » ، فقط ، عن « جهاز الدولة » ، بل واتخذ منه موقف « المعارضة » في الكثير من الأحيان ! ولذلك فإن هذا التيار قد برئ من « التغريب » ، الذي مالت إليه تجربة النهضة المصرية ، خاصة على عهد اخديوى إسماعيل [١٢٧٩ - ١٢٩٦ هـ ١٨٦٣ - ١٨٧٩ م] بحكم إسلاميته وشعبيته . ثم هو ، بحكم موقفه « التجديدى » ، قد رفض « جمود » المؤسسات التقليدية ، تلك التى وقعت عند فكرية العصر « المملوكى - العثمانى » - فأسهمت بليتها تجاه النهضة الحديثة ، في إسلام التجربة « للتغريب » ! فكان أن انسم فكر هذا التيار بسمة « التوازن » ، المميزة لحضارتنا العربية الإسلامية . عندما طرح تصور نهضة الشعوب المشروع الحضارى المستقل لأمتنا العربية الإسلامية

لقد نجسد في تيار [الجامعة الإسلامية] بحث هذه الأمة عن ذاتها ، وسعيها للنجاح من خطر المد الاستعماري ، المسلح « بالتقدم » الحضاري الغربي . والسعيين على غزونا « بالتخلف » ، المملوكى - العثمانى ! وللنجاح . كذلك . من « التخلف » ، المملوكى - العثمانى . . الذى تحول إلى قيد يعوق الأمة عن التصدى لعاصفة الاستعمار و « التغريب » !

ولقد تحول بحث أمنا عن ذاتها ، في فكر هذا التيار ، إلى دعوة للتجديد الذاتي في الدين والدنيا . ينهض فيها « العقل » بدور المصباح الذي يترى الطريق - طريق الدنيا ، وأيضا طريق الدين ! وصولا إلى بلورة حضارة مستقلة تصنع تمدنا إسلاميا متميزا ، وتكون الطور العصري لحضارتنا التي ازدهرت في حقبة سابقة من التاريخ .

ولقد أذن هذا التيار ، بصوت الأفغانى ، في ربوع الشرق بالنهضة ، وبشر بها عندما قال : « لقد أوشك فجر الشرق أن ينبثق ، فقد ادهمت فيه ظلمات الخطوب » ، وليس بعد هذا الضيق إلا الفرج ! .. إن هذا الشرق ، وهذا الشرق لا يلبث طويلا حتى يهب من رقاده ، ويمزق ماتنقع ونسريل به هو وأبناءؤه من لباس الخوف والذل ، فيأخذ في إعداد عدة الأمة الطالية لاستقلالها ، المستنكرة لاستعبادها .. (٣٠) .

ويحكم الانتماء الإسلامى لأعلام هذا التيار ، وولائهم الأول للإسلام « الدين » وه الحضارة » . كان وضوح فكره عن أن الإسلام هو أساس هذه النهضة ، وهو أداؤها ، وهو الحافز إليها .. فالإسلام هو « فكرية » - [أيديولوجية] - الأمة ، الفعالة ، إذا تجددت ، في بعث طاقاتها ودفعها لبناء حاضرها ومستقبلها ، على نحو مستقل ومتميز حضاريا . وأمام هذا « انكتر » ، الذى يمثل « الفرصة » الطبيعية والمواتية ، لامنطق عند الذين يزكونه ثم يبحثون عن « البديل » ؟! .. « فهذه سبيل لمريد الإصلاح في المسلمين لامتدوحة عنها ، فإن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين يحوجه إلى إنشاء بناء جديد ، ليس عنده من مواده شيء ، ولايسهل

(٣٠) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى) ص ٢٣ ، ٢٤٣

عليه أن يجد من عماله أحدا . وإذا كان الدين كافلا بنهذيب الأخلاق وصلاح الأعمال وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها . ولأهلها كل الثقة فيه . وهو حاضر لديهم ، والعناء في إرجاعهم إليه أخف من إحداث مالا إمام لهم به . فلم العدول عنه إلى غيره ؟... (٣١) كما يقول . ويتساءل الإمام محمد عبده ! .

إن أهل المدينة لا يلبون أذان من يؤذن لهم من خارج السور !؟ وفي أحسن الفروض مبيح هذا المؤذن « صفوة » من السهل حصارهم ، وتوجيه الاتهام إلى فكرهم الوافد . ثم اقتلاع هذا الفكر من الجذور ! . وليس كذلك الحاز مع فكر هو « أيديولوجية » الأمة كلها . إذ لا قبل لأعداء هذه الأمة بالتصدي له . إن هو تحول ، بالتجديد ، إلى طاقة خلاقة تحرك الأمة نحو تحقيق أهدافها ! .

لكن كون الإسلام هو أساس النهضة ، وأداتها ، وحافزها ، لا يعني أن في مآثورات هذا الدين ، وفكر السلف ، وتطبيقات الماضين كل ما تحتاجه « دنيا » حاضرتنا ومستقبلنا . فهو ، في هذا الميدان ، « حافز » يحمل النفوس على « طلب السعادة من أبوابها » ، بصرف النظر عن لون هذه الأبواب . ومصادرها . وعقائد مبدعها ، وأجتماعهم القومية ، ومواقعهم على خريطة الكوكب الذي نعيش فيه . خريطة أن لا تتعارض مع « الأطر » و « المثل » و « الغايات والمقاصد » و « الفلسفات » و « الخلدوت » التي حددها « الإسلام » الدين . فـ « السلفية في الدين » تاملها وتواكبها . في فكر تيار [الجامعة الإسلامية] : « المستقبلية والاستنارة والتفتح في التمدن والحضارة » . ومن هنا

بأنى المعنى العميق والموحى لكلمات الإمام محمد عبده التى نقول : « لورزق الله المسلمين حاكما يعرف دينه ، ويأخذهم بأحكامه ، لوأنهم قد نبضوا ، والقرآن الكريم فى إحدى اليدين ، وما قرأ الأولون وما اكتشف الآخرون فى اليد الأخرى ، ذلك لآخريهم ، وهذا لدنياهم ، ولساروا يزاحمون الأوربيين فيزحمونهم ! » (٣٢)

ذلك أن حضارتنا العربية الإسلامية موقفا أصيلا وقديما تميز بين ما هو داخل فى السمات والسمات التى تتميز بها هذه الحضارة وبين ما هو داخل فى « الأدوات » التى تتخذ سبلا لتطوير الدنيا وتقدمها وللإستدلال والنظر فى الموجودات . فالخصوصية والتميز لاتعنى الانغلاق وسد المنافذ والأبواب دون التفاعل مع حضارات الآخرين . وقديما عرض أبو الوليد ابن رشد [٥٢٠ - ٥٩٥ هـ - ١١٢٦ - ١١٩٨ م] لهذه القضية فقال : « إنه يجب علينا أن نستعين - على ما نحن بسبيله - بما قاله من تقدمنا فى ذلك . وسواء أكان ذلك الغير مشاركا لنا أو غير مشارك فى الملة . فإن الآلة التى تصح بها التذكية لا يعتبر فى صحة التذكية بها كونها آلة لمشارك لنا فى الملة أو غير مشارك ، إذا كانت فيها شروط الصحة . وأعنى بغير المشارك : من نظر فى هذه الأشياء من القدماء قبل ملة الإسلام ! » (٣٣)

لكن الشرط الذى لا بد من تحقيقه حتى ينهل الإسلام بهذا الدور النضال والبناء فى تجديد « دنيا » الأمة ، هو أن يتجدد هذا « الدين » . فينتفض مجدوده عنه البدع والخرافات والإضافات ، التى جعلته غريبا إذا نحن

(٣٢) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٥١ ، ٢٥٢

(٣٣) ابن رشد [فصل المقال فى الحكمة والشريعة من الاتصال] ص ٢٦ دراسة وتحقيق د محمد عازة . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢ م . [والتذكية هى الذبح]

عقدنا المقارنة بينه وبين حقيقته وجوهه . كما تلقاه نبيه . عليه الصلاة والسلام . عن الله . سبحانه وتعالى ... فلا بد ، أولاً . من « حكماء لا يبالون بغوغاء العلماء المراثين الأغبياء » والرؤساء القساة الجهلاء . يحددون النظر في الدين . نظر من لا يحفل بغير الحق الصريح ... وبذلك يعيدون النواقص المعطلة في الدين . ويهذبونه من الزوائد الباطلة . مما يطرأ عادة على كل دين يتقدم عهده . فيحتاج إلى مجددين يرجعون به إلى أصله المبين ... » كما يقول عبد الرحمن الكواكبي (٣٤) .

فبالسلفية العقلانية يتجدد الدين ... ومن ثم يلعب دوره الخلاق في تجديد الدنيا . التي لابد لتجديدها من الاستنارة والنظرة المستقبلية ، المفتحة على مختلف التيارات الحضارية . من موقع الراشد الناضج ، المدرك لما بين « الثابت » و « المتغيرات » من فروق ! ...

الموقف الوسطي (المتوازن) :

ولقد كان واضحاً أن تيار [الجامعة الإسلامية] يمثل الموقف الثالث . والوسط بين التيارين اللذين استقطبا جمهور الأمة وقادتها في ذلك التاريخ ... فعن عييته أهل « الجمود » المتحصنون بالمؤسسات العريقة العتيقة التقليدية ، أولئك الذين توقف بهم « الفكر » عند نمط العصر المملوكي - العثماني « في التفكير » .. وعن يساره دعاة « التغريب » . الذين يهترجهم حضارة أوربا ، وزادهم بها إيماناً وانهاراً نفورهم من الصورة التي يقدمها للإسلام وتراثه أهل « الجمود » ! ... والإمام محمد عبده يحكي كيف بشر تيار [الجامعة الإسلامية] بهذا الموقف الوسطي الجديد . فيقول . وهو

(٣٤) (الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي) ص ١٨٦ ، ١٨٧ .

« يترجم » لِنشأته وتربيته ومذهبه : لقد « نشأت كما نشأ كل واحد من الجمهور الأعظم من الطبقة الوسطى من سكان مصر . ودخلت فيها فيه يدخلون ، ثم لم ألبث ، بعد قطعة من الزمن ، أن سئمت الاستمرار على ما يألون . واندفعت إلى طلب شيء مما لا يعرفون . فعمرت على عالم يكونوا يعثرون عليه . وناديت بأحسن مما وجدت . ودعوت إليه . وارتفع صوتي بالدعوة إلى تحرير الفكر من قيد التقليد . وفهم الدين على طريقة سلف الأمة . قبل ظهور الخلاف . والرجوع في كسب معارفه إلى منابعها الأولى . واعتباره من ضمن موازين العقل البشرى التى وضعها الله لترد من شططه . وتقل من خطئه وخطئه . لنتم حكمة الله في حفظ نظام العالم الإنسانى . وأنه على هذا الوجه يعد صديقا للعلم . ياعنا على البحث في أسرار الكون . داعيا إلى احترام الحقائق الثابتة . مطالبا بالتعويل عليها في أدب النفس وإصلاح العمل . كل هذا أعده أمرا واحدا

وقد خالفت في الدعوة إليه رأى الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة :

- طلاب علوم الدين . ومن على شاكلتهم .
- وطلاب فنون هذا العصر . ومن هو في ناحيتهم .

ثم يتحدث الإمام محمد عبده عن موقعه في هذا التيار ، الذى كان الأفغانى رائده . فيقول : « نعم ، إننى لم أكن الإمام المتبع . ولا الرئيس المطاع . غير أنى كنت روح الدعوة . وهى لا تزال فى ، فى كثير مما ذكرت .
قائمة ! » (٣٥)

(٣٥) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٢ ص ٣١٨ ، ٣٢٠

فنحن هنا بإزاء : موقف ثالث . وموقع ثالث . وتيار ثالث . يتوسط بين أهل « الحمود » ، وبين دعاة « التغريب » .

وإذا كان هذا التيار يدعو إلى « السلفية الدينية » ، وإلى « فهم الدين على طريقة سلف الأمة » ، قبل ظهور الخلاف ، والرجوع في كسب معارفه إلى بنايعها الأولى فإنه لا يمتطابق ، في هذا الموقف ، مع نمط السلفية « البدوية » ، التي وقفت عند « ظاهر النص » ، واتخذت من « العقل » موقفا غير ودي . . والتي ، لهذه « البداوة » ، لم تتعاطف مع « الثنن » والموقف المستقبلي في الحضارة وشعون الدنيا . فهذا التيار ينتقد ، صراحة ، هذا اللون من « السلفية النصوصية » . بل ويرى أن أصحابها كانوا « أضيق عطنا - [أفقا] - وأحرج صدرا من المقلدين ! . فهم ، وإن أنكروا كثيرا من البدع ، ونحوا عن الدين كثيرا مما أضيق إليه ، وليس منه ، إلا أنهم يرون وجوب الأخذ بما يفهم من لفظ الوارد ، والتقييد به ، دون الثبات إلى ما تقتضيه الأصول التي قام عليها الدين . وإلها كانت الدعوة . ولأجلها منحت النبوة . فلم يكونوا للعلم أولياء ، ولا للمدينة أحياء . » (٣٦) ١٤ .

وعلى حين اتخذت « سلفية البداوة النصوصية » هذه موقفا غير ودي من « العقل » في « الفكر الديني » ، انعكس على موقفها من « العلم والمدينة » . رأينا تيار [الجامعة الإسلامية] يعلى من سلطان العقل في حقلي « الدين » و « الدنيا » جميعا . بل لقد اعتبر « الدين » من ضمن موازين العقل البشري . التي وضعها الله لئلا من شطط هذا العقل . ونقل من خلطه وخبطه . لتتم حكمة الله في حفظ نظام العالم الإنساني . فالصلة بينهما -

(٣٦) المصدر السابق . ج ٣ ص ٣١٤

بين « الدين » و « العقل » - متينة ، والعروة بينهما وثقى ! فالدين : صديق للعلم ، يحرك الإنسان للبحث في أسرار الكون ، ويحترم الحقائق العلمية الثابتة ، ويعول عليها في الإصلاح .

وإذا كان الدين ميزانا من موازين العقل البشرى ، فإن هذا « العقل هو جوهر إنسانية الإنسان ... وأفضل القوى الإنسانية على الحقيقة » (٣٧) وهو نقطة الافتراق التي ميزت الإنسان عن غيره من الحيوانات .. جعلها الله محور صلاحه وفلاحه !... (٣٨)

وبينا رفضت « سلفية الهداة النصوصية » : الحكمة - [الفلسفة] - بل و « علم الكلام » ؟ . تحدث تيار [الجامعة الإسلامية] عن « الحكمة » باعتبارها « مقتلة القوانين » وموضحة السبل ، وواضحة جميع النظامات ، ومعينة جميع الحدود . وشارحة حدود الفضائل والردائل . وبالجملة . فهي : قوام الكالات العقلية والخلقية - فهي أشرف الصناعات !... (٣٩)

وهذا المقام الرفيع الذى احتله « العقل » فى سجع تيار [الجامعة الإسلامية] ، لم يقف عند حدود فكر « الدنيا » والخصارة والمجتمع « ، بل تعدى هذا الإطار إلى ميدان « الفكر الدينى » .. فالنظر العقلى هو السبيل الذى يصل به المسلم إلى اليقين فى العقائد ، إذ لا يقبل مع التخرج من النظر ، وإنما يكون اليقين بإطلاق النظر فى الأكوان . طوها وعرضها . وحتى يصل إلى الغاية التى يطلبها بدون تعسّد .. فانه يخاطب ، فى كتابه ، الفكر والعقل والعلم ، بدون قيد ولاحد . والموقف عند حد فهم العبارة

(٣٧) المصدر السابق . ج ٥ ص ٢٢٨ ، ج ٣ ص ٢٩٨

(٣٨) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٢٥٦ : ٢٥٧

(٣٩) المصدر السابق . ص ٢٦٠

مضر بنا : ومناف لما كتبه أسلافنا من جواهر المعقولات ، التي تركنا كتبها فراشا
للأثرية وأكلتها للسوس ، بينما انتفعت به أمم أخرى أصبحت الآن تنعت باسم
النور...!

والقرآن - وهو وحده المعجز الخارق - قد دعا الناس إلى النظر فيه
بعقولهم . فهو معجزة عرضت على العقل . وعرفته القاضى فيها . وأطلقت
له حق النظر في أبحاثها ، ونشر ما انطوى في أبحاثها . فالإسلام لا يعتمد على
شيء سوى الدليل العقلى . والفكر الإنسانى الذى يجرى على نظامه الفطرى .
فلا يدهشك بخارق للعادة ، ولا يغشى بصرك بأطوار غير معتادة ، ولا يغرس
لسانك بقارعة سماوية ، ولا يقطع فكرك بصبغة إلهية والمرء لا يكون مؤمنا
إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى اقتنع به . . . فمن ردى على التسليم بغير
عقل . والعمل . ولو صالحا . بغير فقه . فهو غير مؤمن . لأنه ليس المقصد
من الإيمان أن يذلل الإنسان للخير ، كما يذلل الحيوان ، بل المقصد منه أن
يرتقى عقله ويتركى نفسه بالعلم بالله والعرفان فى دينه ، فيعمل الخير لأنه يفقه
أنه الخير النافع المرضى لله ، ويترك الشر لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته
فى دينه ودنياه [ص ٥٠]

ولقد كانت هذه « العماليه الإسلاميه » عاملا من عوامل تميز تبار
[الجماعة الإسلاميه] ، لا عن « سلفية البداوة النصوصيه » وحدها . بل
وعن أهل « الجسود » الذين تصوروا توحيد الله ونفردة بالخلق مستلزما
لإنكار قيام المسببات على أسبابها الطبيعية ، ولإنكار وجود القوانين الكونية
والطبيعية الثابتة والحاكمة فى الكون والمجتمعات

كذلك كانت عقلانية هذا التيار مميزة له عن تيار « الثغريب » - الذى تنبى نفر من أهله مادية الغرب الفلسفية - تلك التى ظن أهلها أن التسليم بوجود السنن والقوانين الثابتة فى الكون والمجتمع يستلزم نفي الألوهية والوحي والرسالات .

فهذه « العقلانية الإسلامية » جدد تيار [الجامعة الإسلامية] نظرة الإنسان المسلم للكون . عندما أقام الموازنة والتوازن بين « التوحيد » - الألوهية - وبين « الطبائع » - السنن والقوانين والعلمية - والارتباط الضرورى بين الأسباب والمسببات - . وعندما ميز بين مهام الرسل والوحي وبين « عالم العقل ونطاقه » . ورأى أن « حاجة العالم الإنسانى إلى الرسل هى حاجة روحية ، وكل ما لامس الحس منها فالقصد فيه إلى الروح ، أما تفصيل طرق المعيشة ، والحدق فى وجوه الكسب ، وتطاول شهوات العقل إلى درك ما أعد للوصول إليه من أسرار العلم . فذلك مما لا تدخل للرسالات فيه إلا من جهة العظة العامة والإرشاد إلى الاعتدال فيه كى لا يحدث ريبا فى الاعتقاد ولا بصيب أحدا من الناس بشر فى نفسه أو عرضه أو ماله بغير حق ... مثالا : حقيقة النبق والرعد والصاعقة ، وأسباب حدوثها : ليست من مباحث القرآن . لأنها من علم الطبيعة [أى الخليفة] . وسوادت أجور التى فى استطاعة الناس معرفتها بجتهادهم . ولا تتوقف على الوحي . وإنما تذكر الظواهر الطبيعية فى القرآن لأجل الاعتبار والاستدلال . وصرف العقل إلى البحث الذى يقوى به الفهم والدين . لاتقرير القواعد الطبيعية ، ولا إلزاما باعتقاد خاص فى الخليفة ! ... » (١)

(١) المصدر السابق . ج ٢ ص ٢٦٠ + ٢٦٢ + ج ٤ ص ٩٤

والأفغانى يتحدث عن هذا الفريق بقول : « لقد شيد العثمانيون عددا من المدارس على النمط الجديد : وبعثوا بطوائف من شبانهم إلى البلاد الغربية ليحملوا إليهم ما يحتاجون من العلوم والمعارف والآداب ، وكل ما يسمونه « تمدنا » . وهو في الحقيقة تمدن للبلاد التي نشأ فيها على نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنساني ! . فهل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك . وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة ١٤ . نعم . ربما وجد بينهم أفراد يتشددون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية - [القومية] - وما شاكلها .. وسموا أنفسهم زعماء الحرية .. ومنهم آخرون قبلوا أوضاع المباني والمساكن وبدلوا هيئات المآكل والملابس والفرش والآنية . وسائر الماعون . وتنافسوا في تطبيقها على أجود ما يكون منها في الممالك الأجنبية . وعدوها من مفاخرهم فنفوا بذلك ثروة بلادهم إلى غير بلادهم ! . وأماوت أرباب الصنائع من قومهم .. وهذا جدد لألف الأمة . يشوه وجهها . ويحط بشأنها ! . لقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة . المتحلين أطوار غيرها . يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها . وطلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات . يمهدون لهم السبيل . ويفتحون الأبواب . ثم يشنون أقدامهم ١٥ . »

فكما أن النهضة يعوقها « الجمود » عند فكرية عصر التراجع الحضارى وتختلف التمدن الإسلامى فإن « التغريب » يفقدها استقلالها . ويلبس الأمة غير ثيابها . ويحردها من إمكاناتها وعوامل قوتها . ويبدد طاقاتها فيما يفيد عدوها . فيزيد ضعفها في مواجهة التحديات ! كل ذلك على وهم أن تصبح جزءا من حضارة الغزاة .. والطريقان - « الجمود » و « التغريب » -

فهذه «العقلانية الإسلامية» تميز هذا التيار «السلي» - العقلاني -
المستنير» عن «سلفية البداوة النصوصية» ... وعن «أهل الجحود» ...
وعن «دعاة التغريب» !..

● فأنصار «سلفية البداوة النصوصية» : قد نفصوا عن العقائد
والتصورات والعبادات الدينية غبار البدع والخرافات . لكنهم وقعوا أسرى
لظواهر النصوص . ثم هم «لم يكونوا للعلم أولياء» . ولا للمدنية
أحباء... !.

● و«أهل الجحود» : لا يتعلمون من الدين إلا بعض المسائل الفقهية
وطرفا من العقائد على نهج يبعد عن حقيقتها أكثر مما يقرب منها ! وجل
معلوماتهم : تلك الروائد التي عرضت على الدين . ونشئ ضررها . ولا
يرجى نفعها . و«علمائهم» أقرب للتأثر بالأوهام والانقياد إلى الوساوس من
العامية . وأسرع إلى مشابعتها منهم !.. فبناؤهم فيما هم عليه مما يؤخر
الرعية ! (٢٢) كما يقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده .

● أما «دعاة التغريب» . سواء منهم من درس في عواصم الغرب .
فاندھش بحضارته . وأصبح داعية لتقليدها . أو من تعلم منهم في المؤسسات
التعليمية التي أقامها محمد علي بنصر . أو العثمانيون بتركيا . فإن نهجهم ليس
كاملا لاستغلال الأمة حضاريا . بل لقد أصبح هؤلاء بمثابة السبل
والقنوات التي يتسلل منها العدو إلى عقل الأمة ووجدانها كي يثبت في وطنها
الأقدام ويحكم حول عنقها الأغلال !؟

(٢٢) المصدر السابق ج ٣ ص ١١٢-١١٤

كلامها مرفوضان من تيار [الجامعة الإسلامية] - الذي يستعين على التبهضة - «الأصالة» و«التجديد والتطور» .. فلا تقف حيث وقف «سلف» العصر المملوكي - العثماني .. ولا تبدأ من حيث انتهى الأوروبيون .. ذلك : «أن الظهور في مظهر القوة» لدفع الكوارث، إنما يلزم له التمسك ببعض الأصول التي كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم .. ولا ضرورة، في إيجاد المنعة، إلى اجتماع الوسائط وسلوك المسالك التي جمعها وسلكتها بعض الدول الغربية الأخرى، ولا ملجئ للشرق في بدايته أن يقف موقف الأوربي في نهايته، بل ليس له أن يطلب ذلك، وفيما مضى أصدق شاهد على أن من طلبه فقد أوقر نفسه وأمتته وقروا (١١) أعجزها وأعوزها !...» (١٥).

في «الجمود» .. وفي «التغريب» .. كليهما : «حرج لألف الأمة، يشوه وجهها، وعطت بشأنها» .. ويفقدها الاستقلال الحضاري، الذي هو جوهر يقظتها الإسلامية المنشودة.



الدولة : إسلامية .. مدنية :

وفي علاقة «الدين» - «الدولة» .. أبرز تيار [الجامعة الإسلامية] تميز حضارتنا العربية الإسلامية عن الحضارة الغربية، إن في «الفكر» أو في «التطور التاريخي» .. فلا كهانة في الإسلام، ولا دولة ثيوقراطية في تاريخ المسلمين، وأيضاً ليست العلمانية - بما تعنيه من فصل الدين عن الدولة - هي

(١١) أي أعجزها وأذلها، وصدعها !

(١٥) [الأعمال الكاملة لحال الدين الأفغان] ص ٥٣٣

نموذج اليقظة الإسلامية في هذا الميدان

● «إسلامية» الدولة . . . في بقضتنا الإسلامية المنشودة لاتعني أنها « دولة دينية ثيوقراطية » . كما عنت ذلك مسيحيتها في الحضارة الكاثوليكية الغربية فطبيعة « السلطة الدينية » للدولة مما يأباه نهج الإسلام . فالكاثوليكية الغربية هي التي « جعلت أصلا من أصول المسيحية كون السلطة الحقيقية : [مدنية - سياسية - دينية] في نظام واحد . لا فصل فيه بين السلطين . . . أما الإسلام . فإنه « ليس فيه سلطة دينية . سوى سلطة الموعظة الحسنة . وهي سلطة تحوّلها الله لكل المسلمين . أدانهم وأعلاهم . . . وليس للحليفة . أو القاضي . أو المفتي . أو شيخ الإسلام أية سلطة دينية . بل إن كل سلطة تناوذا واحد من هؤلاء فهي سلطة مدنية ! فليس في الإسلام سلطة دينية بوجه من الوجوه ١٤ » (١٦)

● ونفي « السلطة الدينية » و « الثيوقراطية » عن الدولة الإسلامية لايغني « علمانية » هذه الدولة ، ونحرها من هيمنة الشريعة الإسلامية . وفصلها عن الدين . ذلك لأن الإسلام ليس مجرد رسالة روحية خالصة ، وإنما هم موقف كل وفلسفة شمولية وأيديولوجية حياتية وضع المعايير والفلسفات والأطر للنظام المدني أيضا . « فالإسلام : دين ، وشرع ، فقد وضع حدودا . ورسم حقوقا . وليس كل معتقد في ظاهر أمره يحكم بحكم يجرى عليه في عمله . فقد يغلب أخرى وتحكم الشهوة ، فيغبط الحق . ويتعدى المعتدلى الحد . فلا تكمل الحكمة من تشريع الأحكام إلا إذا وجدت قوة لإقامة الحدود . وتنفيذ حكم القاضي بالحق . وصون نظام الجماعة وثبتت القوة لايحجز أن

(١٦) (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده [ج ٢ ص ١٧٥ - ج ٣ ص ٢٨٨ - ٢٨٦ - ٢٨٥])

تكون فوضى في عدد كثير ، فلا بد أن تكون في واحد ، وهو السلطان أو الخليفة ^(٤٧) - [الدولة] - . فإله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن !

● فهي ، إذن ، « دولة » : « إسلامية » و « مدنية » في ذات الوقت للشرعية مكان السيادة والهيمنة على « واقعها الحي » وعلى « القانون » المنظم لحياة هذا الواقع والأمة هي مصدر السلطة والسلطان في التشريع والتفتين لمقاصد هذه الشريعة وتجسيد فلسفاتها واقعاً . ووضع مقاصدها في الممارسة والتطبيق . . .

وإذا كانت « الحرية » فريضة إسلامية ، وضرورة شرعية إنسانية . وليست مجرد حق من حقوق الإنسان . فإن حرية الأمة لن تتحقق إذا لم تكن ، في سياسة الدولة والمجتمع . مصدراً للسلطة والسلطان . « فالحكمة والعدل في أن تكون الأمة ، في مجموعها ، حرة مستقلة في شئونها ، كالأفراد في خاصة أنفسهم . فلا يتصرف في شئونها العامة إلا من تلق منهم من أهل الحل والعقد ، المعبر عنهم في كتاب الله بأولي الأمر . لأن تصرفهم ، وقد وثقت بهم ، هو عين تصرفها ، وذلك منتهى ما تكون به سلطتها من نفسها . » ^(٤٨)

بل إن كون الأمة هي مصدر السلطة في حياتها السياسية ليلبغ الحد الذي يجعلها الحاكمة على الدولة . . فهي تباع الحاكم وتتوجه - إن كان ملكاً - على شرط الدستور والقانون ، فإن وفي كانت له حقوق الطاعة . وإلا « فإما

(٤٧) المصدر السابق ج ٣ ص ٢٨٧

(٤٨) المصدر السابق ج ٥ ص ٢٥٨

أن يبقى رأسه بلا تاج ، أو تاجه بلا رأس ١٤. (٤٩)

هكذا كشفت مدرسة [الجامعة الإسلامية] النقاب عن الوجه المشرق للإسلام في هذا الموضوع .. موضوع طبيعة السلطة السياسية في الدولة والمجتمع كما يراها الإسلام ، واليقظة الإسلامية الحديثة ..

والعروبة المتميزة في المحيط الإسلامي :

بعض الناس لا يستسيغون القول بأن لتيار [الجامعة الإسلامية] موقف « قومي عربي » ، أبصر تميز العرب . قوميا ، في المحيط الإسلامي ، بل وعقد لهم لواء القيادة في هذا المحيط ! لا يستسيغون هذا القول ، ويتساءلون ، منكرين ومستنكرين : أنى يوجد للفكر القومي مكان عند دعاة الجامعة الإسلامية ؟! .. ألا يدخل ذلك في باب الجمع بين المتناقضات ؟!

لكننا نقول : إن هذا الرأي لا يعدو أن يكون ثمرة من ثمرات النظرة السطحية للأمور ، النابعة من الكسل العقلي ، الذي يمنع هؤلاء من فقه الفكر والمواقف التي بلورها تيار [الجامعة الإسلامية] حول هذا الموضوع .

فالأفغانى الذى قال : « لقد علمنا ، وعلم العقلاء أجمعون أن المسلمين لا يعرفون لهم جنسية - [أى قومية] - إلا في دينهم واعتقادهم » ، والذى دعا المسلمين قاطبة إلى الاعتصام « بحبال الرابطة الدينية ، التي هي أحكام رابطة اجتمع فيها التركي بالعربي ، والفارسي بالهندي ، والمصري بالمغربي . وقامت لهم مقام الرابطة النسبية » (٥٠) هو ذاته الذى يقول : « إنه

(٤٩) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٤٧٨ ، ٤٧٩

(٥٠) المصدر السابق ص ٣٠٧ ، ٣١٠ .

للاسييل إلى تمييز أمة عن أخرى إلا بلغتها . والأمة العربية هي عرب قبل كل دين ومذهب .. وهذا الأمر من الوضوح والظهور للعيان بما لا يحتاج معه إلى دليل أو برهان .. » (٥١)

وفي الوقت الذي مارس فيه الأفغانى الدعوة لقيام رابطة [للجامعة الإسلامية] بقيادة السلطان العثماني عبد الحميد الثاني [١٢٥٨ - ١٣٣٣ هـ - ١٨٤٢ - ١٩١٨ م] لتجميع عالم الإسلام ضد التدخل الاستعماري الأوربي . كان صوته يعلو بتقد الدولة العثمانية لرفضها الاستعرا ب . وتحويل الترك ، بواسطة اللغة والحضارة . إلى « جزء من الأمة العربية » ! فكتب عن هذا : « الخطأ العثماني القاتل » يقول : « لقد أحمل الأتراك أمرا عظيما . وهو اتخاذ اللسان العربي لسانا للدولة . والسعي لتعريب الأتراك . وإنما فعلت العكس . إذ فكرت بتثريك العرب . وما أسفها سياسة وأسقمه من رأي ! » فكيف يعقل تثريك العرب . وقد تباوت الأعاجم في الاستعرا ب وتساقبت . وكان اللسان العربي لغير المسلمين . ولم ير . من آخر الجامعات وأكبر المفاهير ! .. إنها لو تعربت لانتفت من بين الأمم النعرة القومية . وزال داعي الثغور والانقسام . وصاروا أمة عربية » (٥٢) واحدة !

ومحمد عبده . وهو المهندس الأعظم لمدرسة التجديد الإسلامي . وروح نيار [الجامعة الإسلامية] هو القاتل عن الإسلام . عندما كانت السلطة والدولة في أهله عربية : « كان الإسلام عربيا . ثم لحقه العلم فصار عربيا . بعد أن كان يونانيا » ! .. (٥٣)

(٥١) المصدر السابق . ص ٢٣٧

(٥٢) المصدر السابق . ص ٢٢٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧

(٥٣) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٣ ص ٣١٧

لكن ... هل هي « المتناقضات » التي يستجلب استنتاجها ؟^{١٢} وإذا لم يكن الأمر كذلك . فكيف يستقيم الحديث عن أن المسلمين « لاجنسية هم إلا في دينهم واعتقادهم » الديني : مع الحديث عن أن « الأمة العربية هي عرب . قبل كل دين ومذهب » . والدعوة إلى تعرب الترك . ليصبحوا جزءا من « الأمة العربية » بل والحديث عن « الإسلام دينا عربيا »^{١٣} .

إنها ليست « متناقضات » بل هي الفكر المنسق . الذي وازن به تبار [الجامعة الإسلامية] بين « الخصوصية القومية للعرب » . كامة . بالمعنى القوي . في محيط إسلامي ضم أمما تدينن بالإسلام الدين . وبين « عموم » الرابطة والجامعة الاعتقادية والمالية التي جمعت كل من تدين بهذا الدين . وفي هذه الموازنة تكمن عبقرية هذا التبار في هذا الميدان !

فبين « الأقوام المسلمين » رابطة مؤسسة على عقائد الإسلام . ومتمثلة في آدابه ... وهي بالنسبة لهم جميعا بمثابة « الجنسية الإسلامية » . لكن هذه الشعوب الإسلامية تسكن أقاليم متعددة . وتنتمي إلى قوميات تتميزها لغات مختلفة . الأمر الذي أثر تمايزا بين هذه القوميات . « ولتحت هذه المؤثرات - الإقليم . واللغة . والأخلاق . والعوائد - كما يقول الأفغانى - تحصل للأقوام ميزة . وتتأصل فيهم محبة البقاء على مألوفهم . والذود عنه . واعتبار من خالفه أنه ليس منهم . بل هو غيرهم بمعنى الغيرة المطلقة ! »^(٥٤)

وهذه « الغيرة » القومية . التي تمثل واقعا قائما في المحيط الإسلامي . الذي تجسده رابطة الإسلام . هي التي جعلت الأفغانى يبيد على أن مطلب

(٥٤) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ص ٤٢٧ - ٤٢٨

تيار [الجامعة الإسلامية] لا يرى «الوحدة السياسية» للأمم الإسلامية. «فإن هذا ربما كان عسيرا. ولكنني أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن، ووجهة وحدتهم الدين، وكل ذي ملك على ملكه. يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع، فإن حياته بحياته. وبقاءه ببقائه!...»^(٥٥)

فهى رابطة «التضامن الإسلامى والنصرة الإسلامية». تشد الأمم الإسلامية، التى تقوم وحدة كل منها، سياسيا، وتتأسس على رابطتها القومية التى تميزها فى المحيط الإسلامى الأكبر والأوسع. فهنا «أمة» إسلامية. و«جنسية» - [قومية] - إسلامية. قوامها رابطة الملة والاعتقاد. وهى تحيطها تمييز وتمايز «أمة» و«قوميات». بالمعنى القومى الأخص تتأسس على السمات القومية المتميزة فى إطار المحيط الإسلامى الكبير.

وعند ابن باديس - وهو إمام الجناح المغربى لتيار [الجامعة الإسلامية] - نجد وضوحا كاملا فى تصوير العلاقة بين «الأمة العربية». المتميزة قوميا، وبين «الأمة الإسلامية» غير العربية... فالعرب: أمة فى القومية وفى السياسة. والوحدة السياسية، بمعنى وحدة الدولة، أمر وارد. بل واجب بين من يتمتعون منهم بالاستقلال عن مناطق نفوذ الاستعمار وسيطرته. أما الأمم التى تجمعها رابطة الملة والاعتقاد الدينى، دون رابطة العروبة القومية، فإن رابطة الدين تنصر لها وحدة فى النواحي الأدبية والاجتماعية - دون السياسية - ومن ثم دون الدولة الواحدة. وبعبارة ابن باديس: فنحن، إذا قلنا: العرب، فإننا نعنى: هذه الأمة الممتدة من المحيط الهندى شرقا إلى المحيط الإطلاىطى غربا. وهى تنطق بالعربية. وتفكر بها. وتتغذى من

(٥٥) المصدر السابق، ص ٣٤٥

تاريخها . وتحمل مقدارا عظيما من دمها . وقد صهرتها القرون في بوتقة التاريخ حتى أصبحت أمة واحدة هذه الأمة تربط بينها - زيادة على رابطة اللغة - : رابطة الجنس . ورابطة التاريخ . ورابطة الألم . ورابطة الأمل فالوحدة القومية والأديبة متحققة بينها لا محالة . وبين الشعوب العربية المستقلة تمكن الوحدة السياسية - بل ونحب أما المسلمون الذين تنوزعهم عدة قوميات ، فإن علاقتهم شاملة لناحيتين :

● ناحية سياسية دولية ..

● وناحية أدبية اجتماعية

فأما الناحية السياسية الدولية - فهذه من شأن أهمهم المستقلة . وأما الناحية الأدبية الاجتماعية فهي التي يجب أن تهتم بها كل الأمم الإسلامية إنها مهمة جماعة المسلمين . وهم أهل العلم والخبرة الذين ينظرون في مصالح المسلمين الدينية والأدبية .. (٥٦٣)

هكذا وضحت الرؤية : وتحددت العلاقات ، والتصورات

ولقد برز تيار [الجامعة الإسلامية] من شبهة تأسيس التمايز القومي للأمة العربية في المحيط الإسلامي على أسس عرقية أو عنصرية .. والعروبة ، عند أعلام هذا التيار ، مؤسسة على ثمرات التميز في اللغة والإقليم ، والعادات والتقاليد .. وعندهم أن اللغة « لها آداب » ومن هذه الآداب تحصل ملكة الأخلاق . وعلى حفظها تتكون العصبية ! « ولغة » تأثير - مغنوى -

(٥٦٣) [كتاب آثار ابن باديس] ج ٣ ص ٣٩٨ - ٣٣٩ - ٤١١ جمعها وشرها الدكتور عمار طائي طبعة

الخرائط سنة ١٩٦٨ م

علاوة على التأثير المادي - يجعلها من أكبر الجوامع التي تجمع الشنات - وتنزل من الأمة منزلة أكبر المفاسد : حتى لتصبح طوق المنجاة للأمة : تجمع سلسلها القومى إذا غالتا وحاولت اغتيال وحدتها التجزئة المفروضة على وطنها القومى من قبل الغزاة ! « فكم رأينا دولا اغتصب ملكها الغير - فحافظت على لسانها - [لغتها] - محكومة ، وترقت الفرص : ونهضت بعد دهر - فردت ملكها - وجمعت من ينطق بلسانها إليها - والعامل في ذلك إنما هو اللسان قبل سواه . ولو فقدوا لسانهم لفقدوا تاريخهم . ونسوا مجدهم . وظلوا في الاستعداد إلى ما شاء الله !... » (٥٧)

وأعلام هذا التيار يؤصلون « المعيار اللغوى للعروبة » بحديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذى يقول فيه : « أنها الناس ، إن الرب واحد . والأب واحد كلكم لآدم ، وآدم من تراب . وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم . وإنما هى اللسان . فمن تكلم بالعربية فهو عربى » (٥٨) وهم لا يفتخون ، فقط ، عند تقرير حقيقة تميز العرب قوميا في المحيط الإسلامى . بل ويتبنون الدعوة إلى دور قائد للأمة العربية في هذا المحيط !

● فالأفغان قد دعا إلى تعرب الترك ، ليصبحوا جزءا من « الأمة العربية الواحدة » !

● والإمام محمد عبده رأى أن عظمة هذه الأمة قد تحققت عندما « كان الإسلام عربيا » . فلما تغلب الحند غير العربى « من الترك والديلم وغيرهم »

(٥٧) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى] ٢٢٤ ، ٢٢١

(٥٨) رواه ابن عساکر - بسنده - عن مالك الزهرى ، عن أنى سلمة بن عبد الرحمن - (تاريخ بغداد) :

على الخلافة العربية . « هناك استعجم الإسلام وانقلب أعجميا ، فكان التراجع والتخلف والجمود !... » (٥٩)

● والكواكبي - وهو إمام الحناج المشرق لتيار [الجامعة الإسلامية] - يعقد للعرب نواء القيادة في تجديد عالم الإسلام والشرق فيقول : إن « العرب هم الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينية ، بل الكلمة الشرقية . وهم ألسن الأقوام لأن يكونوا مرجعا في الدين وقادة للمسلمين ، حيث كان بقية الأمم قد اتبعوا هديهم ابتداء . فلا يأنفوا عن اتباعهم أخيرا » (٦٠) .

● وابن باديس يرى أن « العرب قد رشحوا لهداية الأمة . وأن الأمم التي تدين بالإسلام وتقبل هدايته ستتكلم بلسان الإسلام . وهو لسان العرب . فيمنو عدد الأمة العربية بنمو عدد من يتكلم لغتها . ويهدون مثلها بهدى الإسلام . » فالعروة وثقى بين الإسلام والعروبة . ونمو الإسلام يعني نمو الأمة العربية . ولذلك فإن رسول الإسلام - صلى الله عليه وسلم - كان « رسول الإنسانية . ورجل القومية العربية . والأمة العربية . في آن واحد . يهتدى بهديه ، وتخدم القومية العربية خدمته ، ونوجهها توجيهه . ونحياها ، ونموت عليها .. » كما يقول ابن باديس (٦١) .

هكذا تميز موقف تيار [الجامعة الإسلامية] من قضية العروبة . وتميز العرب قومية . ومن علاقة هذا الكيان القومي العربي بالخيوط الإسلامية فأعلام هذا التيار لم يقفوا عند العروبة . رافضين لروابط الملة والاعتقاد

(٥٩) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٣ ص ٣١٧ - ٣١٨ .

(٦٠) [الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبي] ص ٣٥٨ .

(٦١) [كتاب آثار ابن باديس] ج ٢ ص ١٧ - ١٩ - ٢١ .

الدينى - كما صنع « القوميون العلمانيون » - . ولم ينحازوا إلى الرابطة الإسلامية ، زاعمين تناقضها مع التمايز القومى ، الذى هو أخص منها - كما صنع فريق من العاملين فى الحقل الإسلامى - . وإنما وازنوا بين الرابطين . ودعوا إلى دور قائد للأمة العربية فى المحيط الإسلامى . سواء فى تجديد الدين أو فى النهضة التى تجدد للعرب والمسلمين دينهم . وتعيد لهم استقلالهم الحضارى الذى ميزهم تاريخيا عن أمم وحضارات أخرى .

وحضارة : جديدة .. و متميزة :

لقد أبصر تيار [الجامعة الإسلامية] الهدف الاستعمارى الأوربى القديم . ذلك الهدف الذى تجلى فى كل موجات الغزو التى تعرض لها وطن العربوة خلال هذا الصراع التاريخى الطويل . فالغرب يريد أن يحرز النصر على الجبهة الحضارية . باحتواء العرب حضاريا . حتى يختم دورات هذا الصراع بانتصار حاسم ونهائى . ومن ثم فهو . وقد عاد مسلحا هذه المرة بالنورة الصناعية وثمارها العديدة من أدوات القوة المتنوعة . وبالحضارة الأوربية المتألفة والمتفردة على خريطة الكوكب الذى يسكنه الإنسان . يريد أن لا تنطل حضارته هذه حضارة جالينته الأوربية ومستوطنيه فقط فى مستعمراته العربية والإسلامية . وذلك كى لا تنكرر قصته القديمة يوم زالت حضارته بزوال الدولة الاستعمارية القديمة ، اغريقية وبيزنطية وبطلمية . وسواء أكانت السبل هى القهر بالمسخ القومى والسحق للهوية الحضارية . كما حاول الفرنسيون بالجزائر ، أو بالإغراء كما صنعوا هم من خلال مدارس التبشير بغيرها . وكما صنع الانجليز فى مستعمراتهم : فإن الهدف واحد ومحدد . وهو أن ينسلخ العرب والمسلمون عن هويتهم الحضارية المتميزة . فيصبحوا غربا . وتم عملية الاحتواء

التي تركز النصر للغرب في هذا الصراع الحضارى الطويل . وفي حديث الكاتب والسياسى الاستعمارى الفرنسى « جابريل هانوتو » عن هذا الصراع الحضارى بين الحضارة الأوربية . التي يسميها « المدنية الآرية المسيحية » وبين الحضارة العربية الإسلامية . التي تشد العرب - كما يقول - إلى « الماضى الآسيوى » . بتجلى فرح المستعمرين بتلاحق لهم من نجاح هذا المخطط « التغريبي » في بعض أقطار الشمال الأفريقى - تونس - وهو النجاح التغريبي الذى تحدث عنه هانوتو بقوله : « يوجد الآن بلد وأرض تنقلت شينا فشيئا من مكة ومن الماضى الآسيوى » (١٢) !

وحتى لا يتحقق للاستعمار هذا الهدف الكبير ، القديم والجديد . كانت دعوة تيار الجامعة الإسلامية إلى تجديد الحضارة العربية الإسلامية : تجديدها وليس التخلي عنها ، ولا استبدالها . فى الوقت الذى تصدى فيه هذا التيار للتحديات التى مثلت قيود عصور التخلف على حركة الأمة ويقتضيها ونهضتها . ونصدي للغزوة الاستعمارية الأوربية . كاحتلال عسكري وسلب اقتصادي ، تصدى كذلك لدعاة إحلال حضارة الغرب محل حضارتنا العربية الإسلامية ، التى لم تكن صورتها التى تقدمها المؤسسات التقليدية يومئذ تغرى بالاستلهاام أو تمتع على الاحترام !

ولقد انطلق هذا التيار فى دعونه لتجديد حضارتنا المتميزة من عدة منطلقات يجمعها ويربطها خيط واحد ..

١ - فنحن أمة عريقة ، وحضارتنا مزاج متميز وطابع خاص .. وتميز هذه الحضارة بالموقف المتوازن والموازن بين المتناقضات . وتمثيلها « للضمير »

(٦٢) [الإسلام والرد على متقذبة] - مجموعة أبحاث - ص ٢٧

في مواجهة حضارات تميل عادة إلى طرف واحد من طرفي الظاهرة . يعطى حضارتنا هذه ميزة . ويعصمها من مخاطر وأخطار بشكو منها الآخرون .

٢- إن للمزاج الحضارى المتميز علاقة عضوية بتكوين الأمة . ومفومات هذا التكوين . وإذا كانت الأمة . كما هو حال أمتنا . ذات عراقة حضارية ونراث غنى ودور بارز في تاريخ الإنسانية وصراعاتها الحضارية . فليس من السهل تجريدها من ثوبها الحضارى الخاص . والقذف بها تحت عباءة الآخرين ! بل قد يستحيل ذلك حتى لو أراد نفر من بنينا . مخلصين كانوا أم مخادعين !... وبعبارة ابن باديس عن « الغيبة الحضارية » - أى التبرير للجزائر عن فرنسا : « إن هذه الأمة الجزائرية ليست هي فرنسا . ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت » . ١٤٠ .

٣- إن الدعوة إلى « حضارة عربية إسلامية متميزة » لايعنى تقديس الماضي . ولا العودة إليه كى نعيش فى قوالبه . بل ولا الأخذ بجميع أصوله فى التدين . وإنما الذى تعنيه هذه الدعوة هو الأخذ « بالثواب » من « الأصول » . التى تمثل القسائم المميزة للشخصية الحضارية العربية الإسلامية . وهذه الأصول التى تحمل صلاحيات العطاء المعاصر . وتمثل قوة دفع وطاقه تحريك للأمة نحو التقدم . إنما تمثل . نماها من قداسة فى نفوس الأمة . مناها ملائما يسرع بحركة الأمة كى تتخطى فى عملية التجديد واليقظة والتطور . على عكس حاتها إذا ما دعيث إلى نمط جديد وغريب ليس لأصوله فى ضميرها قداسة واحترام . فقارق بين أن تقتنع صفوة مسنيرة بنمط حضارى معين . فتتخطى فى العمل لسيادته ونسوده . وبين أن تدخلى الأمة عصر تجديد حضارتها الخاصة . المحثلة لذاتها . والمحمدة خصوصيتها القومية . مسوقة إلى ذلك بقيم وأفكار وموارث لها فى نفوسها وضمائرها هالات

المقدسات .. ف نطاق « التحديث » - في الحالة الأولى - محدود ، ومن السهل حصاره واقتلعه - علاوة على انتفاء ملاءمته وجدواه - أما في الحالة الثانية ، فإن السعى في « التجديد » سيكون سريعا وحيثا ، ونطاق انتشاره سيكون عاما وشاملا ، واقتلاع الأعداء لآثاره سيكون مستحيلا .. وذلك فضلا عن جدواه المتابعة من ملاءمته للأمة التي تنهض بهذا « التجديد » .

إذن ، فالمنطلوب هو البدء من بعض أصول الماضي - أي « الثوابت » - الصالحة ، والتي تمثل « الروح الحضارية » للأمة ، والضامنة لها استمرارية مسيرتها الحضارية ، وبعبارة الأفغانى - في المهاج الذى تحدد له [العروة الوثقى] ، فإن الظهور في مظهر القوة ، لدفع الكوارث ، إنما يلزم له التمسك ببعض الأصول التي كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم .^(٦٣)

وهذه « الأصول - الثوابت » - كما يقول محمد عبده - هي التي ستجعل الأرض ، إنسانيا وفكريا ، مهددة للإصلاح والتجديد والبهمة ، فالناس سيصفون « للمؤذن » ، ويلبسون ثداه ، لأنه يؤذن فيهم من داخل سور مدينتهم ، ويلغتهم ، وبما هو مألوف لهم ، وليس من خارج السور ، برطانة الأعاجم والخواجات ! ، وعندما يكون الأمر « تجديدا » للأصول الثوابت ستكون لدعوته في قلوب الأمة وعمودها قواعد ومعلومات تعين على انخراط الأمة في مشروعها القومي النهضوى ، تشدها إليه « العوامل الطبيعية والانتماء » ، وبعبارة محمد عبده : « فهذه سبيل لتريد الإصلاح في المسلمين لامتدوحة عنها ، فإن إثباتهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين يحوجه إلى إنشاء بناء جديد ، ليس عنده من مواده شيء ، ولا سهل

(٦٣) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى [ص ٥٣٣]

عليه أن يجد من عماله أحدا . وإذا كان الدين كافلا بهتذيب الأخلاق وصلاح الأعمال وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها . ولأهله من الثقة فيه ما بيناه . وهو حاضر لديهم . والعناء في إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إمام لهم به . فلم العدول عنه إلى غيره ١٩ ... (٦٤)

والتمسك بالأصول الثواب . والروح الحضارى للأمة العربية الإسلامية . لا يعنى - فى رأى أعلام هذا التيار - الرجوع للعيش فى الماضى ، فلقد عابوا على « السلفية - النصوصية » - كما سبقت إشارتنا - موقفها غير الودى من العقل والتحدن والتحضر - وهو لا يعنى الاكتفاء بالثراث الدينى وعلوم الشرع فى النهضة والإصلاح . ولا العزلة الرافضة للتفاعل الحضارى . ذلك أن الإصلاح الدينى شىء . والإصلاح المدنى والتجديد الحضارى شىء آخر يتمايزان . مع الارتباط والاتصال . والاستعانة بالدين فى تحريك الأمة إلى التجديد الحضارى . مستعينة بتابعه الثقة . لا يعنى أن التجديد الحضارى هو ذات الإصلاح الدينى . وبعبارة محمد عبده : « نورزق الله المسلمين حاكما يعرف دينه ويأخذهم بأحكامه : لوأيتهم قد نهضوا . والقرآن الكريم فى إحدى اليدين . وما قرأ الأولون وما اكتشف الآخرون فى اليد الأخرى . ذلك لأخوتهم . وهذا لدينهم ولساروا يزاحمون الأوربيين فيزحمونهم (٦٥) ٢٠ »

فالعلاقات لاتعنى طمس التمايز والفروق . أو تحويل الوسائل إلى غايات !

٤ - وكما رفض تيار [الجامعة الإسلامية] « سلفية الجمود » عند فكرية

(٦٤) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج ٣ ص ٢٣١

(٦٥) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٥١ ، ٢٥٢

العصور المملوكية العثمانية . كذلك رفض طريق « التغريب » ، الذى مثل أصحابه « السلفية الغربية » ١٩... التى انهر تيارها بالغرب ، فدعا إلى أن تبدأ من حيث انتهى الغرب . وأن نسلك نفس الوسائل والوسائل التى سلكها الغرب إلى ذات الغايات والأهداف التى استهدفها . رفض هذا التيار سبيل التغريب ، لمناخاته لحقيقة « التمايز الحضارى » لأمتنا عن الحضارة الغربية . وكتب الأفغانى فى منهاج [العروة الوثقى] يقول : « إنه لا ضرورة . فى إيجاد المنفعة . إلى اجتناع الوسائل وسلوك المسالك التى جمعها وسلكها بعض الدول الغربية الأخرى . ولا ملجئ للشرق فى بدايته أن يقف موقف الأوربي فى نهايته . بل ليس له أن يطلب ذلك . وفيما مضى أصدق شاهد على أن من طلبه فقد أوفر نفسه وأمنه وقرأ أعجزها وأعوزها ! » (٢٦)

والأفغانى يرى فى هؤلاء « المتغربين » ، الذين افتقدوا الثقة بأنفسهم والأصالة والأمل فى بناء الحضارة المتميزة . حتى لقد استحكت منهم « عقدة الأوربي » ! . يرى فيهم خطرا يفتح للاستعمار فى حياتنا الثغرات . فيقول : « إن أشد وطأة على الشرق ، وأدعى إلى تهجم أولى المطامع من الغربيين . وتذليل الصعاب لهم . وتثبيت أقدامهم ، هم أولئك الناشئة ، الذين بمجرد تعلمهم لغة القوم والتأدب بأسفل آدابهم ، يعتقدون أن كل الكمال إنما هو فيما تعلموه من اللسان ، على بساطته ، وفيما رأوه من بهرج مظاهر الحالات ، وقراءة ستروسبير من قطع مراحل من الغربيين . فى سبيل الأخذ فى ترقية أمتهم ، بدون أن يسبروا من ذلك غورا ، أو يفهموا لتدرجهم معنى . ويعتقد الناشئ الشرق أن كل الرذائل ودواعي الحطّة ومقاومات التقدم إنما هى فى قومه .

فيجري مع تيار غريب من امتنان كل عادة شرقية ، ومن كل مشروع وطني
تتصدى له فئة من قومه أو أهل بلده ، وبأنف من أى عمل ما لم يشارك فيه
الأجنبي ؟ (٦٧)

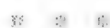
فلا اعتراض هنا ليس على « سر غور » أسرار التقدم الغربى ، للتمييز بين
« الضرورى - النافع » و « الضار - غير الملائم » للاستفادة بالأول - بالمثل
الطبيعى والصحيح . مع تجنب الثانى ورفضه . فمن قبل صنع العرب ذلك
يوم أخذوا ، من موقف المستقل وموقع القادر على التمييز . عن الفرس والهنود
واليونان . كى يصنعوا الذاتى والجديد والمتميز . وإنما الاعتراض على « تقليد
المشهر » الذى أفقده « الانبهار » الثقة بالذات . والقدرة على التمييز ؟ !

فالخايز الحضارى . الذى هو « حقيقة واقعة » . يدعونا إلى أن نبصر
ما لكل حضارة من خصوصية . وهذه الخصوصية لاتنى وجود ما هو عام
وميراث إنسانى نشترك فيه ككل الحضارات . وفتح التوافق على مختلف
الحضارات يجب أن يكون واعيا بما هو « خاص » وما هو « عام » . ومن
غير الطبيعى . وغير المفيد زرع الأجسام الحضارية الغربية فى بيئات لا تحتاجها
ولا تقبل منها . وهذا الفهم علينا أن ننظر لخصوصية التمدن الأوربى .
باعتباره - كما يقول الأفغانى - : « فى الحقيقة نمدا للبلاد التى نشأ فيها على
نظام الطبيعة وسير الاجتماع الإنسانى ! » . أما الذين يقلدون هذه
الخصوصية . المقدمات منها والنتائج . فإبهم - وفق عبارة الأفغانى - :
« يتفون لروحهم إلى غير بلادهم ! » . ويمعنون أرباب الصنائع من قومهم !
وهذا جدع لأنف الأمة . يشوه وجهها . ويحط بشأها . فلقد علمتنا

التجارب أن المقلدين ، من كل أمة ، المتحلقين أطوار غيرها ، يكونون فيها منافذ لطرق الأعداء إليها ، وطلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات ، يمهّدون لهم السبيل ، ويفتحون الأبواب ، ثم يبتسون أقدامهم !^(٦٨) .

فالتقديس : نيت طبيعي ، ونحو طبيعي ، بينه وبين مقدماته وموروثه وملايساته علائق تجعل له تمايزا عن نظيره الذي تختلف عنده المقدمات والموارث والملايسات . الأمر الذي يمايز بين الحضارات والشخصيات القومية للأمم هذه الحضارات .

وهذا التمايز الحضارى إذا كان يعنى الرفض « للثبعية » الحضارية ، والانسحاق أمام عدوانية الحضارة الغربية وغزوها الفكرى واستعلائها .. فإنه لايعنى الانغلاق الرافض لاستلهاام مصادر القوة التى تدعم وتسمى النهضة المستقلة والتميزة حضارتنا العربية الإسلامية . فرفض « الثبعية » لا بد وأن يقترن برفض التقوقع والعزلة والانغلاق .. فالتعددية الحضارية حقيقة من حقائق الواقع .. واكتفاء حضارة ما بذاتها عن غيرها من الحضارات هو خرافة من الخرافات ! .



على هذا النحو فكر تيار الجامعة الإسلامية .. وبهذا النهج صاغ معالم مشروع النهضة الحضارية المستقلة . لازال بانتظار من يطوره ويضعه فى الممارسة والتطبيق !^(٦٩)

(٦٨) المصدر السابق ص ١٩٥ - ١٩٧

(٦٩) لمزيد من التفاصيل انظر كتابنا [تيارات الفكر الإسلامى] ص ٢٨٥ - ٣٤٧

(٥)

جماعة الإخوان المسلمين

لقد بلغت الحرب العالمية الأولى [١٣٣٢ - ١٣٣٧ هـ ١٩١٤ - ١٩١٨ م]
بالوطن العربي والعالم الإسلامي قمة المأساة ! .

فالوطن العربي قد سقط بأكمله . تقريبا . تحت الاحتلال الاستعماري
الغربي . و « الخلافة العثمانية » قد أزيلت « العلمانية » التركية التي ترعّمها كمال
أتاتورك [١٢٩٨ - ١٣٥٧ هـ ١٨٨٠ - ١٩٣٨ م] فطويت صفحاتها [ستة
١٣٤٢ هـ ١٩٢٤ م] . وهكذا ضاع « الرمز » و « الشكل » الذي كان قد بقي
« لحركة اليقظة الإسلامية » ، ترجو له الإصلاح وتحاول في بنائه الترميم !
كما ضاع أمل « التيار القومي » العربي في الدولة القومية العربية المستقلة .
ووضحت خديعة الاستعمار لهذا التيار . فلقد استعان به في الحرب ضد الدولة
العثمانية ، في ذات الوقت الذي كان يوزع فيه وطنه . وفق معاهدة
« سكرس - بيكم » [١٣٣٤ - ١٣٣٥ هـ ١٩١٦ - ١٩١٧ م] بين أطراف المد
الاستعماري . و« عهد السيل » بوعبد بلفور [١٣٣٦ هـ ١٩١٧ م] لقيام كيان
صهيوني عنصري استيطاني . يقطع امتداد أرض الأمة العربية ، فيحول دون
وحدتها . ويكون بمثابة القوة الصارية لأحلام هذه الأمة ومساعدتها في التقدم
والوحدة والانعقاد ! .

ويومئذ علا صوت « تيار التغريب » ، حتى لقد الفرد بالساحة تقريبا .
وحقق ما يشبه الهيمنة في المدرسة والجامعة والمنتدى والصحيفة والكتاب

والديوان . وفي طرائق العيش ، وترتيب المنازل ، ومناهج التفكير . بل وفي القيم والمعايير والأخلاق ! .. الأمر الذي أجبر قطاعا من التيار الإسلامي - وخاصة أولئك الذين وقفت بهم خياراتهم الفكرية عند الجسود الموروث - أجبره على التوقع والانزواء . وكادت المقولة التي ترغم : أن تقدمنا ونحن بأن نصبح غربا في الحضارة ، وأن هذا هو الطريق لنكون شركاء للغرب ، بدلا من أن نظل مجرد هامش تابع له . كادت هذه المقولة أن تصبح مسلمة من المسلمات ! ..

وأمام هذا النجاح الذي حققه تيار « التغريب » ، لاح الخطر في الأفق واضحا وعظيما .. فالوطن الذي تحول إلى « هامش » لاقتصاد الغرب الاستعماري وآمنه ، يوشك أن يتحول إلى « هامش لحضارته » . ولو تم ذلك فستأبد التبعية ، وتذوب الهوية . وتسخ الشخصية الحضارية والقومية . ويستحكم الاستغلال ! ..

وهنا ، وفي هذا المنعطف التاريخي . عاد القانون القديم ليفعل فعله من جديد .. فتطلعت الأمة ، بالفطرة والنوع معا ، إلى حصنها العتيق . إلى الإسلام . وكان أن برز وتعاضم تيار اليقظة الإسلامية ، الذي تبلور هذه المرة « منظما - جماهيريا » ، والذي بدأ بتأسيس الشيخ حسن البنا [١٣٢٤ - ١٣٦٨ هـ - ١٩٠٦ - ١٩٤٩ م] لجماعة [الإخوان المسلمين] [سنة ١٣٤٧ هـ - ١٩٢٩ م] . وهي الجماعة التي أصبحت أوسع حركات الإصلاح الإسلامي وتنظيماته انتشارا وتأثيرا يعلمى العروبة والإسلام في عصرنا الحديث .

ونحن نستطيع أن نلمح في « صورة الإسلام » لدى هذه الجماعة عددا من السمات ، منها :

١ - أن [الإخوان المسلمين] ، كحركة إحياء إسلامي ، لم يكن الإسلام عندها كما هو في « المتون » و « الحواشي » و « التعليقات » و « الاعتراضات » التي أفرزها العصر المملوكي العثماني ، بل تقدم [الإخوان] لخطوات ، فتجاوزوا هذا المستوى المتسم بالجمود ، والمفتقر إلى الإبداع ، ومن هنا كانوا فصيلا من فصائل تيار التجديد ..

٢ - نكن [الإخوان المسلمين] لم يبلغوا في فهمهم الإسلام ، وتجديدهم لفكره ، وفي طرحهم الحلول الإسلامية لمشكلات العصر الفكرية مابلغته حركة [الجامعة الإسلامية] ، التي بنور فكرها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي وعبد الحميد بن باديس الخ الخ ، فدرجة « العقلانية » لدى تيار [الجامعة الإسلامية] لا نجد لها عند [الإخوان المسلمين] ، كما لا نجد عندها الجراءة في تناول القضايا ، ولا الحسم إذا ما عرضت لهذه القضايا ، وربما كان في مقدمة أسباب ذلك أن [الجامعة الإسلامية] لم تكن تنظيميا جماهيريا ، ينخرط فيه ، العامة ، ويهض بنيانه على « الجماهير » ، وإنما كانت حركة « صفوة » فكرية في الأساس ، فلذلك عرضت للمشكلات بجراءة ، وقدمت الحلول الحاسمة ، وسلكت لذلك سبيلا بلغ في « العقلانية » درجة إن لاءمت « الصفوة » فقد لا تلائم « العامة » و « الجمهور » ؟! وتلك قضية لا تخطئها عين الباحث في اجتمعات مختلفة ، وفي أية مرحلة من مراحل التاريخ ، وفي تراثنا أمثلة تشهد لذلك [فالمعتزلة] ، مثلا ، وهم فرسان « العقلانية الإسلامية » في تراثنا ، كانت تقل « شعبيتهم » وينقلص « جمهورهم » كلما زادت قسوة الفكر « الفلسفي » في بنائهم النظري !

٣ - وكما لم يكن [الإخوان المسلمون] على مستوى فكر حركة [الجامعة

الإسلامية] . عمقا وجراحة وحسبا ، فإتاهم ، كذلك ، لم يكونوا - في هذا الميدان - متواضعين إلى المستوى الذى وقفت عنده [الوهابية] أو [السنوسية] أو [المهدية] ، وذلك لنشأة [الإخوان] فى المجتمع المصرى . الذى بلغ فى التحضر والتقدم مستويات لا تلامحها أفكار دعوات جاءت لتلائم بيئات بسيطة أو بدوية ، لاحتاجة لها إلى الفكر المركب . إذ باستطاعتها حل مشكلات تلك البيئة البسيطة بظواهر النصوص !..

لقد وقف تيار [الإخوان] ، فكريا ، بين بين . فلا هو بلغ « عقلانية » الأفغانى ومحمد عبده .. ولا هو وقف عند بساطة محمد بن عبد الوهاب !.. كما أن دعائه لم يكونوا أبداً من « وعاظ السلاطين » الذين يبررون للواقع الظلم والبنائس الذى تعيشه الأمة !.. فلقد كانوا : الشكل الجماهيرى للبعث الإسلامى الحديث . والرد الإسلامى على التحدى الحضارى الذى تمثل ، أساسا ، فى « تيار التغريب » .

التصدى للتغريب :

قلنا إن الحضارة الغربية ، ذات الطابع المادى ، قد افتتحت على الواقع الإسلامى والعقل المسلم حصونه . فبعد أن احتلت الديار ، ونهت الثروات ، افتتحت ميدان الفكر ، بل والفكر الدينى أيضا . حتى لقد كتب « شيخ » ليثيت « عثمانية الإسلام » ، وليقول عنه إنه دين لا سياسة . ودعوة روحية لاعلاقة لها بالدولة والحكومة^(٧٠) . وكتب آخر عن القرآن كما يكتب

(٧٠) الشيخ على عبد الرازق [الإسلام وأصول الحكم]

عن المأثورات التاريخية : بلا مراعاة لما له ولقصاصه من « قداسة » نابعة من
« الإيمان » (٧١) ١٩ ..

وأمام هذا التحدى . لم يكن هناك بد - طاك في الأمة أصالة ونفاسة
معدن وبقية من روح وحيوية - لم يكن هناك بد من تبيد المشاعر « القومية » .
ردا على « الغزو السياسى » ، و « الإسلامية » . ردًا على « التغريب الفكرى
والاجتماعى » .! . وبعبارة الأستاذ البنا : « إن الحضارة الغربية ، عمادها
المادية . قد انتصرت في هذا الصراع الاجتماعى على الحضارة الإسلامية .
بعمادتها القويمة الجامعة للروح والمادة معا . في أرض الإسلام نفسه ، وفي
حرب ضروس ميدانها نفوس المسلمين وأرواحهم وعقائدهم وعقوفهم . كما
انتصرت في الميدان السياسى العسكرى ... وكما كان لذلك العدوان السياسى
أثره في تبيد المشاعر القومية . كان لهذا الطغيان الاجتماعى أثره كذلك في
انتعاش الفكرة الإسلامية .. » (٧٢)

ونحن نقرأ للأستاذ البنا الكثير من النصوص التى تكشف أسباب عدائه
للتطابع المادى للحضارة الغربية . فهو يرى أن من أمراض هذه الحضارة ما هو
مزمن .. وذلك مثل :

١ - الإلحاد والشك في الله وإنكار الروح والجزاء الأخروى والوقوف عند
حدود الكون المادى المحسوس

٢ - والإباحية والنهاية على اللذة والتفنى في الاستمتاع وإطلاق الغرائز
الدنيا من عقابها ..

(٧١) د. طه حسين [إن الشعر الجاهل] طبعة القاهرة سنة ١٩٢٦ م

(٧٢) [مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا] ص ١٤٠ . طبعة دار الشهاب القاهرة

٣ - والأثرة في الأفراد .

٤ - والربا

ثم يخشى فيقول : « ولقد أثبتت هذه المدينة الحديثة عجزها التام عن تأمين المجتمع وإقرار الطمأنينة والسلام فيه . وفشلت في إسعاد الناس . رغم ما فتحت عليهم من حقائق العلم والمعرفة وما وفرت لهم من أسباب الغنى والنزاهة . وما مكنت لدولها في الأرض من قوة وسلطان . ولا يحض عليها قرن كامل من الزمان ... »

ثم يتحدث عن انتقال هذا الخطر ، بالاستعمار ، إلى بلادنا ، ويهددها لمصيرنا بذات الخطر الذي أصاب « نفس » الإنسان الأوربي . فيقول : « وقد عمل الأوربيون جاهدين على أن تغمر موجة هذه الحياة المادية ، بمظاهرها الفاسدة وجرائمها القتالة ، جميع البلاد الإسلامية التي امتدت إليها أيديهم وأوقعوها سوء الطالع تحت سلطانهم . مع حرصهم الشديد على أن يحتجزوا دون هذه الأمم عناصر الصلاح والقوة من العلوم والمعارف والصناعات والنظم النافعة . ونجح هذا الغزو الاجتماعي المنظم - بالمدارس العلمية والثقافية في عقر ديار الإسلام - والتي ضمت أبناء الطبقة العليا - فعلمتهم كيف ينتصون أنفسهم وعقروا دينهم ووطنهم وينسلخون من تقاليدهم وعقائدهم . ويقدمون كل ما هو غريب ، ويؤمنون بأن ما يصدر عن الأوربيين وحده هو المثل الأعلى في هذه الحياة - نجح هذا الغزو الاجتماعي المنظم أعظم النجاح . فهو غزو محبب إلى النفوس ، لاصق بالقلوب ، طويل العمر ، قهرى الأثر . وهو لهذا أخطر من الغزو السياسي والعسكري بأضعاف الأضعاف (١٣٧) »

(١٣٧) المصدر السابق . ص ١٣٧ - ١٣٩

والأستاذ البنا ، هنا ، يعبد إلينا - في حسم وصفاء ووضوح - موقف تيار [الجامعة الإسلامية] ، الذى تنبه إلى خطر الغزو الحضارى الغربى على الذاتية الحضارية المتميزة لأمتنا . ويثبت أن دعوة [الإخوان] وحركتها ، إنما كانت ، فى جانب أساسى منها ، تصدياً « للتغريب » ، كجناح من جناحي « التحدى الحضارى » الذى نواجهه حركة اليقظة الإسلامية . وفى الظروف التى صاحبت نشأة [الإخوان] كان « التغريب » هو الأشد خطراً على ذاتيتنا الحضارية الإسلامية وشخصيتنا القومية العربية وعقائد ديننا الإسلامى الحنيف ... !



والتخلف الموروث :

ولم يكن عداء [الإخوان المسلمين] « للتغريب » نابعاً من رضائهم عن الواقع الفكرى المتمثل فى تصورات المسلمين للإسلام . أو تطبيقاتهم لتعاليمه . ولذلك وجدناهم ، عند التحليل « للموروث » عن السلف يميزون بين « الدين » ، كما تمثل ويتمثل فى منابعه النقية ، قرآناً وسنة ، وبين « الفكر » الذى مثل « لون عصره » ، وقضايا المجتمع الذى نشأ فيه . فـ « الدين » ملزم . أما هذا « الفكر » فهو غير ملزم . ثم إن فيه « النافع » وفيه « الضار » ، الذى يجب تجاوزه بالتجديد .

وهم فى تحليلهم لما أصاب « الإسلام السياسى » والدولة الإسلامية عبر مسيرتها التاريخية ، لم يدافعوا عن « الموروث » الذى ساد فى العصور « السلوكية - العثمانية » ، ذلك الذى أتاح الفرص وفتح الثغرات « لوفاد التغريب » ! بل قالوا إن الانقطاع قد أصاب ازدهار الدولة الإسلامية ،

فتحتلت عوامل قوتها .. ثم رصدوا - على لسان الأستاذ البنا - أهم عوامل التحلل في كيان « الدولة الإسلامية » في هذه الأسباب :

(أ) الخلافات السياسية والعصية وتنازع الرئاسة والخلاف

(ب) الخلافات الدينية والمذهبية ..

(ج) الانفاس في ألوان الترف والتعم

(د) انتقال السلطة والرئاسة إلى غير العرب - من الفرس نازة والديلم نازة

أخرى والمماليك والأتراك وغيرهم ممن لم يندوقوا طعم الإسلام الصحيح - ولم تشرق قلوبهم بأنوار القرآن لصعوبة إدراكهم لمعانيه

(هـ) إهمال العلوم العملية والمعارف الكونية - وصرف الأوقات ونضيج

الجهود في فلسفات نظرية عقيمة وعلوم خيالية سقيمة

(و) غرور الحكام بسلطانهم والانخداع بقوتهم - وإهمال النظر في التطور

الاجتماعي للأمم من غيرهم : حتى سبقتهم في الاستعداد والأهبة وأخذتهم على غرة

(ز) الانخداع بدسائس المماليك من خصومهم - والإعجاب بأعمالهم

ومظاهر حياتهم والاندفاع في تقليدهم فيما يضر ولا ينفع ^(٧٤)

وكان واضحا لدى [الإخوان] . كذلك - أنهم دعاة « تجديد »

للموروث الفكري الجامد والمتخلف . وبعبارة الأستاذ البنا .. « فالإخوان ..

دعوة من الدعاوات التجديدية لحياة الأمم والشعوب .. ^(٧٥)

وهذا النهج التجديدي : لم يكن مجرد « تجديد فكري » ترقى به أذهان

(٧٤) المصدر السابق ص ١٣١ - ١٣٢

(٧٥) المصدر السابق ص ١٢٢

« الصفوة » أو تستمتع به عقول « النخبة » ، وإنما كان تجديد « حياة الأمم والشعوب » ، فالإخوان دعوة تتوجه إلى الجماهير والعامّة . تبغى خلق الفرد المسلم .. والأسرة المسلمة .. والأمم المسلمة ^(٧٦) . انطلاقاً من العقيدة الإسلامية ، والحركة التي تضع هذه العقيدة ، حية ، في الممارسة والتطبيق . وبسبب من هذا التهج التجديدي ، فلقد كان « للعقل والعقلانية » ، في فكر [الإخوان] ، مكان إن لم يكن بارزاً فهو ملحوظ ^(٧٧) .

فلقد قطع الأستاذ البنا باستحالة الخلاف والصدام بين « النظر العقلي » و « النظر الشرعي » في الأمور « القطعية » . ورأى أن بعض المجالات مختص بواحد من سبل النظر دون الآخر . كالألهيات ، مثلاً . « فذات الله ، تبارك وتعالى ، أكبر من أن تحيط بها العقول البشرية ، أو تدركها الأفكار الإنسانية ، لأنها مهما بلغت من العلوم والإدراك محدودة القوة ، محصورة القدرة . فالعقل البشري قاصر عن إدراك حقائق الأشياء » ^(٧٨) « في مثل هذه الميادين .. ولذلك ، فإن « الإسلام قد أرشد العقول إلى التزام حدها ، وعرفها قلة علمها ، وندبها إلى الاستزادة من معارفها ، فقال تعالى : [وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً] ^(٧٩) . وقال تعالى : [وقل رب زدني علماً] ^(٨٠) » .

وإذا كانت « طبيعة المبحث » هي التي تحدد أداة النظر فيه ، وهل الأولى

(٧٦) المصدر السابق . ص ٤٥

(٧٧) المصدر السابق . ص ٢٩٦

(٧٨) الإسراء : ٨٥٠

(٧٩) طه : ١١٤

(٨٠) « مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا » ص ٢٩٤

أن تكون « العقل » أو « الشرع » ، فإن خلافهما إنما يكون في « الظاهر » وفيما هو « ظني » لم يبلغ فيه أحدهما مرتبة « اليقين » . « فقد يتناول كل من النظر الشرعي والنظر العقلي مالا يدخل في دائرة الآخر ، ولكنها لن يختلفا في القطعي . فلن تصطدم حقيقة علمية بقاعدة شرعية ثابتة . ويؤول الظني منها ليتفق مع القطعي . فإن كانا ظنيين فالنظر الشرعي أولى بالاتباع حتى يثبت العقلي أو ينهار... »^(٨١) .

وإذا كان الإسلام قد رفض « غرور العقل » و « انفرادة بالنظر » في كل الميادين ، ودعا إلى التوازن بين نظره وبين النظر الشرعي . فإنه « لم يحجر على الأفكار ولم يجبس العقول »^(٨٢) ... بل جاء يحجر العقل ، ويحث على النظر في الكون . ويرفع قدر العلم والعلماء . ويرحب بالصالح النافع من كل شيء . والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها »^(٨٣) . «^(٨٤) .



والبراءة من الغلو :

لكن هذه الدعوة التجديدية لم تبلغ في تقددها الواقع ، التخلف - الموروث « حد الغلو الذي بلغته دعوات إسلامية عاصرتها أو لحقتها . عندما حكمت « بالجاهلية » أو « بالكفر » . أو « بها » معا على الواقع الذي يعيش فيه المسلمون .

(٨١) المصدر السابق ص ٢٧١

(٨٢) المصدر السابق . ص ٢٩٤ .

(٨٣) رواه الترمذي وابن ماجه

(٨٤) [مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا] ص ٢٧٠

لقد عمل [الإخوان] من خلال المجتمع ، لا من موقع الذي يدينه
وينعزل عنه في استعلاء ! . وكما سلطوا الضوء على « الوافد » غير الإسلامي .
« موروثا » كان أو « غريباً حديثاً » . كذلك احتضنوا ما حفظ المسلمون من
إسلامهم .. فقط طلبوا استكمال الناقص . وتكامل المتفرق وتصحيح
الحاظي . وأخذ الإسلام . نجد . كنظام شامل للدنيا والآخرة . والفرد
والأسرة والأمة جميعاً . لقد رفضوا « تكفير » الفرد « بالمعصية حتى ولو
كانت « كبيرة » . وكتب الأستاذ البنا يقول : « إننا لا نكفر مسلماً أقر
بالشهادتين وعمل بمقتضاهما وأدى الفرائض . برأى أو معصية . إلا إن أقر
بكلمة الكفر . أو أنكر معلوماً من الدين بالضرورة . أو كذب صريح
القرآن . أو فسر على وجه لا تختمله أساليب اللغة العربية بحال . أو عمل
عملاً لا يحتمل تأويلاً غير الكفر .. » (٨٥)

كذلك هم لا يكفرون « المجتمع » بسبب ابتعاد نظمته الحياتية . في كثير من
جوانبها عن شريعة الإسلام . بل يرونه « ناقص الإسلام » . لكنه « النقص »
الذي لا يدخله في « الكفر » أو « الجاهلية » ! .. والشيخ حسن البنا يتحدث
عن المجتمع المصري فيبرز - في حق الداعية - ما فيه من إيجابيات . ثم يدعو -
في لين وهودة - إلى استكمال النواقص وتلافي السلبات . يقول : « لقد
اندمجت مصر بكليتها في الإسلام بكليته . عقيدته وفتحه وحضارته . وداعت
عنه وذادته عن حياضه وردت عنه عادية المعتدين .. وجاهدت في سبيله
ما وسعها الجهاد بالها ودم أبنائها . وأتخذته من يرثي القتل والصلبيين .
وردت الجميع على أعقابهم خاسرين . واستقرت فيها علوم الإسلام

ومعارفه . واحتوت الأزهر أقدم جامعة تقوم على حياطته ورعايته وحراسته .
وانتهت إليها زعامة شعوبه الأدبية والاجتماعية ، وصارت مطمح أنظار الجميع
ومعقد آمالهم . هذا الإسلام ، عقيدته ونظمه ولغته وحضارته ، ميراث عزيز
غال على مصر ، ليس تفريطها فيه بالشئ ، الحين ولا إبعادها عنه بالأمر
المستطاع مما بذلت في سبيل ذلك الجهود الهدامة المدمرة . ومن هنا بدت
مظاهر الإسلام قوية فياضة زاهرة دافقة في كثير من جوانب الحياة المصرية :
فأشماؤها إسلامية ، ولغتها عربية ، وهذه المساجد العظيمة يذكر فيها اسم الله
ويعلو منها نداء الحق صباح مساء ، وهذه مشاعرنا لا تهنئ لشيء اهتزازها
للإسلام وما يتصل بالإسلام . كل ذلك حق .

ثم يمضي الأستاذ البنا فيركز النقطة على « الوافد الغربي » ، الذي شوه
بروحه المادية إسلامية المجتمع وانتقص منها . فيقول : « ولكن هذه الحضارة
الغربية قد غزتنا غزوا قويا ، بالعلم والمال ، وبالساسة والفن والتمتع واللهو
وضروب الحياة الناعمة العائبة المغرية التي لم تكن نعرفها من قبل . فأعجبتنا
بها ، وركنا إليها . وأثر هذا الغزو فيما أبلغ الأثر . وانحسر ظل الفكرة
الإسلامية عن الحياة الاجتماعية المصرية في كثير من شئونها الهامة . واندفعنا
تغير أوضاعنا الخيوية ونصنع معظمها بالصيغة الأوروبية . وحصرنا سلطان
الإسلام في حياتنا على القلوب والمخارب . وفصلنا عنه شئون الحياة العملية .
وباعدنا بينه وبينها مابعدة شديدة ، وهذا أصبحنا نحيا حياة ثنائية متذبذبة أو
متناقضة ! » (٨٦)

فهو لا يدين المجتمع بالارتداد عن « الإسلام » إلى « الجاهلية » أو

(٨٦) المصدر السابق ص ١٢٠ ، ١٢١

« الكفر » بعد « الإيمان » ! .. وإنما يدعو إلى استكمال الناقص . وإلغاء
« الثانية » التي أثمرتها الغزوة الحضارية الغربية . إنه يستبطن حمة الأمة إلى
استكمال إسلامها بتحقيق « استقلالها الحضاري » عن الأعداء ١٢ .



والاستقلال السياسي :

لقد اشترك [الإخوان] مع جبهة الأحزاب والجماعات الوطنية والقومية
في الدعوة إلى « الاستقلال السياسي » . والنضال في سبيله . وزادوا عن
هذه الأحزاب والجماعات عندما اتسعت رؤيتهم حدود « الوطن » ليشمل :
القطر الخاص أولاً ، ثم يمتد إلى الأقطار الإسلامية - [عبر وطن الأمة
العربية] - ثم يرقى إلى الامبراطورية الإسلامية الأولى ^(٨٧) .

ولقد أعلنوا - بصدد الدعوة « للاستقلال السياسي » - والجهاد في
سبيله - رفض « الشعوب الشرقية لما أصابها من إساءة العرب إليها إساءة نالت
من عزتها وكرامتها واستقلالها ، وأخذت من مالها ومن دمها فهي تتألم من
هذا النير الغربي الذي فرض عليها فرضاً .. » ^(٨٨) .

ودعوا إلى الجهاد ضد الدول الاستعمارية « فكل دولة اعتدت وتعتدي
على أوطان الإسلام دولة ظالمة . لا بد أن نكف عدوانها ولا بد من أن يعد
المسلمون أنفسهم ويعملوا متساندين على التخلص من نيرها . لأن الإسلام
لا يرضى من أبنائه بأقل من الحرية والاستقلال ، فضلاً عن السيادة وإعلان

(٨٧) المصدر السابق ص ٦٢

(٨٨) المصدر السابق ص ١٧

الجهاد . ولو كلفهم ذلك الدم والمال .. (٨٩)

ولقد مارس [الإخوان] الجهاد العمل ، والمسلح . كلما منحت لهم الفرصة لممارسته . في فلسطين [١٣٦٦ - ١٣٦٧ هـ ١٩٤٧ - ١٩٤٨ م] ضد الصهيونية ومن وراءها وفي [١٣٧١ هـ ١٩٥١ - ١٩٥٢ م] ضد الإنجليز في مصر .

هذا عن « الاستقلال السياسي »



والاستقلال الاقتصادي :

ولقد كانت قوى وطنية عديدة تتفق . في مجال « الاستقلال الاقتصادي » . بما يحقق مجرد « مشاركة » قواها الاجتماعية والطبقات التي تمثل مصالحها - مجرد « مشاركة » هذه القوى الاجتماعية - للاستثمار في استثمار ثروات البلاد . لكل جماعة [الإخوان] كانت من بين القوى السياسية التي امتلكت رؤية واضحة في هذا الميدان . وهذه الرؤية قد جعلتهم دعاة تحرير كامل لاقتصاديات الأمة من قبضة السيطرة والاستغلال الاستعماريين . كذلك كانوا دعاة اعتماد على الذات في بناء الاقتصاد الوطني والقومي المستقل . ودعاة إقامة الروابط مع أجزاء العالم العربي والأمة الإسلامية . لإقامة التكتل الاقتصادي الذي يدعم إمكانات المستضعفين في صراعهم الاقتصادي ضد سيطرة المستعمرين الأغنياء الأقوياء المستبدين

(٨٩) للمصدر السابق : ص ١٨٥ ، ١٨٦

لقد امتثلت الإسلاميون وضوح الرؤية في الجهاد لتحقيق هذا « الاستقلال الاقتصادي » منذ دعوة [الجامعة الإسلامية] التي أعلنت أن غايتها الاقتصادية هي :

● « ثروة المسلمين للمسلمين . وثمرات التجارة والصناعة في جميع المعمور الإسلامي هي لهم . يتمتعون بها . وليست لنصارى الغرب يستنزفونها »

● ونفض اليد من رؤوس الأموال الغربية . والاستعاضة عنها برؤوس أموال إسلامية

● ونحطيم نواجز أوربة . تلك النواجز العاضة على موارد الثروة الطبيعية في بلاد المسلمين . تلك الموارد التي مادامت خارجة من أيدي العالم الإسلامي فسيظل عالة على الغرب ... (٩٠) ١٧

فيبدون تحرير التروات الإسلامية والاستقلال الاقتصادي . ستصل النجعة للغرب قيدا يجعل « استقلالنا السياسي » عنه شكليا . ويجرمنا . من ثم ، المضمون الحقيقي للاستقلال !

ولذلك تنشرت في كتابات الأمثاذ البنا الأحاديث الداعية إلى رفض سيطرة الشركات الأجنبية على اقتصاديات مصر (٩١) ... الأمر الذي جعل الأحاطب المحتلين أحسن حالا من بنينا (٩٢) . وضرورة تحقيق « نظام اقتصادي

(٩٠) لوثرروب ستوفارد [حاضرم العامة الإسلامي] المجلد الأول : ج ١ ص ٢٢٨ ترجمة عجاج نوبهر

تعليق : شكيب أرسلان : مجلة بيروت سنة ١٩٧١ م

(٩١) [مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا] ص ١٤١

(٩٢) المصدر السابق ص ٢٣٦

استقلالاً للثروة والمال . تحقق فيه « استقلال نقدنا » عن فلك الاستعمار
« وتخصيص الشركات ، وإحلال رموس الأموال الوطنية محل رموس الأموال
الأجنبية كلها أمكن ذلك . وتحلّص المرافق العامة - وهي أهم شيء للأمة -
من يد غير أبنائها . فلا يصح بحال أن تكون هذه المرافق بيد شركات
أجنبية . تبيع رموس أموالها وأرباحها الملايين من الجنيهات ، ولا يصيب
الجمهور الوطني ولا العامل الوطني منها إلا اليأس والشقاء والحرمان .
كذلك » يجب العناية بالمشروعات الوطنية الكبرى ، المهمة ، التي طال عليها
الأمم . ويجب التحول إلى الصناعة فوراً . فهذا التحول هو روح
الإسلام !.. مع تشجيع الصناعات اليدوية المنزلية . وإرشاد الشعب إلى
التقبل من الكماليات ، والاكتفاء بالضروريات ، وأن يكون الكبار في ذلك
قدوة للصغار . وأن يتم ذلك في تعاون وتكامل بيننا وبين العرب
والمسلمين . وذلك « أن الرابطة بيننا وبين أمة العروبة والإسلام . تمهد لنا
سبيل الاكتفاء الذاتي والاستقلال الاقتصادي ، وننقلنا من التحكم الغربي
في التصدير والاستيراد وما إليها . » (٩٣) كما قال المرشد العام للإخوان
المسلمين !؟ .

نعم . لقد كانت هناك ما يمكن أن نسميها : الدعوة « للمجاهد
الاقتصادي » ضد الأعداء !؟ . ولذلك كان الشيخ البنا يهيب بالأخ المسلم
قائلاً : يجب « أن نخدم الثروة الإسلامية . بتشجيع المصنوعات والمنشآت
الاقتصادية الإسلامية . وأن نحصر على القرش . فلا يقع في يد غير إسلامية

(٩٣) المصدر السابق ص ٩٠٠ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤

مهما كانت الأحوال . ولا تلبس ولا تأكل إلا من صنع وطبق
الإسلامي !... (٩٤)

* * *

والعدل الاجتماعي :

أما العدالة في التوزيع للثروة ، والتي لابد منها حتى تعم خيرات تحرير الثروة
وتنميتها لجمهور الأمة ، فمن ملامحها :

١ - إصلاح الواقع القائم ، والمتمثل - كما قال الشيخ البنا - في « التفاوت
العظيم . واليأس الشاسع . والفرق العظيم بين الطبقات المختلفة في هذا
الشعب » ، والذي أدى إلى وجود « ثراء فاحش وفقير مدقع . والطبقة
المتوسطة تكاد تكون معدومة »... إصلاح هذا الواقع « بتقريب الشقة بين
مختلف الطبقات ، تقريبا يقضى على الثراء الفاحش والفقر المدقع »

٢ - « محاربة الربا » وجمع الزكاة .. وفرض ضرائب اجتماعية على
النظام التصاعدي - بحسب المال لأخسب الربح - يعنى منها الفقراء طبعاً .
وتجبي من الأغنياء الموسرين ، وتتفق في رفع مستوى المعيشة بكل الوسائل
المستطاعة (٩٥) .. والمتوسطة بين الأغنياء الغافلين والفقراء المعوزين . بتنظيم
الإحسان وجمع الصدقات لتوزع في المواسم والأعياد . (٩٦)

٣ - إصلاح الخلل المتمثل في التفاوت الفاحش بين الملكيات الزراعية في

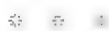
(٩٤) المصدر السابق ص ٢٧٩

(٩٥) المصدر السابق ص ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٤٣ ، ٢٤٢

(٩٦) المصدر السابق ص ١٢٣

الريف . ذلك أن « روح الإسلام الخفيف وقواعده الأساسية في الاقتصاد القيمي توجب علينا أن نعيد النظر في نظام الملكيات في مصر ، فنختصر الملكيات الكبيرة . ونعوض أصحابها عن حقهم بما هو أجدى عليهم وعلى المجتمع . ونسجع الملكيات الصغيرة . حتى يشعر الفقراء المعدمون بأنه قد أصبح لهم في هذا الوطن ما يعينهم أمره . ويهمهم شأنه . وأن نوزع أملاك الحكومة على هؤلاء الصغار !... » (٩٧)

فذلك هو الطريق لتحرير الثروة الإسلامية من يد ناهبيها الاستعماريين . والطريق إلى التنمية الاقتصادية المستقلة ، وإلى عموم الخير أبناء الأمة . حتى يشعروا بفائدة « الاستقلال الاقتصادي » عندما « يشعر الفقراء المعدمون بأنه قد أصبح لهم في هذا الوطن ما يعينهم أمره ويهمهم شأنه ! » كما قال الشيخ حسن البنا .



والاستقلال الحضارى :

في الوقت الذي كان الكثيرون مبهوتين فيه بالحضارة الغربية . يتخذونها النموذج المحتذى . والقبلة التي تتجه إليها قلوبهم وعقولهم في شئون الدنيا والعمارة . كان [الإخوان المسلمون] ينبهون إلى « أزمة » هذه الحضارة و « إفلاسها » ودخولها « الطريق المسدود »... فبكتب الشيخ البنا : « إن مدينة الغرب ، التي زهت بنجاحها المعنى حيناً من الدهر . وأحضعت العالم كله بنتائج هذا العلم لدولته وأمة . تفلس الآن وتتحرر ! فهذه أصولها

(٩٧) المصادر السابق . ص ٢٤٢

السياسة تقوضها الدكتاتوريات . وأصولها الاقتصادية تحتاجها الأزمات
وأصولها الاجتماعية تقضى عليها المبادئ الشاذة والثورات المدلعة في كل
مكان وقد حار الناس في علاج شأنها وضلوا السبيل ! ^(٩٨)

لكن هذا « الإفلاس والانتحار » لم يلبه « المتغربين » إلى ضرورة
الانصراف عن اقتفاء طريق « المقلد » الساعي إلى « الانتحار » ! لأن
هؤلاء « المتغربين » قد غدوا أسرى الفكر الذى وضعوه من ثدى هذه
الحضارة . ومط العيش الذى اعتادوه فتقيدوا به إلى أوتادها ! فهؤلاء -
كما يقول الشيخ البنا - « حكامنا جميعا قد تربوا في أحضان الأجانب . ودانوا
بفكرتهم - على آفارههم بهرعون . وفي مرضاتهم يتنافسون . ولعلنا لانكون
مبالغين إذا قلنا : إن الفكرة الاستقلالية في تصريف الشؤون والأعمال لم تخطر
ببالهم . فضلا عن أن تكون منهاج عملهم ! » ^(٩٩)

وليت الأمر قد وقف عند « أحكام » وحدهم بل إن الميلوى نوشك
على العسوم ! « فالتقليد الغربى يسرى في مناحى حياة الأمة سريان لعباب
الأفاعى ، فيسقم دماءها ، ويعكس صفو هوائها ^(١٠٠) ... وأكبر ما يخشاه
الإخوان المسلمون أن تندفع الشعوب الشرقية الإسلامية في نيار التقليد . فترفع
نهضاتها بتلك النظم البالية التى انتقصت على نفسها . وأثبتت التجربة فسادها
وعدم صلاحيتها ! » ^(١٠١)

(٩٨) المصدر السابق ص ٥٩ ، ٦٠

(٩٩) المصدر السابق ص ١٠٥

(١٠٠) المصدر السابق ص ٢٧

(١٠١) المصدر السابق ص ٤٦

وأمام هذا الخطر ، خطر الغزو الحضارى والتبعية الحضارية ، التى جعلت « أبناء الطبقة الراقية ينتقصون أنفسهم ، ويحتقرون دينهم ووطنهم ، وينسلخون من تقاليدهم وعقائدهم ، ويقدمون كل ما هو غريب ، ويؤمنون بأن ما يصدر عن الأوربيين وحده هو المثل الأعلى فى هذه الحياة ! » . أمام هذا « الغزو الاجتماعى المنظم ، وأحبب إلى النفوس ، واللاصق بالقلوب » ، والذى يتميز . لذلك ، بطول العمر ، وقوة الأثر حتى ليصبح « أخطر من الغزو السياسى والعسكرى بأضعاف الأضعاف ! » (١٠٢) . أمام هذا الخطر دعا [الإخوان] إلى الجهاد ، وإلى الاعتصام بحضارة الإسلام ، تحييا ، وإلى التصدي لآثار الغزوة الحضارية الغربية ، تميها ، باقتلاعها من العقول والقلوب والنفوس ، وإحلال البدائل الإسلامية محلها .

فإن واجبات الأخ المسلم - وفق تعاليم الشيخ البنا - : « القضاء على الروح الأجنبية فى البيوت .. وبخاصة بيوت الطبقات الراقية » (١٠٣) وإمالة العادات الأعجمية فى كل مظاهر الحياة ، وأن تعمل ما استطعت على إحياء العادات الإسلامية . ومن ذلك : التحية ، واللغة ، والتاريخ ، والزى ، والأثاث ، ومواعيد العمل والراحة ، والطعام والشراب ، والقنود والانصراف ، والحزن والسرور .. الخ .. وأن تتحرى السنة المطهرة فى ذلك » (١٠٤) .

فلكى يتحقق استقلالنا الحقيقى لأبد من « الاستقلال الحضارى » ومقصم عرى التبعية للاستعمار . بل إن هذا « الاستقلال الحضارى » ، الراض للتبعية

(١٠٢) المصدر السابق ص ١٣٩

(١٠٣) المصدر السابق ص ٧٧

(١٠٤) المصدر السابق ص ٢٧٩

والتقليد . هو الشرط الذي لا بد من تحقيقه كي يكتمل لأمتنا إسلامها .
ويدونه سيظل إسلامها متقوصا . مثلها في ذلك كمثل الذين يؤمنون ببعض
الكتاب دون بعضه الآخر ١٤ . فما دام « الإسلام هو هذا المعنى الكلي
الشامل . فواجب أن يهيمن على كل شؤون الحياة ... أما إذا أسلمت الأمة في
عباداتها . وقلدت غير المسلمين في بقية شئونها . فهي أمة ناقصة الإسلام .
نضاهي الذين قال الله تعالى فيهم : [أفئذ يؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون
ببعض ١٥] فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم
القيامة يردون إلى أشد العذاب ، وما الله بغافل عما تعملون ١٦) .
ولذلك ، فإنه « لا عذر لنا إن جأنا طريق الحق . طريق الإسلام . وانبعنا
طريق الشهوات والزخارف . طريق أوربا ! » ١٧) - كما يقول الأستاذ
اللبنا - .

وهذا الاستقلال : « السياسي » و « الاقتصادي » و « الحضارى -
الاجتماعى » سنكون من ثمراته : « الشخصية الحضارية المسلمة » و « المستقلة
فكريا » ! والتي لا تستعبدنا نظريات الغرب الاستعماري . فالتفكير
المستقل . هو الآخر . هدف من أهداف اليقظة الإسلامية . وبعبارة الأستاذ
اللبنا : فنحن « نريد أن نفكر تفكيراً مستقلاً . يعتمد على أساس الإسلام
الحنيف ، لا على أساس الفكرة التقليدية التي جعلتنا نتقيد بنظريات الغرب
وانحيازهاته في كل شيء » نريد أن تتميز بمقوماتنا ومشخصات حياتنا كأمة عظيمة

(١٠٥) - الفقرة - ٨٥

(١٠٦) [مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا] ص ١٥٤

(١٠٧) المصدر السابق ص ٧٣

مجددة . نجر وراءها أقدم وأفضل ما عرف التاريخ من دلائل ومظاهر الفخار
والجهد ! (١٠٨)

هكذا بلغ [الإخوان] القمة في وعي المضامين الحقيقية . والتي لا غنى
عنها . لتحقيق الاستقلال الحقيقي للأمة . وتحريرها تحريراً كاملاً من آثار
الغزوة الاستعمارية التي أصاب بها الأوروبيون ديار العروبة وعالم الإسلام .
ولا نعتقد أن تياراً آخر ، غير تيار «الإسلام الشامل» واليقظة الإسلامية قد
بلغ هذا المبلغ في هذا الميدان !..

وزيد من خطر هذه الحقيقة . ويرفع من قدرها وشرفها . أن الدعوة
إلى هذا «الاستقلال الكامل» والحقيق ، لم تكن دعوة حزب يحصر رؤيته
ودعوته وحركته في إقليم من الأقاليم . أو حتى قومية من القوميات . وإنما
كانت دعوة جماعية تنطلق من الوطن الخاص . إلى وطن الأمة القومية . إلى
وطن الأمة والدين . ثم إنها لم تبغ من وراء ذلك مجرد الاستقلال الكامل
لأمتها . بل لقد رأَتْ في ذلك سبيلاً لعودة هذه الأمة . ثانية . لمركز الصدارة
والقيادة والعطاء عالمياً . فتلك هي مؤهلات السبق في الرهان والسباق الذي يجب
أن يقوم على قدم وساق لورثة القيادة من الحضارة الغربية ، المنقلبة ، المنحدرة
في طريق «الانتحار» !! . «لقد كانت قيادة الدنيا . في وقت ما . شرقية
بحتة . ثم صارت بعد ظهور اليونان والرومان غربية . ثم نقلتها النبوات إلى الشرق
مرة ثانية . ثم غفاً الشرق غفوته الكبرى . ونهض الغرب نهضته الحديثة . ففوت
الغرب القيادة العالمية . وها هو ذا الغرب يظلم ويحور ويطنغي ويحار ويتخبط . فلم
تبق إلا أن تمتد يد «شرقية» قوية . يظلها لواء الله . وتحقق على رأسها راية

القرآن . ويمدها جند الإيمان القوى المتين ، فإذا الدنيا مسلمة هائلة . وإذا بالعالم كلها هائلة : [الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله] (١٠٩) ... (١١٠) .

والتفاعل الحضارى :

وإذا كانت « السلفية التصوفية » قد ارتابت فيما تم - في تاريخنا الحضارى - من تفاعل بين العرب المسلمين وبين المواريث الحضارية لليونان والفرس والهنود . ورفضت ثمرات هذا التفاعل . فإن الشيخ حسن البنا قد رأى في هذا التفاعل الحضارى وثمراته - والذي أحيت به حضارتنا وجددت واستلهمت - وفق معايير الإسلام - مواريث الأمم التى فتح المسلمون بلادها - رأى الشيخ البنا في هذا التفاعل الحضارى وثمراته ظاهرة صحية . ومبعث فخر لأمتنا . لقد كان جسم الأمة صحيحاً وعقلها راشداً . فنظرت في مواريث الآخرين ونأملت وقدّرت . ثم تمثلت ما هو ضرورى لها ومفيد . فازداد بذلك جسمها صحة وعقلها رشداً !! وبعبارة الرجل : « لقد اتصلت هذه الأمم الإسلامية بغيرها من الأمم . ونقلت كثيراً من الحضارات . ولكنها تغلبت بقوة إيمانها ومثانة نظامها عليها جسماً . فغلبها أو كادت . واستطاعت أن تصبغها وأن تحملها على لغتها ودينها بما فيها من روعة وحيوية وجمال . ولم يمنعها أن تأخذ النافع من هذه الحضارات جميعاً . من غير أن يؤثر ذلك في وحدتها الاجتماعية أو السياسية . » (١١١)

(١٠٩) الأعراف . ٤٣ .

(١١٠) [مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا] ص ٦٠

(١١١) المصدر السابق ص ١٣٠

ولقد كان ضروريا ، أمام الهجمة التغريبية العاتية ، وإزاء الضعف الذى أصاب ذاتية الأمة وقواها الواعية المستقلة ، كان ضروريا لفت الأنظار إلى أهمية التمييز بين «التفاعل الحضارى» و«الاستفادة» التى ينهض بها «السليم-الراشد» . وبين «التقليد والتبعية» . اللذين يفرضها الغالب على المغلوب . فالأولى تزيد «السليم» سلامة . و«الراشد» رشدا . أما الأخرى فهى مسخ للشخصية الحضارية المتميزة . وقهر بمارسه الغالب للمغلوب ! «فالإسلام لا يأبى أن نقبس النافع وأن نأخذ الحكمة أنى وجدناها . ولكنه يأبى كل الإباء أن ننسب» . فى كل شئ . بمن ليسوا من دين الله على شئ . وأن نطرح عقائده وفرائضه وحدوده وأحكامه . لتجرى وراء قوم فتنهم الدنيا واستهوتهم الشياطين !» (١١٢)

عالم اليقظة الإسلامية :

لقد أرسل الله . سبحانه وتعالى : رسوله . صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين كافة . فكانت عالمية الإسلام ، التى تتعدى حدود الأوطان والقوميات والقارات والأجناس ، واحدة من المبادئ التى انعقد عليها الإجماع .

لكن عصرنا قد شاعت وتشيع فيه مصطلحات من مثل «الوطنية» و«القومية» حتى لقد غدت «نظريات» و«مذاهب» لأحزاب وجاعات واشتجر الجدل واحتدم النقاش حول مكان هذه المصطلحات و«دوافعها»

وهـ حدودها « في معايير الإسلام .. فاستكرها البعض جملة وأنكرها بإطلاق .
لأبها - بنظره - من هـ وافد التغريب ! .. وتعصب لها البعض . جملة
وبإطلاق .

لكن الأستاذ النبا يدعونا إلى النظر في المضامين أولا وأساسا . فما وجدناه
من مضامينها صالحا ، مع الروح العالمية للإسلام قبلناه . بل وقبلنا معه ذات
المصطلح والوعاء ! .. وما ليس كذلك رفضناه .. وهو يهيج في معالجة هذه
القضية نهجا حكما ، تألق فيه فكره وأضاء

إنه يحتكم إلى الفطرة الإنسانية - والإسلام هو فطرة الله التي فطر الناس
عليها - . التي تتعلم منها تعدد وتدرج الدوائر التي تختبئ انتماء الإنسان
وولاءه . دونما تعارض أو تناقض بينها ... فذاتية الفرد . وروابطه
الأسرية . وعلاقاته العائلية أو القبلية أو العشائرية . والجامع الوطني الذي
يجمعه بشعبه .. وروابطه القومية مع الأمة القومية ... وآصرة الملة
والاعتقاد .. ثم الرابطة الإنسانية العامة .. هذه الروابط . ودوائرها إذا
اتسمت ببقاء الفطرة الإنسانية ، وورثت من التعصب والعنصرية . فلن يوجد
بينها تعارض ولا تناقض ولا تضاد ... إنما واقع فطري . تهديها عالمية
الإسلام عندما تنفي عنها التعصب العرقي والحمية الإقليمية والغررات القومية .
وتستثمر إيجابياتها للصالح الخاص والعام معا ١٩

بهذا النهج ، تناول الشيخ البنا علاقة الوطنية - التي كان يسميها « القومية
الخاصة » - بالدائرة « القومية العامة » - أي الدائرة العربية - بالدائرة
الإسلامية - إطار الجامعة الإسلامية - . فحدثنا عن أن الإسلام ، الذي
يعتبر المسلمين جميعا أمة واحدة . ويعتبر الوطن الإسلامي وطنا

واحدا .. « (١١٣) لا يتنكر للموطنية ، ولا للقومية .. بل يرى « الجامعة الإسلامية » ثمرة نلى الدائرة القومية . التى تلى ، هى الأخرى . دائرة الوطن الذى نشأ فيه المسلم ! فقط يتنكر الإسلام ويستنكر أن تعنى القومية « العصبية الخنسية والفخر الكاذب » .. أما إذا عنت « الاعتزاز بالمزايا والتاريخ » فهى مما تحتاج إليه « الأمم الناهضة » (١١٤) عندما تواجه التحديات التى تحول بينها وبين النهوض !

وفى مكان آخر ، يزيد الأستاذ البنا هذه المعانى - الخاصة « بالذواثر » المتتالية فى ارتباط وتناسق - يزيدنا تأكيدا ، فيقول : « إن الإخوان المسلمين يحبون وطنهم . ويحرصون على وحدته القومية . ثم إن هذا الإسلام الحنيف نشأ عربيا ، ووصل إلى الأمم عن طريق العرب . وجاء كتابه الكريم بلسان عربى مبين . وتوحدت الأمم باسمه على هذا اللسان . وقد جاء فى الأثر : « إذا ذل العرب ذل الإسلام » ! وقد تحقق هذا المعنى حين دال سلطان العرب السياسى . وانتقل الأمر من أيديهم إلى غيرهم من الأعاجم والديلم ومن إليهم . فالعرب هم عصبه الإسلام وحراسه .. ومن هنا كانت وحدة العرب أمرا لا بد منه لإعادة مجد الإسلام وإقامة دولته وإعزاز سلطانه . ومن هنا وجب على كل مسلم أن يعمل لإحياء الوحدة العربية وتأييدها ومناصرتها إن الإخوان المسلمين يحترمون قوميتهم الخاصة ، باعتبارها الأساس الأول للنهوض المنشود . ولا يرون بأسا أن يعمل كل إنسان لوطنه . وأن يقدمه فى العمل على سواه . ثم هم يعد ذلك يؤيدون الوحدة العربية .

(١١٣) المصدر السابق . ص ١٧٦

(١١٤) المصدر السابق . ص ٦١ - ٦٢

باعتبارها الحلقة الثانية في السبوض . ثم هم يعملون للجامعة الإسلامية . باعتبارها السباج الكامل للوطن الإسلامي العام . ثم هم يرون الخير للعالم كله . ولا تعارض بين هذه الوحدات . بهذا الاعتبار . فكل منها يشد أزر الأخرى ويحقق الغاية منها . (١١٥) ١٢

لقد دعا الرجل إلى أن نحتكم إلى الفطرة . التي نعلم الانطلاق من نقطة البدء الطبيعية . والتطلع إلى أبعد الآفاق . لكن عبر الطريق الطبيعي الذي يصل بين نقطة البدء وبين أبعد الآفاق . فقال لنا عن طريقه للنقطة الإسلامية . الذي بدأه من مصر : « إن مصر هي قطعة من أرض الإسلام . وزعيمة أمم (١١٦) . وفي المقدمة من دول الإسلام وشعوبه (١١٧) . والمصرية - أو القومية - لها في دعوتنا مكانها ومنزلتها وحققها في الكفاح والنضال ونحن حين نعمل لمصر نعمل للعروبة والشرق والإسلام والعروبة لها في دعوتنا . كذلك مكانها البارز . وحظها الوافر . فالعرب هم : أمة الإسلام الأولى وشعبه المتميز . ولئن نهض الإسلام بغير اجتماع كلمة الشعوب العربية ومهضتها . فنحن عندما نعمل للعروبة نعمل للإسلام . ولخير العالم كله إن دعوتنا ذات مراحل . نرجو أن تتحقق تباعا . وأن نقطعها جميعا . وأن نصل بعدها إلى الغاية . نرجو أن تقوم في مصر دولة مسلمة تحضن الإسلام . وتجمع كلمة العرب وتعمل لخيرهم . وتحمي المسلمين في أكناف الأرض من عدوان كل ذي عدوان . وتنتشر كلمة الله وتبلغ رسالته . حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ! » (١١٨)

(١١٧) المصدر السابق . ص ٩٩

(١١٨) المصدر السابق . ص ١١٢-١١٥

(١١٥) المصدر السابق . ص ١٧٦-١٧٨

(١١٦) المصدر السابق . ص ٨٨

وسبل التنفيذ :

وعلى قدر خطر «التحدى الحضارى» الذى نهضت جماعة [الإخوان المسلمين] لمواجهته . وعلى قدر شرف الغاية التى تمثلت فى اليقظة الإسلامية التى ابتغتها ، ليتصل ما انقطع من تطورنا الإسلامى بالتخلف والتراجع والجحود الذى أصابنا فى ظل سلطان دور العسكر المالك . وبالهرطقة النفسية أمام الغزوة الغربية الحديثة . على قدر هذا الخطر . وبقدر شرف تلك الغاية كان التدبير الذى اعتمد الشيخ حسن البنا تنفيذه . « بالدعوة » و « التنظيم »

فلقد كان الرجل مدركا لعظم المهمة التى يتصدى لها . وواعيا بالزمن والجهد والتنظيم الذى أفقده الأعداء . حتى حدث لنا ما حدث . ومن ثم ضرورة أن تكون حركة اليقظة الإسلامية على مستوى التحدى الذى نواجهه . ولذلك كان دائم الإلاحاح على أعضاء الجماعة - والشباب منهم خاصة - أن لا يتعجلوا مرحلة التنفيذ . وجنى الثمار قبل الأوان . ومن كلماته فى هذا الموضوع :

«أيها الإخوان المسلمون . وبخاصة المتحمسون المتعجلون منكم : اسمعوا منى تكلسه عالية مدوية . إن طريقكم هذا مرسومة خطواته . موضوعه حدوده . ولست مخالفًا هذه الحدود التى اقتضت كل الاقتناع بأنها أسلم طريق للوصول . أجل . قد تكون طريقًا ضوئية . ولكن ليس هناك غيرها . إنما تظهر الرجولة بالصبر والمثابرة والجِد والعمل الدائب . فمن أراد منكم أن يستعجل ثمرة قبل نضجها أو يقتطف زهرة قبل أوانها فلست معه فى ذلك بحال . وخير له أن ينصرف عن هذه الدعوة إلى غيرها من الدعوات . ومن صبر معى حتى تنمو البذرة - وتنبث الشجرة - وتصلح الشمرة - ويحين القطاف - فأجره فى

ذلك على الله ، ولئن يفوتنا وإياه أجر المحسنين : إما النصر والسيادة ، وإما الشهادة والسعادة .

أيها الإخوان المسلمون . أجمعوا نزوات العواطف بنظرات العقول .. ولا تصادموا نوااميس الكون فإنها غالبة . ولكن غالبوها واستخدموها وحوّلوا تيارها واستعينوا ببعضها على بعض ، وترقبوا ساعة النصر . وما هي منكم ببعيد ! .. (١١٩) .

هكذا تحدث الشيخ حسن البنا عن الأهداف العظمى لليقظة الإسلامية التي ابتغاها .. وعن السبيل إلى تحسيد الغايات النبيلة في الواقع الإسلامي ، حتى تعود الأمة إلى نقاء الإسلام ، وتضبط بشريعته الغراء حركة الفرد والأسرة والأمة وواقع الحياة ..

* * *

لكن ... هل كان « المؤتمنون المسترشدون » يعون حقيقة « التدبير والتقدير » لهذا الأمر . على نحو ما كان عليه في عقل « الإمام المرشد » ؟ .
إن تطور الأحداث ، بشكلك في أن يكون الجواب على هذا السؤال بالإيجاب (١٢٠) .

(١١٩) المصدر السابق ص ١٦١

(١٢٠) للمزيد من التفاصيل عن [الإخوان المسلمين] انظر الفصل الذي كتبه عليه بكتابنا [الصحوة الإسلامية والتحدى الحضاري] ص ٤١-٨٣ طبعة القاهرة سنة ١٩٨٥ م

(٦)

الجماعة الإسلامية

كانت الهند في العقد الرابع من هذا القرن العشرين - تروج بأحداث حركة التحرير الثائرة طلباً للحرية والاستقلال عن الاستعمار الإنجليزي . يقودها [حزب المؤتمر] الذي يقوده ، روحيا : غاندي [١٢٨٦-١٢٦٧ هـ ١٨٧٩ - ١٩٤٨ م] وتنظيماً : جواهر لال نهرو [١٣٠٦ - ١٣٨٣ هـ ١٨٨٩ - ١٩٦٤ م] والذي انخرط فيه جمهور الهنادكة ، والقطاع الأكبر من المثقفين والساسة والشباب المسلمين .. وإلى جانب هذا الحزب كان تيار إسلامي - يدعو إلى التميز عن هذه الحركة - في «التنظيم» : إيماناً منه باختلاف صورة المستقبل عند المسلم عنها عند الهندوكي ، لما بينهما من اختلاف «قومي» فيها - برأى هذا التيار الإسلامي - أماناً وقوميثان - وليسوا أمة واحدة ! .. وكان الشاعر الفيلسوف المجدد محمد إقبال [١٢٩٠-١٣٥٧ هـ ١٨٧٣-١٩٣٨ م] من أبرز رموز هذا التيار ..

وكان الأستاذ أبو الأعلى المودودي [١٣٢١-١٣٩٩ هـ - ١٩٠٣-١٩٧٩ م] قد ذاعت شهرته ، عبر مجلته [ترجمان القرآن] ، التي جعل شعارها : «احملوا - أيها المسلمون - دعوة القرآن ، وانهمضوا ، وحلقوا فوق العالم» ! فدعاه إقبال [١٣٥٦ هـ ١٩٣٧ م] إلى «الاهور» ، ليجارس نشاطه منها - فلبى الدعوة ، وغادر «حيدر آباد الدكن» ، ليجد نفسه - بعد وفاة إقبال في العام التالي - حاملاً لعبء الكبير في معركة نمايز المستقبل لمسلمي الهند عن مستقبل الهندوك ..

وفي السنوات الثلاث التي أعقبت موت إقبال كتب المودودي مؤلفاته التي بلورت فكره السياسي الإسلامي ، الذي واجه به «التحدي الحضاري» لمسلمي الهند ، والذي كان يتمثل في فكر الحضارة الغربية الغازية ، حول :
١- القومية السياسية الواحدة لكل الهنود ، المبينة على «وحدة الأرض» ، والمصلحة السياسية الواحدة ، في التحرر من الاستعمار الانجليزي .

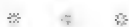
٢- والدولة «الديمقراطية» - على النمط الغربي - التي تحكمها «الأغلبية» - وهي هنا هندوكية - وتخضع فيها «الأقلية» - وهي هنا إسلامية !

٣- «والعلمانية» ، التي تفضل «الدين» عن «الدولة» ، ولا تجعل الدين قسمة يتنازعها الناس قوميا وحضاريا . وما تمثله هذه العلمانية من سيادة «الروح المادية» للحضارة الغربية في مختلف مناحي الحياة وماتعنيه من عدوان على الطابع المشعولي للإسلام ، كدين ودولة .

أما الجناح الآخر هذا «التحدي الحضاري» فكان «التخلف الموروث» ، والمقصود - زورا وبهتانا - على الإسلام ، والمتمثل في «الفكر الإسلامي التقليدي» . السائد في المؤسسات الإسلامية التقليدية . وهو الفكر الذي طمس تألق الإسلام وحجاريته ، فأسهم هذا الطمس في دفع الكثيرين من مسلمي الهند إلى صفوف حزب المؤتمر ، بعد أن آمنوا بأن النمط الحضاري الغربي هو أنسب الأنماط الحضارية لنهضة «عموم الهند» . . .

وبعد تبلور فكر المودودي ، امتلكت هذا الفكر «أداته» المناضلة . فتأسست [الجماعة الإسلامية] - التي اختارت المودودي أميرا لها - [١٣٦٠ هـ / ١٩٤١ م] . لتكون فصيلا متميزا من فصائل البقطة الإسلامية . في هذا

الواقع الإسلامي المتميز^{١٤}.. فالحال هنا ليس كما هو في مصر وبلاد الوطن العربي.. فالمسلمون أقلية.. واثيمنة - بعد الاستعمار «الكافر» - «للوثنية» الهندوكية.. والقوميات متعددة.. وتعددتها يعكس التعددية الحضارية في شبه القارة الهندية..



رفض الجاهلية الوافدة :

ونقد أبصر المودودي ، في عبقرية المسلم الذي انطبع عقله وضميره بالطابع المتميز لحضارة الإسلام . أبصر مخاطر الحضارة المادية الغربية على الخاضر والمستقبل للإسلام والمسلمين .. فكراً .. ووطناً .. وإنساناً .. فحدد أن «التغريب» هو الهزيمة الحقيقية . بل قة الهزيمة أمام الأعداء التاريخيين . إنه «الخيار البائس» للجاهلية بديلاً عن الإسلام^{١٥}.. فأفاض في الحديث عن حال المسلمين . بعد أن انهزموا عسكرياً أمام جيوش الحضارة الغربية . عندما «استسلموا لثقافتها وفلسفتها» . فما لم يستطع سيف البلاد الغربية إنجازه أكملته فلسفتها . ولم تجر على العالم الإسلامي سيطرتها السياسية ما جرّه عليه غزوها الحضاري والفكري من البليات والمضايقات . فالسيطرة السياسية كانت تحكم في الأجساد فقط . أما السيطرة الحضارية والفكرية فقد تحكمت في العقول والأذهان^{١٦}.. «(١٦١)

ونقد عرض المودودي للنظريات الرئيسية التي طبعت الفكر الغربي

(١٦١) [الطريق إلى وحدة الأمة الإسلامية] ص ٢١ ترجمة د. محمد عبد الحميد البراهيم طبعه القاهرة

سنة ١٤٠١ هـ

الحديث بطابعه التمييز . وكشف عن دلالتها على أصالة الطابع «المادى-الإلحادى» لحضارة الغرب تاريخيا . وكيف أن هذه النظريات الحديثة لم تخرج بهذه الحضارة عن ذلك المسار ، بل لقد دعمت الطابع المادى والعدوانى لهذه الحضارة !..

● فى فلسفة التاريخ : سادت نظرية الفيلسوف الألمان هيجل Hegel [١٧٧٠-١٨٣١ م] « وخلاصتها : أن كل نظام للحضارة ، فى عصر من عصور التاريخ ، إنما يكون مبناه . بجميع شعبه وصوره . على أخيلة خاصة تجعله فى العالم عصرًا للحضارة والمدنية . فإذا أدرك هذا العصر بدأت تظهر للعيون مواضع الضعف ومواطن الانحلال والتداعى فى بنيانه . فهناك تنفخ وترفع الرأس أخيلة وأفكار تصارعه . ولا تنتهى هذه المصارعة إلا بعصر جديد من الحضارة والمدنية : يكون فيه بقايا من الانقراض الصالحة للعصر المنقرض . كما تتولد فيه حساسات ومخامد جديدة بحكم تأثير الأفكار الغالبية التى أغارت على عصر الحضارة المنقرض وأرغمته على المسألة (١٢٢) ١٢٠

ورغم ما قد يبدو لهذه النظرية اضيقية فى تفسير التاريخ والتطور الحضارى من عناصر صدق ووجاهة ، إلا أنها تميل بكفة الميزان إلى عوامل «التغير» و «التطور» و «نسخ الجديد للقديم» . الأمر الذى يقلص حجم «الثوابت» الباقية عبر العصور . حتى لو كانت هذه «الثوابت» هى «الدين» و «القيم» و «القسيمات الحضارية» التى تميز الأمة كما تميز «البصمة»

(١٢٢) (وتقع للمسلمين ومبيل النبوض - ج١) ص ١٤٥ ترجمة محمد عازم الحاداد - طبعة بيروت سنة

الإنسان ١٤. وهذا الميل إلى «التغيير» على حساب «الثبات» هو ما ترفضه روح الحضارة الإسلامية ، التي وازنت بين الأقطاب . في مختلف الظواهر . طبيعية كانت أو اجتماعية . فبرئت من هذا الانحراف

و بمقاييس هذه الفلسفة المهيكلية في تفسير التاريخ ، فتحن - بعد الغزوة الاستعمارية - التي غيرت واقعنا - نعيش واقعا جديدا لعصر جديد . ينطبع واقعه بالطابع الغربي . في طرق التنمية والتحديث وطرائق العيش . ومن ثم فإن «الطبيعي» - وفق هذه النظرية- أن تخلى «ثوابتنا» الموروثة الميدان للفكر والحضارة التي هي انعكاس لهذا «الواقع» الجديد . ولما كان هذا الواقع «غربيا» . فإن «الحضارة الغربية» هي التي يجب أن تسود ١٥.

والمودودي يتساءل عن مخاطر هذه الفلسفة التاريخية علينا . فيقول : « فهل نرجو من يكون قد رسخ في ذهنه مثل هذا التصور للتاريخ الإنساني . أن تبقى في قلبه أثارة من التقدير أو ذرة من الإجلال للعصور التي مضى فيها الرسل والأنبياء ١٦ . وهل يرجع مستهديا إلى عهد النبوة والخلافة الراشدة ١٧ الحق أن هذه الفلسفة هي حملة فكرية منظمة مدججة بالبراهين والحجج تكاد تأق الفكرة الدينية من أساسها ! » (١٢٣)

ونحن ننبه على أن سلطان هذه النظرية هو الذي أفرز النظرات التي ترى الدين رجعية وتخلقا . وترى الشريعة قانونا قد عفى عليه الزمن . وترى في «الخيار الإسلامي» عودة إلى الوراء . الخ . الخ . لأن أصحاب هذه النظرات قد أعملوا هذه النظرية . فاعتقدوا بوجوب نسخ الأنساق الفكرية

(١٢٣) المرجع السابق . ص ١٤٦ ، ١٤٧

التي سادت في المراحل السابقة من التاريخ ١٢

● وفي التطور الإنساني عند دارون : وخلاصة نظرية دارون Darwin [١٨٠٩-١٨٢٢م] : هي أن نشأة الحياة والأحياء وتطورهما محكومان بقانون : تنازع البقاء . وفي هذا التنازع قانون يقضى بأن البقاء للأصلح ، والأصلح هو الأقوى . فالقضاء للضعيف ١٣

وإذا كانت الهيجلية - في التاريخ - قد جعلت نسخ الحديد « ثنويات » العصر القديم مشروعا وطبيعيا و « قانونيا » . فإن الدارونية تجعل « نسخ » القوى للضعيف - بإفئائه وإزاحته من الطريق - هو « القانون » الطبيعي والمشروع ١٤ .

ولقد لعبت هذه الفلسفة الدور الأعظم لتبرير عدوانية الرجل الأوربي على غيره . وعدوانية حضارته على غيرها من الحضارات . فالاستعمار الاستيطاني الذي يبذل السكان الأصليين - كما في حالة الهنود الحمر - تبرره الدارونية ! والاحتلال العسكري والسيطرة السياسية والنهب الاقتصادي من قبل « القوة الغربية » للبلاد « الضعيفة » . على نحو يعود الأمم المغلوبة من السيطرة على مقدرات بلادها - أي يحلها - وكأنه يبيدها - عن مقدرات بلادها - يبرره قانون دارون الخاص بتنازع البقاء . لأن الأقوى هو الأصلح ١٥ - و « الصلاح » هنا تحدده مادية الحضارة الغربية . فتجعله مرادفا « للقوة » ١٦ .

ولقد لعبت هذه الفلسفة الدور الأعظم في تبرير عدوانية الغرب وحضارته على الشعوب الأخرى وموارثها الحضارية . فشرعت في نسخ ونسخ هذه الموارث . بتغريب شعوبها . لأنها هي « الأقوى » وما دامت هي « الأقوى » فهي « الأصلح » . الذي يجب أن ينفرد بالبقاء ١٧

ويقدر ما بررت الدارونية عدوانية الرجل الغري . فإنها قد كشفت عن الطابع العدواني لحضارته الغريبة ؟ والمودودي يكشف هذه السوءة من سوءات الحضارة الغريبة ، فيقول : «إنها تجعل الكون مضاراً للمصارعة . وفيها أن من طبيعة الفطرة أن لا يستحق البقاء إلا الأقوى فالأرض وما فيها ، ووسائل الحياة وما بها لا يستحقها إلا القوى الذي يثبت أهليته للبقاء والحياة . ولاحق للضعيف في هذه الأشياء . وعليه أن يخل المكان للقوى . والقوى على حق تماماً إذا أخذ مكان الضعيف بعد إزاحته عنه أو قضائه عليه ! . ولعمر الحق ! لو كان يقي في ضماير أهل الغرب شيء بخالج ضمايرهم . فقد أزاله دارون بحججه وشواهدة ... لقد حولت الإنسان ذنباً مفترساً لأخيه في ميادين الاجتماع والمدنية والسياسة ! »^(١٢٤)

● وفي الصراع الطبقي عند ماركس : وإذا كانت الضيحية قد غلبت «التغير» على «الثبوت» ، وجعلت «الصراع» هو قانون «الفكر» وجاءت الدارونية فبررت غلبة «القوة» وحدها . وجعلت «الصراع» قانون «الطبيعة» .. فإن «الصراع الطبقي» عند كارل ماركس Marx [١٨١٧-١٨٨٣ م] قد أصبح هو القانون الذي يحكم تطور المجتمع . بل لقد اعتبر «التناقض والصراع» هو «المطلق» الوحيد . وكل ما عداه فهو نسبي : يزيد وينقص . بل ويزول بتغير الظروف والملازمات ! فهو ليس مجرد «واقع» يهذب الإنسان وينظم شذوذه ويكبح جماحه . بل هو «القانون» . والحير في تسميته وتغذيته دائماً وأبداً . إنها غلبة «القوة»

(١٢٤) المرجع السابق . ص ١٤٧ ، ١٤٨

والصراع». تلك الحضارة الغربية، كما تكشف عن حقيقتها هذه النظريات ١٢.

والأستاذ المودودي يلمس هذه الحقيقة فيقول: «فلقد جعل هيجل العالم الفكرى ميدانا للصراع. وجاء دارون وقدم الفطرة كميكان للحرب. ثم جاء بعده ماركس وصور المجتمع بنفس هذه الصورة» (١٢٥).

فهى. إذن. «حضارة الجاهلية الجديدة» - كما قال المودودي - تلك التى غدت. بالاستعمار. أخطر التحديات التى تواجه تيار اليقظة الإسلامية الحديثة

* * *

لكن المودودي لم يكن صاحب موقف «متعصب» من الحضارة الغربية ككل. ولم ينسحب وقصه لسلبياتها. عل كل ميادين إبداعها. وخاصة الإبداع «العنى». والإنجازات التى لا تمثل خطرا على الذاتية الحضارية المتميزة حضارتنا الإسلامية. فهو نصير «للتفاعل الحضارى». يعتبر الأخذ والعطاء بين الحضارات ظاهرة طبيعية وصحية ومطلوبة. طالما لم تصل إلى درجة «التشبه والتقليد» اللذين يفقدان الأخذ المقلد هويته المتميزة. فيقول: «أما موقف الإسلام من الحضارة والثقافة والتعلم. وما يتم فيها من أخذ وعطاء. فهو شىء فطرى فى الأمم التى تختلط بعضها ببعض. فهو لا يحيزه فقط. بل يريد له الازدهار. فهو لا يريد لحدوان التعصب بين الأمم أن تبقى قائمة فلا تأخذ أمة فى حضارتها من أمة أخرى شيئا» (١٢٦).

(١٢٥) المرجع السابق ص ١٤٩

(١٢٦) [الأمة الإسلامية وقضية القومية] ص ٩٨. ترجمة محمد عبد الحميد إبراهيم. مطبعة القاهرة سنة

فهو يرفض جاهلية الغرب . دون أن يرفض كل إبداع الغرب !



وفي مواجهة « الجاهلية الموروثة » : ! ! :

ولم يكن « التغريب » وحده هو الذى وصفه المودودى بـ « الجاهلية » بل نقد وجدناه وقد انفرذ دون سائر أعلام اليقظة الإسلامية فشاعت في كتاباته الأحكام التى تصف « الموروث » و « الواقع » و « المجتمعات » الإسلامية بـ « الجاهلية » أيضا !^{١٢٧} ويتكرر حديثه عن « ارتداد » المجتمع بـ « المسمى » بالإسلامى - إلى « الجاهلية » الماثلة لتلك التى أخرج الإسلام العرب من ظلماتها إلى نوره وتويره فكان أول من من هذه السنة في تيار اليقظة الإسلامية الحديث !

معند المودودى أن « الجاهلية الموروثة » هى التى فتحت الباب « للجاهلية الغربية الحديثة » . وأعرت الوحش بالفريسة ! . فكان « الاستعباد الذى ابتلينا به في القرن التاسع عشر نتيجة محتومة لانحطاطنا البدنى والخلق والفكرى . الذى كنا مترددين فيه من قرون عديدة ! »^(١٢٧) وهو يرجع مسئولية هذا الانحطاط إلى « الأمراء » و « الساسة » و « حملة الدين وعلمائه ، الذين يتحملون في ذلك وزرا كبيرا .. »^(١٢٨) .

(١٢٧) ١- واقع المسلمين وسبيل النهوض بهم [ص ١٢٩]

(١٢٨) [نظرية الإسلام السياسية] ص ٢٢ ترجمة خليل حسن الإسلامى - طبعة بيروت - ص ٢٢

مجموعة - سنة ١٩٦٩ م

والمودودي لا يرجع هذه «الجاهلية الموروثة» إلى عصور التخلف والتراجع والجمود. كما ذهب إلى ذلك غيره من أعلام اليقظة الإسلامية. وإنما يعود بها إلى عهد الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان [٤٧ق.هـ - ٣٥هـ - ٥٧٧-٦٥٦ م] رضى الله عنه وأرضاه !. ففى رأيه أن الأمر بعد أن انتقل إلى عثمان . سار على نهج الخلافة الراشدة «عدة سنين» ثم حدثت الشجرة . التى نحم منها قول الجاهلية من جديد ! لأن الخليفة الثالث لم يكن يتصف بتلك الخصائص التى أوتىها العظمان اللذان سبقاه . فوجدت الجاهلية سبيلها إلى النظام الجماعى الإسلامى^(١٢٩) . ثم بقضى فيصنف بـ «الجاهلية» كل الدول التى تعاقبت على حكم المسلمين . أموية وعباسية وثركية . باستثناء العامين اللذين حكمتهما خامس الراشدين عشرين عبد العزيز [٦١-١٠١هـ - ٦٨١-٧٢٠ م] وبحكم بها كذلك على ما استفاداه المسلمون من الموارث الحضارية للأهم الأخرى . عندما استوردوا فلسفات اليونان والروم والعجم . وأشاعوها بين المسلمين على صورتها التى كانت عليها . فانتشرت ضلالات الجاهلية الأولى - [جاهلية اليونان وما نأظرها] - وأباطيلها فى جميع العلوم والفنون والتمدن والاجتماع^(١٣٠) .

وهنا نلاحظ أن المودودي . فى تصميمه لهذا الاتصال الحضارى بين المسلمين والأمم الأخرى . قد اختلف عن حسن البنا فى تفهيم هذا الاتصال وذلك التفاعل . فالبنا قد رآه ظاهرة صحية . لم تحول الأمة عن هويتها المتميزة^(١٣١) .

(١٢٩) [موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه] ص ٣٤-٣٧ طبعة بيروت سنة ١٩٧٥ م

(١٣٠) المرجع السابق . ص ٦٣ . ٦٤

(١٣١) حسن البنا [مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا] ص ١٣٠

على حين اعتبره المودودي دعما جاهليا شد من أثر الجاهلية التي وثبت منذ عصر عثمان بن عفان !

وهذا التقييد - الذي انفرد به المودودي - عندما حكم به «الجاهلية» على المجتمع الإسلامي وتراثه.. شاعت في كتابات الرجل أحكام «الكفر» و«الردة» التي أطلقها على واقع المسلمين «ومجتمعاتهم» لكنه تحفظ في إطلاق أحكام «الكفر» و«الردة» على «الأمة» وعلى «الفرد» أيضا.. فرغم الجاهلية - ظل «الإسلام» يعم بركاته وخيراته - ولو على وجه غير مباشر - قصور الدول والحكومات - ومدارس الفلسفة والحكمة - ودور التجارة والصناعة - وزوايا الخلوة والاعتكاف - وسائر شعب الحياة - واستمر نفوذه في العامة - على رغم ألف جاهلية الشرك... وظل مستوى أخلاق الشعوب المسلمة أعلى وأرفع دائما من أخلاق سائر الأمم وفوق ذلك كله - ما خلا عصر من العصور من أناس استمسكوا بعروة الإسلام وسعوا في إحياء هدايته العلمية والعملية في حياتهم أنفسهم وفي الخلقة المحدودة الواقعة تحت تأثيرهم ونفوذهم^(١٣٢)

وكما حكم بالجاهلية على «الواقع» و«المجتمع» و«الموروث» - دون «الأمة» - كذلك حكم على «المجتمع» بـ «الكفر» لأنه قد احتكم إلى غير حكم الله - وقطع بنق «الإسلامية» عنه عندما سلك هذا السبيل - فقال : «ولعمر الحق - لا يمكن لإنسان - ما لم يكن مصابا في عقله - أن يتصور كون أحد من المجتمعات في الدنيا إسلاميا على الرغم من اختياره منها غير منهاج الإسلام لحياته... إن المجتمع إذا جاء - على بصيرة منه - وبإرادته الحرة - بغير بأن الشريعة لم تعد منهاجا لحياته - وأنه سوف يصنع منهاج حياته بنفسه أو

(١٣٢) [موجز تاريخ تجريد الدين وإحيائه] ص ٤١، ٤٢.

يقتضيه من مصدر غير مصدرها ، فليس ثمة سبب لتطلق عليه كلمة « المجتمع الإسلامي » أبداً (١٣٣) . . . !

هذا عن « الواقع » و « المجتمع » . . . لم يتخرج المودودي عندما قطع بارتدادهما عن الإسلام ، إلى « الكفر » و « الجاهلية » .

أما بالنسبة « للفرد » . فلقد تخرج من « تكفيره » ، فقال بإسلام كل من نطق بالشهادتين لكنه اعتبر ذلك : « شكل الإسلام » - أى « الإسلام القانوني » « فالسلم » من الناحية القانونية ، هو من نطق بالشهادة شفاهة ، ولا ينكر أساسيات الدين . وهذا المعنى يدخل في دائرة الإسلام كل مسلم لا يزيد في جوهره عن ذلك . وليس في وسعنا أن نسميه كافراً ، أو نمنعه حقوقه التي يحصل عليها في المجتمع الإسلامي بمجرد إقراره بالإسلام . . . ويستطرد المودودي ، فيقول : « غير أن هذا ليس الإسلام عينه ، بل هو إجازة أو تصريح بالدخول في دائرة الإسلام . أما جوهر الإسلام فهو : أن تطوع ذهنك وفق مبادئ الإسلام - ويصبح أسلوب تفكيرك هو أسلوب القرآن في التفكير - وتصير نظرتك إلى الحياة وأمورها هي نظرة القرآن لها ، وتزن الأشياء بالمعيار الذي اختاره القرآن وحدده . وأن يكون هدفك الشخصي والجماعي هو الهدف الذي بينه القرآن وأقره ، وأن تتخلى عن مختلف طرق الحياة وتختار طريقاً تحدد اختياره بما تلقاه من قوانين القرآن والسنة المحمدية . فإن قبل عقلك هذا . وتوحدت مشاعرك ومشاعر القرآن . فإن السبيل الذي تسلكه في الحياة لن يكون غير ما سماه القرآن : سبيل المؤمنين .. » (١٣٤) .

(١٣٣) [القانون الإسلامي وطرق تليده في باكستان] ١٥٣ - ١٥٤ - طبعة بيروت - ضمن مجموعة -

سنة ١٩٦٩ م

(١٣٤) [الحكومة الإسلامية] ص ١٣ - ترجمة أحمد إدريس . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧ م

فهو قد وسع من إطار «الإسلام القانوني» - شكل الإسلام - ليشمل كل من نطق بالشهادة ولم ينكر أساسيات الدين . ومنع وصفه «بالكفر» أو حرمانه حقوق المسلم في المجتمع . . . لكنه ضيق نطاق «الإسلام الجوهرى» حتى لقد جعله خاصا بالصفوة المناصلة في سبيل سيادة الإسلام ! .

ثم وجدناه يعود ليحكم على «الفرد» بـ «الردة الجزئية» . المفضية إلى «الردة النهائية» . إذا هو خالف الشريعة في «التكاليف الاجتماعية» . فيخطئه قائلا : إنك «إذا سلكت في قضاياك السياسية والاقتصادية مسلكا يتفق وخطه أخرى غير خطة الإسلام الحكيمة» . فإن صيغتك هذا يعتبر ارتدادا جزئيا . يفضى بك إلى ارتداد كلي نهائى ! (١٣٥)

فكانه . وإن تخرج من الحكم بالكفر والردة على الفرد بالمعاصي في الفرائض العينية . إلا أنه قد جعل مخالفة الشريعة في الفروض الكفائية - الاجتماعية - كفرا وردة . سواء أحدث ذلك من الفرد أو من المجتمع لكنه - وذلك خطأ بين - لم يفرق بين الخروج عن الشريعة - من الفرد أو المجتمع - إنكارا لها وجحودا . أو الخروج عليها تقصيرا وعصيانا الأمر الذى جعل صياغاته هذه تفعل ربما عكس ما أراد الرجل : فتسهم في شيوع نهم «الكفر» وأحكام «الردة» التى ألصقها كثيرون ممن تأثروا بفكره . سواء على الأفراد أو على المجتمعات . حتى لقد أزعج هذا الأمر إسلاميين كثيرين . تخرجوا من مغبة الآثار المترتبة على شيوع «التكفير» في المناخ الفكرى لتيارات البقطة الإسلامية . . . ولقد تأكد وصدق حدس هؤلاء . خصوصا بعد أن أصبح «التكفير» سلاحا تشهره «جماعات إسلامية» ضد «جماعات إسلامية» أخرى

لفقدنا مرضاً يجعل بأس الإسلاميين بينهم شديداً ١٢.

كذلك أخطأ المودودي خطأً يَبِيناً عندما حكم بالجاهلية على «المجتمع الإسلامي». لما شاب إسلام هذا المجتمع من سمات الجاهلية. لأنه لم يميز بين العودة كلية إلى الجاهلية. بالردة التي تنكر الإسلام وتجهد عقيدته وشريعته. وبين المعاصي والذنوب المتمثلة في تعطيل كثير أو قليل من أحكام الشريعة - دون إنكار لها أو جحود - ونحن جميعاً نعلم أن أبا ذر الغفاري - رضي الله عنه - عندما أتى أمراً من أمور الجاهلية - قال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : يا أبا ذر ، «إنك امرؤ فيك جاهلية»^{١٣} . ولم يقتل الرسول . ولا قال غيره : إن أبا ذر قد ارتد عن الإسلام إلى «الجاهلية» . أو أنه قد أصبح «جاهلياً» . فشقان بين من فيه - فرداً كان أو مجتمعاً - شوائب - قلت أو كثرت - من سمات الجاهلية ، وبين من عاد - فرداً أو مجتمعاً - إلى الجاهلية بالردة عن الإسلام . التي هي الجحود والإنكار ، وليست المعاصي والتقصير ؟!

إن الإعجاب بتقد المودودي للحضارة الغربية ، والتقدير لنضاله في سبيل البقعة الإسلامية . لا يمنع من تقدر في موقفه هذا . فلقد سنّ في ميدان البقعة الإسلامية الحديثة - بإطلاقه أحكام «الجاهلية» و «الكفر» و «الردة» على المجتمعات الإسلامية - سنّ سنة سيئة آتت - ولا زالت - ثمرات مرة تمت في عضد الإسلاميين . وتستترق من حركة البقعة الإسلامية طاقات وطاقات ١.



(١٣٦) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي وابن حنبل

الحاكمية الإلهية :

وكما قال المودودي - في الحكم على المجتمعات الإسلامية بالجاهلية والكفر - قولاً انفرد به دون أعلام اليقظة الإسلامية وأئمتها .. كذلك ذهب فأحياناً شعاراً من شعارات الخوارج - رغم عدائهم لهم ولفكرهم - هو شعار « الحاكمية » - فأثار به بلبلة ولغظاً وشبهات كثيرة في حقل الفكر السياسي الإسلامي المعاصر . صحيح أن فكره في « الحاكمية » إذا قُرئ متكاملًا ، وفهم جيدًا ، فلن يثير ما فهمه منه البعض ، ولن يؤدي إلى ما أدى إليه من بلبلة وشبهات . لكن بعث شعار موهم .. وصياغة عبارات موهمة - في الحديث عنه - كما صنع المودودي . كان ولا بد أن يأتي بعكس ما أراد الرجل من وراء بعثه لهذا الشعار ؟ !

لقد صاغ الرجل « في حديثه عن « الحاكمية » . صياغات غامضة وموهمة تنفي أية حاكمية أو سلطة للإنسان . وذلك من مثل قوله : « إن وجهة نظر العقيدة الإسلامية تقول : إن الحق وحده هو الحاكم بذاته وأصله . وأن حكم سواه موهوب ومنح . وإن أي شخص أو جماعة يدعى لنفسه أو لغيره حاكمية كلية أو جزئية ، في ظل هذا النظام ، وهو ولا ريب سادر في الإفك والزور والبهتان المبين . وإن الإنسان لاحظ له من الحاكمية إطلاقاً . وإن وضعية الدولة الإسلامية : أنها ليست ديمقراطية .. فالديمقراطية ليست من الإسلام في شيء . فلا يصح إطلاق كلمة الديمقراطية على نظام الدولة الإسلامية ... ! » (١٣٧)

(١٣٧) [الحكومة الإسلامية] ص ٨١ - ٨٢ - ٧٠ - ٧٣ . و [نظرية الإسلام السياسية]

ورغم أن المودودي قد ضبط مفهومه « للحاكمية » . فقال إنه يعني بها :
 « السلطة العليا . والمطلقة . سلطة [الفعال لما يريد] الذي [لا يُسأل عما يفعل] »^(١٣٨) . وهي بهذا المعنى خاصة ومختصة بالله ، سبحانه وتعالى ، وليس هناك مسلم . بل ولا غير مسلم . يصفيا - بهذا المعنى - على إنسان - رغم هذا الضبط - الذي غفل عنه أو تغافل الكثيرون ! - فإن عبارات المودودي هذه قد فعلت أبلغ الضرر في صفوف كثير من الإسلاميين . الذين اطلقوا منها بصوروا عداء الإسلام لكون الأمة . في السياسة للدولة والتنظيم للسجّيع . هي مصدر السلطات فتوهوا . وأوهوا الحياز الإسلام إلى الدولة التيقراطية . الأمر الذي أسعد « العلمانيين » . عندما سلحهم هذا الفهم القاصر سلاح ظنوه فعلا في المعركة ضد إسلامية السياسة والدولة في عالم الإسلام ! . . .

ونحن نقول : إن المودودي قد ظلم قراءه . بهذا الشعار « المشبوه » - منذ رفع الخوارج له وانفرادهم بتريده - وهذه العبارات الموهمة . التي أضلت كثيرا من شباب الإسلاميين . . . ونقول أيضا : إن المودودي قد ظلم من قبل الذين وقفوا عند هذه العبارات الموهمة . ولم يقرأوا ضبطه لمعنى الحاكمية عنده وأيضاً لم يقرأوا عبارات كثيرة كتبها الرجل توضح وتشرح أنه لم يكن عدواً للديمقراطية . كنظام يعطى الأمة السلطة والسلطان في سياسة الدولة وتنظيم المجتمع . وإنما كان عداؤه ورفضه لإطلاق الديمقراطية الغربية العنان لسلطان الأمة إلى الحد الذي تحل فيه الحرام وتحرم فيه الحلال . كما كان عداؤه للمؤسسة الديمقراطية - القائمة على حكم الأغلبية وخضوع الأقلية . إذا كانت الأغلبية ثابتة . لتمييزها الديني والحضاري عن الأقلية . كما كان حال الهند

(١٣٨) [الدول الدستورية الإسلامي] ص ٢٥١ - ٢٥٢ طبعة بيروت - ضمن مجموعة سنة ١٩٦٩ م

- ٧٥٪ هندوك و ٢٥٪ مسلمين - لأن هذه المؤسسة ستكون - في الحقيقة - ديكتاتورية الجوهر والمضمون ١٩.

لقد ضمت الآثار الفكرية للمودودي الكثير من الصياغات التي ضبطت فكره في هذا الموضوع . وذلك من مثل قوله : إن الحكومة الإسلامية « قد خول فيها للمسلمين حاكمية شعبية مقيدة » بمقاصد الشريعة وحدودها (١٣٩) « وما لم يرد فيه نص - وهو المجال الأوسع - فلاهل الحل والعقد أن يتحدثوا في سن الأنظمة التي تحقق مصلحة الأمة بالمشورة المتبادلة . على أن تكون منسجمة مع الإطار العام لأسس الشريعة (١٤٠) ... والخلافة الإسلامية ديمقراطية ... وديمقراطيتنا الإسلامية هي - كديمقراطية الغرب - لا تتألف الحكومة فيها ولا تتغير إلا بالرأى العام . ولكن الفرق بيننا وبينهم : أنهم يحسبون ديمقراطيتهم حرة مطلقة العنان . ونحن نعتقد الخلافة الديمقراطية منقيدة بقانون الله عز وجل (١٤١) ... فالخلافة الإسلامية هي ديمقراطية في جوهرها وروحها . يتم فيها انتخاب الخليفة أو الرئيس أو الأمير وفق رأى الجماهير وبإرادتهم الحرة . كما يتم فيها انتخاب أهل الحل والعقد والشورى كذلك . وهم الذين هم الحق المطلق في نقد تصرفات الحكام ومحاسبتهم (١٤٢) ... ! »

فبعد أن نفى عن الإنسان « أى حظ من الحاكمية » عاد وقرر له « حاكمية شعبية » في المجال الأوسع - الذي لم يرد فيه نص شرعى ... وبعد أنه نفى

(١٣٩) [نظرية الإسلام السياسية] ص ٣٤ - ٣٥ و [الإسلام والمدينة الحديثة] ص ٣٦ طبعه القاهرة سنة ١٩٧٨ .

(١٤٠) [الإسلام والمدينة الحديثة] ص ٤٠

(١٤١) [تبويب الدستور الإسلامى] ص ٢٥٩ - ٢٦٠

(١٤٢) [الإسلام والمدينة الحديثة] ص ٣٦ - ٣٨

اتصاف الدولة الإسلامية بالديمقراطية - عا د فقرر أنها دولة « ديمقراطية الجوهر والروح » ومصدر السلطة فيها الأمة والرأى العام - شريطة الانساق مع مقاصد الشريعة وحدودها ! ! !

لكن الذى شاع .. هو المفاهيم الغامضة والعبارات الموهمة . فانضم مفهوم وشعار « الحاكمية » إلى مفهوم وشعار « الجاهلية » و « الردة » و « الكفر » - تلك التى ابتدعها المودودى . غير مسبوق إليها فى حركة اليقظة الإسلامية الحديثة - لتصبح « معالم الطريق » لتبارى الرفض والغلو بين الإسلاميين المعاصرين (١٤٣) ١

(١٤٣) لمزيد من التفاصيل عن المودودى و « الحاجة الإسلامية » انظر كتابنا [المودودى والنصيرية الإسلامية] مطبعة بيروت سنة ١٩٨٦ م . ومطبعة القاهرة سنة ١٩٨٧ م . وكذلك الفصل الذى كتبناه عن « الحاجة الإسلامية » كتابنا [النصيرية الإسلامية والتحدى الحضارى] ص ٨٥ -

(٧)

تيار الرفض .. الانقلابي

في ١٣ ربيع الثاني سنة ١٣٦٨ هـ [١٢ فبراير سنة ١٩٤٩ م] استشهد الإمام حسن البنا ، المرشد العام للجماعة [الإخوان المسلمين] برصاص خصومه . في وضع النهار ، وفي واحد من أكثر شوارع القاهرة أهمية وحركة ١٩ .

وكان العام الذي سبق اغتياله قد شهد عددا من حوادث العنف التي قامت بها «كتائب الإخوان» - النظام الخاص - السري - المسلح - فتصاعد الصراع بين الجماعة وبين الحكومة ليبلغ الذروة بقرار الحكومة حل الجماعة في ٦ صفر سنة ١٣٦٨ هـ ٨ ديسمبر سنة ١٩٤٨ م . والذي أعقبه - بعد عشرين يوما - اعتقال الإخوان لرئيس الوزراء محمود فهمي النقراشي باشا [١٣٠٥-١٣٦٨ هـ ١٨٨٨-١٩٤٨ م] فتصاعدت حملة القمع ضد [الإخوان] اعتقالا وسجنا وتعديبا . ثم بلغت محنتهم الكبرى - الأولى - الذروة باغتيال المرشد العام

ومنذ ذلك التاريخ دخلت دعوة [الإخوان] وحركتها في منعطف تاريخي جديد . أصبح أن محنة الاعتقال والسجن والتعذيب قد انتهت بعودة [الوفد] - حزب الأغلبية - إلى الحكم في ٢٢ ربيع أول سنة ١٣٦٩ هـ ١٢ يناير سنة ١٩٥٠ م . . . ولكن «الحجة الحقيقية» قد استمرت . محنة فقد الجماعة لإمامها الملهم ، وقبائها التاريخي . ومرشدها العام ومفكرها شبه الوحيد ١٩ .

لقد كانت إحدى سليات هذه الجماعة هي ذلك الفارق الكبير والمسافة الطويلة والمساحة الكبيرة بين القائد المرشد - وعيا ووضوح رؤية - ومرونة حركة ،

« واتساع أفق » ، وإدراكا لعظم الغاية . ومن ثم الإصرار على « سياسة المراحل » ،
الرافضة للتعجل والعجلة - وبين رجالات الصف الثاني في الجماعة - دعت ممن
خلف هذا الصف الثاني ؟ - فلما افتقدت الجماعة « الربان » - والسفينة
تكتنفها العواصف - وتحيط بها ظلمات بعضها فوق بعض في بحر ألجى - فقدت
مع « المرشد » كثيرا من « الرشد » الذي تمثل فيه ؟ ! - فدخلت بذلك الحدث
الأساوي في منعطف جديد !

وعندما كان شباب الجماعة يعذبون في السجون والمعتقلات [١٣٦٨ هـ
١٩٤٩ م] . ظهرت في فكر بعض هؤلاء الشباب - والطلاب منهم خاصة -
ولأول مرة في تاريخ الإسلاميين بحصر - أفكار تتساءل عن « إسلام » المجتمع ؟ !
وعن « إسلام » الأمة ؟ !

إن الحكومة نعلهم ، كما كان المشركون يعذبون الدين سبقوا إلى
الإسلام ! - وليس لهم من ذنب إلا الدعوة إلى الإسلام ، ديننا ودنيا ، عبادة
وشريعة ، مصحفا وسيفا . أما الأمة ففقدت اسم موقفها بالسلبية إزاء محنتهم
هذه . للأحكام العرفية التي تحكم بها البلاد . ولأن هذه الأمة لا تقبل ،
بالطبع ، إلى العنف والإرهاب . حتى لقد صنعت أعظم ثوراتها بفضاء ، ولم
تستغ العنف والدم إلا في صراعاتها مع الغزاة ؟ !

فتحت وطأة « الحقنة » التي تمارسها « الدولة » ، وأمام سلبية « الأمة »

تساءل نفر من شباب [الإخوان] - وطلابها خاصة - :

● هل المسلمون هم : « جماعة المسلمين » ؟ !

● أم المسلمون هم : « جماعة الإخوان المسلمين » ؟ !

وكان هذا السؤال ، الذى يطرح قضية « التكفير » وعودة المجتمع إلى « الجاهلية » جديداً ، بل وغريباً على مصر وعلى الفكر الإسلامى بها . لكنه - كما أسلفنا - كان مطروفاً ومتداولاً ، بواسطة الأستاذ أبو الأعلى المودودى وجماعته الإسلامية ، فى الهند ، منذ عشر سنوات . . . ومنذ ذلك التاريخ ، الذى أعقب غياب الشيخ حسن البنا بدأ فكر المودودى يتعد طريقه إلى صفوف نهر من [الإخوان] . ولعل البداية قد كانت تلك التى يحدثنا عنها أحدهم ، فيقول : « فى سنة ١٩٤٩ م ، أرسلت ، من زيارتى رقم ٢٢ بسجن مصر ، خطاباً إلى حلب ، طالباً من مكتبة الشباب المسلم مجموعة كاملة من رسائل أبو الأعلى المودودى . لأقدم من خلالها دراسة عن فكر المودودى . لأوقف عبث بعض الطلبة حينذاك . ووصلتنى ١٣ رسالة منها . وقد علمنا وتعلمنا أن لكل أرض مناخها ومناهجها وأساليبها . والإسلام واحد من لدن عليهِ خير . » (١٤) .

هكذا أُلقيت فى أرض الإسلاميين بمصر ، وللمرة الأولى « بذرة » أفكار « التكفير » و« الجاهلية » . . . صحيح أن الأغلبية قد رأت ، بعد دراسة فكر المودودى ، بالسجن ، أن فكره فى هذه القضايا هو فكر سياسى ، يرتبط بظروف المجتمع الهندى ، ولا سبيل له ولا مجال فى مصر ومماثلها . فوحدة الإسلام الدين لاثنين ، أن لكل أرض مناخها ومناهجها وأساليبها « ١٥ » لكن « البذرة » قد أُلقيت فى التربة ، محاولة التوفيق لظروف « المحنة » التى نزلت بالإخوان . . .

والذين يتبعون حركة « تأثير فكر » الأستاذ المودودى ، خارج المناخ الهندى ، ودخوله إلى الساحة المصرية والعربية ، لا يجدون هذا الفكر أثراً يذكر

(١٤) انظر كلمة وسعد سيد أحمد ، على غلاف كتاب [أبو الأعلى المودودى : فكره ودعوته] تأليف .

د سيمر عبد الحميد إبراهيم . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧ م

إلا بعد غياب قيادة الشيخ حسن البنا... ففي ظل الافتقار إلى القيادة الفكرية التي تملأ الفراغ الناجم عن استشهاده المرشد العام، خلت المساحة لفكر أبرز قادة العمل الإسلامي في ذلك التاريخ: الأستاذ المودودي! ومنذ ذلك التاريخ ذاعت ترجمة فكره للعربية، ونشر عدد من رسائله في القاهرة (١٤٥)

وبعد قيام الثورة المصرية في أول ذي القعدة سنة ١٣٧١هـ ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢م انفتح باب العلاقة بين [الإخوان] والثورة ليفضي إلى « الحقبة الثانية » الأكبر - والتي لم يسبق لها مثيل في تاريخ الجماعة على الإطلاق... وهنا بدأت « بذرة » فكر الأستاذ المودودي عن « تكفير » المجتمع و « جاهليته » تترى من دماء « الحقبة » وتنمو في مناخها... واتسعت المساحة التي بدأت تعمز بفكر « الأزمة » المتوتر - بدلا من « الفكر الطبيعي »!... فتحلق في صفوف الجماعة من حول « الأديب » الأستاذ سيد قطب [١٣٢٤ - ١٣٨٦هـ ١٩٠٦ - ١٩٦٦م] ذلك التيار الجديد... تيار الفصام الكامل مع الواقع... تيار الرفض والانقلاب... الذي انطلق من فكر المودودي - بعد أن وظفه في مناخ غير المناخ الهندي الذي أفرزه - بل وتساعد بغلوه أكثر وأكثر!

● لقد رأى المودودي في « القومية السياسية الهندية » ذات الأغلبية الهندوكية: الخطر الذي سيقضي به « ديمقراطية الأغلبية الهندوكية » على ذاتية الإسلام والتمييز الحضاري للمسلمين... فرأى في هذه القومية - وفي ديمقراطيتها - وفي سلطة جماهيرها عدوانا على « الحاكمية الإلهية »... فهي - إذن - « شرك » يرتد « بالمجتمع إلى « الجاهلية »!

(١٤٥) في ١٩٥١م طبعت بالقاهرة الترجمة العربية لكتاب المودودي «مباح الانقلاب الإسلامي» [نظرية الإسلام السياسية] في سنة ١٩٥٣م طبعت رسائله [تدوين الدستور الإسلامي]

● ورأى سيد قطب في « القومية العربية » ، التي قاد جمال عبد الناصر [١٣٣٦ - ١٣٩٠ هـ - ١٩١٨ - ١٩٧٠ م] مدحا ، وفي « ديمقراطيتها الموجهة » ، وفي سلطة الجماهير التي استقطبها المشروع « القومي - الاجتماعي » الناصري . الخطر الساحق للإسلاميين المقيدين بالأصفاة ! فحكم بعدوان هذا المشروع ، بكل مكوناته . وجميع توجهاته على « الحاكمية الإلهية » وقطع « بكفره » و « بجاهليته » !

ولما كانت « جماهير الأمة » و « عامتها » قد استقطبت للمشروع الناصري . وأيدت قيادته . فلقد خلعتها فكر هذا التيار عن « عرش الخلافة » والنيابة . التي قررها الإسلام للإنسان والأمة . عن الله . سبحانه وتعالى . لأنها قد « أشركت » في « الحاكمية » غير الله . فلم تعد - لارتدادها « بالكفر » إلى « الجاهلية » - قائمة بحق الخلافة . متمتعة بشرفها . وهنا كان تصاعد سيد قطب - غلوا - بفكر المودودي - المنسجم هو الآخر بالغلو ! . فالمودودي حكم « بالكفر » و « الجاهلية » على « المجتمع » . وقطع في هذا الحكم . ولم يحكم بها - صراحة وفي قطع - وإن كان قد فتح الباب لذلك ! - على « الأمة » أما سيد قطب . فلقد قاده هذه المقدمات المغلوطة إلى الحكم « بالكفر » و « الجاهلية » على « الأمة » و « المجتمع » جميعا !

وبدلا من « خلافة : الجماعة : الأمة » . قدم سيد قطب ، كبديل : « خلافة : الجماعة : التنظيم » . التي انفردت وتفردت بالإسلام من دون الناس . والتي عليها أن تبدأ من الصفر . كما صنع الرسول - عليه الصلاة والسلام - و « جيل الصحابة الفريد » ! .

إن « خلافة الأمة عن الله » . لم تكن تمنع قيام « الجماعة - الطليعة - المنظمة » . للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الخير ! ولكن منكم

أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . وأولئك هم
 المفلحون [١٤٦] . ولكن هذه « الجماعة - الطليعة - المنظمة » كانت جزءاً من
 « الأمة المسلمة » ، أما والأمة - في فكر هذا التيار الجديد - قد « كفرت »
 وارتدت إلى « جاهلية أظلم » من الجاهلية التي عاصرها الإسلام الأول [١٤٧] .
 فلقد انعدم الرباط الإيماني الذي يصل هذه « الجماعة - الطليعة - المنظمة »
 بـ « الأمة » ... ففدا « التنظيم الجديد » وحده : الأمة المسلمة - بالانفصال عن
 الجاهلية والاستعلاء على الكفار - والسعي - من نقطة الصفر - إلى بناء
 « العقيدة » ، وتجسيدها « بالحركة » في « الجماعة » التي عليها أن تقيم « المجتمع
 المسلم » . وينفس النهج والخطوات التي تمت في « الحقبة المكية » من دعوة
 الرسول - عليه الصلاة والسلام - إلى الإسلام !

ذلك هو « عنوان » الدعوة التي دعا إليها تيار : الرفض ... والفصام الكامل
 مع الواقع ... الذي ضم ويضم : الإسلاميين « الانقلابيين » [١٤٨] .



لقد كان حسن البنا - كما سبقته إشارتنا - يتحدث عن مصر التي « اندمجت
 بكليتها في الإسلام بكليته » عقيدته ولغته وحضارته . فظاهر الإسلام قوة
 فياضة زاهرة دافقة في كثير من جوانب حياتها . أسماؤها إسلامية - ولغتها عربية .
 وهذه المساجد العظيمة يذكر فيها اسم الله ويعلو منها نداء الحق صباح مساء
 وهذه المشاعر لا تهر لشيء اهتزازها للإسلام وما يتصل بالإسلام .

[١٤٦] آل عمران : ١٠٤

[١٤٧] سيد قطب [معالم في الطريق] ص ٢١ - طبعة القاهرة سنة ١٩٨٠ م

وكانت دعوته متوجهة إلى تخليص هذا الإسلام مما شابه من «موروث»
أضاف أو انتقص من الإسلام ، بالابتداع ، أو «وافد» غربي سعي ويسعى
لاقتلاع الإسلام من حياة الأمة . فأحدث بوجوده ثنائية في الفكر
والسلوك^(١٤٨) .

وكان المودودي - رغم ريادته - في العصر الحديث - في حديثه عن
«الحاكمية» و«الجاهلية» و«التكفير» - قد وقف عند القطع «بارتداد
المجتمع» دون «الأمة» . ولذلك كانت «الديمقراطية» والانتخابات سيلا
عنده . للإصلاح المنشود . فالأمة لم تكفر في نظره . ومن ثم فإن الاحتكام
إليها سبيل لتخليص الإسلام من «الجاهلية» الموروثة ومن جاهلية
التغريب^(١٤٩) .

لكن المودودي كان قد فتح الباب - وإن في تردد - لن يأتي فيفتحه على
مصراعيه ، مضميراً الحكم ، بكفر الأمة و«ردتها» فهو قد حكم على
«الواقع» و«الموروث» بالجاهلية . وقال إن قرن الجاهلية قد عاد إلى الظهور
منذ عصر عثمان بن عفان . ثم نفي الإسلام والإسلامية عن الدين لاجتماعهم إلى
الشريعة في القروض الاجتماعية . وعندما عرض للمجددين عبر التاريخ
الإسلامي لم يمتدح ويعجب بغير ابن تيمية [٦٦١ - ٧٢٨ هـ - ١٢٦٣ -
١٣٢٨ م]^(١٥٠) !

فلما جاء سيد قطب - في الظرف التكد الذي كتب فيه كتابه [معالم في

(١٤٨) [مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا] ص ١٢٠ ، ١٢١

(١٤٩) [موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه] ص ٤١ ، ٤٢

(١٥٠) المرجع السابق . ص ٧٣ - ٧٩

الطريق] - رأى أن الأمة قد دانت بحاكمية غير الله .. لا بمعنى أنها ركعت
وسجدت لغير الله . ولكن لأنها تلقت عن حاكمية الطواغيت « كل مقومات
حياتها تقريبا »! .. ومادامت قد أخذت « كل مقومات حياتها » عن
الطواغيت فلقد « كفرت » بالإسلام كفرانا مبيها ١٢ .

يقول سيد قطب . في الحديث عن المجتمعات الإسلامية المعاصرة :
« يدخل في إطار اجتماع الجاهلي . تلك المجتمعات التي تزعم لنفسها أنها
مسلمة ! . وهذه المجتمعات لا تدخل في هذا الإطار لأنها تعتقد بالوهمية أحد
غير الله . ولا لأنها تقدم الشعائر العبودية لغير الله أيضا . ولكنها تدخل في هذا
الإطار - [إطار الكفر والردة والجاهلية] - لأنها لا تدّين بالعبودية لله وحده في
نظام حياتها . فهي - وإن لم تعتقد بالوهمية أحد إلا الله - تعطي أخص
خصائص الألوهية لغير الله . فتدين بحاكمية غير الله . فتتلقى من هذه
الحاكمية : نظامها . وشرائعها . وقيمتها . وموازينها . وعاداتها وتقاليدها .
وكل مقومات حياتها تقريبا ! .. » (١٥١)

هنا . وهذا التشخيص . تجاوز سيد قطب موقع المودودي على درب
« تجهيل » المجتمع و« تكفيره » .. ثم استمر به السير على درب الغلو حتى صرح
بتألم يصرح به المودودي . فحكم - قاطعا - « بكفر » الأمة . وليس فقط
« المجتمع » و« الدولة » .. قطع في هذا الحكم قطع الواثق المستيقن بل لقد
حكم بكفر هذه الأمة منذ قرون وقرون ! ..

فيعد أن حكم على كل المجتمعات - المسماة « إسلامية »! - بالارتداد عن

« الشريعة » . إذ « ليس على وجه الأرض مجتمع قد قرر فعلا تحكم شريعة الله وحدها ، ورفض كل شريعة سواها » (١٥٢) . تقدم فحكم بالعدم وجود الأمة المسلمة . لا في عصرنا وحده ، بل ومنذ قرون كثيرة « فوجود الأمة المسلمة يعتبر قد انقطع منذ قرون كثيرة » (١٥٣) !

وفي مكان آخر ، يزيد هذا الحكم تأكيداً ، فيقول : « إن موقف الإسلام من هذه المجتمعات كلها يتحدد في عبارة واحدة : إنه يرفض الاعتراف بإسلامية هذه المجتمعات كلها » (١٥٤) !

ومثل « المجتمعات » ، « الناس » ، أفرادا وجماعات ، فهم - برأيه - غير مسلمين ، ولابد من دعوتهم للدخول في الإسلام من جديد . فعنده أن « المسألة في حقيقتها هي مسألة كفر وإيمان ، مسألة شرك وتوحيد ، مسألة جاهلية وإسلام ، وهذا ما ينبغي أن يكون واضحاً .. إن الناس ليسوا مسلمين - كما يدعون - وهم يحبون حياة الجاهلية .. ليس هذا إسلاماً ، وليس هؤلاء مسلمين ، والدعوة اليوم إنما تقوم لترد هؤلاء الجاهليين إلى الإسلام ، ولتجعل منهم مسلمين من جديد ! » (١٥٥)

وعبارة أخرى : يصعد بها في الغلو إلى مكان غير مطروق وحكم غير مسبوق . يعلن فيها أن هذا الكفر لم يقف عند حدود « كفر الشريعة » - كما أشار المؤدودى - بل لقد أصبح ، أيضاً ، « كفر العقيدة » فهو يقول : « ينبغي أن

(١٥٢) المرجع السابق . ص ٣٩

(١٥٣) المرجع السابق . ص ٨

(١٥٤) المرجع السابق . ١٠٣

(١٥٥) المرجع السابق . ص ١٧٣

يكون مفهومهما لأصحاب الدعوة الإسلامية أنهم حين يدعون الناس لإعادة إنشاء هذا الدين . يجب أن يدعوهم أولاً إلى اعتناق العقيدة - حتى لو كانوا يدعون أنفسهم مسلمين ، وتشهد شهادات الميلاد بأنهم مسلمون ! فإذا دخل في هذا الدين عصابة من الناس .. فهذه العصابة هي التي يطلق عليها اسم «اجتمع المسلم» ...» (١٥٦) .

لقد كفرت الأمة - برأى سيد قطب - كفر شريعة وعقيدة .. والمهمة - برأيه - هي «إعادة إنشاء هذا الدين» .. بواسطة العصابة التي آمنت بفكره .
والتي هي - وحدها - «اجتمع المسلم» .. من دون الناس أجمعين ! ١٥٧ !

* * *

هكذا تخلق في تيار اليقظة الإسلامية تيار الرفض الانقلاي . الذي حكم بكفر الواقع .. والتراث .. والاجتمع .. والأمة .. ومن ثم رفض ويرفض العمل من خلال القنوات والمؤسسات التي أقامتها الأمة .. فجميعها - بنظره - أدوات للجاهلية . قامت لتدعيم الجاهلية المهيمنة على هذه المجتمعات . ولذلك كان النهج الانقلاي الذي سلكه ويسلكه هذا الفصل من فصائل اليقظة الإسلامية ! ..

وفي إطار هذا الفصل تعدد الجماعات .. لكها جميعا تنفق في هذا التقييم للواقع وللمجتمعات الإسلامية . فهي بنظرها جميعا «جاهلية» .. وبعضها يضيف وصف «الكفر» .. وحكمه إلى وصف «الجاهلية» وحكمها . والبعض الآخر يعمم هذا الحكم على الأمة .. وهناك من يراوغ فيحكم «بالجاهلية»

دون « الكفر » . تجنبنا لسطح الجمهور . ومدا خيال الدعوة في صفوف
الجاهلير وكأن هناك فرقا بين « الجاهلية » و « الكفر » . وجاهلين ليسوا
بكفار !؟ . . .

وإذا كانت كثير من التفاصيل - في المناهج والسبل والرؤى والمواقف
السياسية - قد ميزت جماعات هذا الفصل وجمعياته . . إلا أن الجامع له هو
هذا السبيل الذي سلكه حتى تخلق في واقع اليقظة الإسلامية المعاصرة . وهذه
الأحكام التي حكم بها على واقع المسلمين ! . (١٥٧)

(١٥٧) لمزيد من التفاصيل عن هذا التيار الرافض . انظر الفصل الذي كتبه عن « تيار الرافض الكامل
لنواقع » نكتات [الصحوة الإسلامية والتحدى الحضارى] ص ١٤٣ - ١٧٢ . وكتابات [البريضة
الغالية] معرض وحوار وتقييم [طبعة القاهرة سنة ١٩٨٢ م وطبعة بيروت سنة ١٩٨٣ م وطبعة
دار البراق بتونس سنة ١٩٨٦ م

وأخيراً .. ما العمل؟؟ ..

تقد جاء على أمتنا حين من الدهر سادت في الكتابات التاريخية - سواء أكان ذلك في التاريخ السياسي أو الحضاري والفكري - أحكام وتقييمات الاستشراق والمستشرقين .. تلك التي قدمت وأبرزت قسماً «الظلم» و«الاستبداد» و«التشردم» و«المذاهب الشاذة» و«فرق الغلو» .. الخ .. الخ .. حتى ظن كثيرون أن هذا هو تاريخ الإسلام والمسلمين .. وكان الهدف الحثيث : نزع الثقة ، واستلاب الكبرياء المشروع ، حتى نواجه تحديات العصر وظهرنا غير منسود ١٤ ..

واليوم .. نواجه موقفاً شبيهاً في كثير من الكتابات التي تتحدث عن اليقظة الإسلامية الحديثة ، والمعاصرة بوجه خاص .. فكثيرون هم الذين يسلطون كل الضوء على قسماً الغلو وجماعاته ، حتى وكأنها هي كل اليقظة الإسلامية وجميع فضائلها .. والكتابات التي تبرز مواطن السخرية والأفكار الشاذة من مقولات نيار الرفض الانقلابي تكاد توهم القراء أن هذه هي كل مقولات ومقالات كل الإسلاميين ١٥ ..

و نحن ، مع رفضنا للغلو ، ونقدنا الجماعات وجمعيات تيار الرفض الإسلامي ، نود أن ننبه إلى عدد من الحقائق في هذا المقام منها :

● أن الإسلام هو فكرية - «أيدولوجية» - الأمة - وإذا كانت هذه الأمة قد اجتمعت على أصول الدين وعقائده ، فذلك ميزة كادت أن تنفرد

بها بين أهم الشرائع والرسالات أما خلافاً هذه الأمة فهي في « الفروع » المتعلقة بالخضارة والعمران ، ومنها السبل والرؤى والمناهج المرشحة لإقامة الدولة الإسلامية - وهي من الفروع - ولأسلمة الواقع والمعارف والعلوم وجميعها من مهام الحضارة ومباحثها . وليست من أصول الدين ولا من أمهات الاعتقاد ... فالخلاف فيها طبيعي . بل وصحي . وأيضاً ضرورة من الضرورات . ومن الذي يبلغ به الخيال حد تصور الاتفاق والاجتماع والإجماع في كل الفروع والجزئيات والتفاصيل بين أمة يبلغ تعدادها المليار ؟ إن ذلك مما يستحيل في حزب من الأحزاب . فما بالنا بأمة بأسرها ؟

ثم . أي خيال ذلك الذي يجمع بصاحبه حتى يتوقع براءة صفوف أمة بأسرها من الآراء المغالية والأحكام الشاذة والاتجاهات المريضة في ميدان فسيح . تختلف فيه الآراء . وتتعدد المطلقات . وتعدد الغايات ؟

إن الاختلاف بين الإسلاميين هو من الأمور الطبيعية . وشذوذ بعض الآراء وفجاجة بعض التقييمات والأحكام . هي مما يدخل في نطاق « الأمر المنتظر والمفهوم » !

● إن درجة الحدة والغلو اللتين بلغهما « الواقع » الإسلامي في مجافاته للنهج الإسلامي . عامل أساسي في تبلور هذا الفصل الرافض للانقلابي . الذي يمثل « الاحتجاج - الغاضب » على هذا الشذوذ عن نهج الإسلام . إنه « إفراط » استغزه واستغره « التفريط » .

وإذن . فنحن لسنا بإزاء « حالة غير مفهومة » وغير مبررة « تستعصى على العلاج » وإنما نحن - مرة أخرى - بإزاء ظاهرة هي مما يدخل في نطاق « الأمر المنتظر والمفهوم » ! وهو أمر ليس مستحيل العلاج . شريطة أن

يتوجه العلاج إلى « الأسباب » . وليس فقط إلى « الأعراض » !^{١٢}

● إن فصل الرفض الانقلابي - في حركة البقطة الإسلامية - يبلغ في الغلو حد اختزال تراث هذه الأمة الحضارى . فلا يقبل منه سوى ابن تيمية [٦٦١-٧٢٨ هـ ١٢٦٣-١٣٢٨ م] وتلميذه ابن القيم [٦٩١-٧٥١ هـ ١٢٩٢-١٣٥٠ م] قديما . والمودودى وسيد قطب في العصر الحديث ^{١٣} . وما عدا ذلك من تراث هذه الأمة وإبداعها الحضارى هو « جاهلية » خالصة . أو فكر شائبة وغبشنة هذه الجاهلية فأخرجته عن تصورات الإسلام !^{١٤} ..

وهذا الرأى . على شدوذه وغرابته . ليس بدعا بين الآراء الشاذة التى تزخر بها المذاهب والأنساق الفكرية .. فى إطار الماركسية - كتنظريه وأحزاب ونطبيقات . ودون .. ونهج فكرى وإبداع نظرى فى مختلف المبادئ - فى عالم الماركسية . هناك من يجترأ إلى « تروتسكى » [١٨٧٩-١٩٤٠ م] وأفكاره ومذهبه فى الثورة العالمية فقط . وهناك من يجترأ إلى « ماوتسى تونج » [١٨٩٣-١٩٧٦ م] ورأيه فى الثورة الثقافية وحده .. وهناك « الجيفاريون » .. وعشرات من منظمات الرفض والعنف التى بلغت فى الرفض مبلغ العصابات وقطاع الطريق !^{١٥} ..

ومع ذلك . فإن هذا الغلولا يثير السخرية التى تنسحب على الماركسية كلها . على النحو الذى هو حادث فى تناول ظاهرة الغلو الإسلامى !^{١٦} .. فهل الغلو طبيعى فى صفوف حركة فكرية محدودة العدد وغير طبيعى فى صفوف فكرية أمة بأسرها !^{١٧} .. أم أن العداء للخيار الإسلامى « والرغبة فى إهالة التراب على

(١٥٨) صبرى نور - جريدة [النور] - الأسبوعية - القاهرة - ٢٤ - ٩ - ١٩٨٦ م

« البقطة الإسلامية » هو السبب في اختلاف واختلال الموازين !

● إن حجم فصل الرفض الانقلابي في تيار البقطة الإسلامية محدود . لكن « الغضب » و « الاحتجاج » عادة . ينشأ من الضجيج والغبار أكبر من حجم المصدر الآتي منه « الغضب والاحتجاج » . ولذلك فإن وجود هذا الفصل - فضلا عن طبيعته - وارتباط هذا الوجود بأسبابه - فإنه لا ينشأ - عند الذين يعرفون حجم تيار البقطة الإسلامية - أي الزعاج !

» » »

إن البقطة الإسلامية : خيار أمة ، وليست « أيديولوجية » ضنوة أو نخبة أو شرعية أو حزب طليعي ، كما هو حال غيرها من « الأيديولوجيات » . أمة تتحاذر إلى ذاتها وهويتها .. وقواها « الحركة والحركة » لابد وأن تعكس تنوع الأمة وثراءها . وتمائز الرؤى والمصالح والمنطلقات ، مع وحدة الغدق : أن تعود الأمة كاملة إلى كامل إسلامها . وأن يتجدد واقعها بواسطة التجديد للدين . كي تتجاوز الأمة والواقع قيود التخلف الموروث ومسح فكرية التغريب . فننهض نهضتها المستقلة . وتعطي عطاءها المتميز إثراء للفكر الإنساني . من جديد

والقوى المحركة والمحركة - العقل القائل - في حركة البقطة الإسلامية ليست - كما يوهم البعض - فصل الرفض الانقلابي وحده . فهناك :

● الجماعات والجمعيات والأحزاب . المنتشرة في طول الوطن الإسلامي وعرضه . والتي أشرنا - في هذه الدراسة - إلى نماذج لها ..

● وهناك ما يمكن أن نسميه « التيار الحضاري » . الذي يضم مواكب وكتائب من الأعلام والدعاة والعلماء المجددين والمجتهدين في الجماعات والمعاهد الإسلامية - حكومية وأهلية - وفي مراكز البحث التي تتوفر على بحث

المراث وإحيائه . وتبويب الموسوعات الإسلامية وفهرستها . وتقنين مدونات
 الفقه الإسلامي لتيسر الانتفاع بها . والإبداع العقلي في ميادين إسلامية المعارف
 والعلوم . ورصد المتغيرات الواقعية . وفتح منافذ الاجتهاد والتجديد . الخ
 الخ . والغامع المغوية . والفقهية . والإذاعات . السمعية والمرئية .
 والصحف والمجلات ودور النشر ومنابر الفكر الإسلامية إلى آخر مواكب
 وكتائب العلماء والدعاة الذين يحملون عبء الجانب الحضارى في حركة اليقظة
 الإسلامية

وهكذا نستطيع أن نحيز في القطاع العامل والمؤثر والقائد تيار اليقظة
 الإسلامية تيارات ثلاث :

(أ) المشتغلون بمحاصرة الإسلام . يجددونها . ويصنعون البديل للحضارة
 الغربية الغازية . ويصوغون العقول القادرة على ملء المواقع التي يحتلها
 المتغربون .

(ب) وفصيل « الغضب والاحتجاج » . الرافض للواقع رفضا كاملا
 والمندفع بكليته - رغم علمه القليل - وتعصبه الكثير . وبخامسه الأكثر -
 لاقتناص « الدولة والسلطة » . استعجالا للنصر وحيى النهار .

(جـ) من هم بين بين . من الجماعات والجمعيات والأحزاب المشتغلة بالإسلام
 السياسى . من خلال القنوات الشرعية والسبل المشروعة المتاحة في
 مجتمعاتها العلمانية .

والمطلوب .. هو أن لا يكون كل فريق من هؤلاء الفرقاء فرحون بما لديهم
 وحده . ورافضون لما لدى الآخرين رفضا كاملا وحادا^(١٥٩) .

(١٥٩) انظر في تركيبة التيار الحضارى . وإدانة التيار الانقلابى مقال الأستاذ محيى الدين عطية . والعمل =

فبعث حضارة الإسلام وتجديد الدين بالاجتهاد هو السبيل لصياغة « دليل العمل » المرشد لتيار اليقظة الإسلامية . وبدونه ستضل الطريق وتفقد الاتجاه

وفصيل الرفض الانقلابي . يزول مسلمات التيار العلماني . ويتزعزع منه جماهير الشباب في مختلف الميادين والمجالات . ويلفت النظر - بغضبه واحتجاجه - إلى موكب اليقظة الإسلامية . ويلقي الرعب في قلوب الأعداء

أما الفصل الثالث - الجماعات والجمعيات والأحزاب - المتغلبة بالإسلام السياسي من خلال القنوات الشرعية والأطر المشروعة - فإنه مرشح ليكون هزة الوصل وحلقة الربط وقناة الاتصال التي « تُرشد » فصيل الرفض الانقلابي باجتهادات التيار الحضاري . ليجمع « العقل » مع « العمل » . فتنهض اليقظة الإسلامية على الساقين الاثنتين ... فإذا « تقاربت » التصورات وتآزرت الجهود .. وتساندت الخطوات . كان الغرس أجود . والنمو أسرع . والقائد أقل ..

وإذا كان « ترشيد » فصيل الرفض الانقلابي باجتهادات المفكرين الحضاريين الإسلاميين . الشرط الضروري كي لا يصل الخماس والاندفاع بمجموع الشباب المسلم إلى إحباط جديد . فإن اجتهاد « العقل المسلم » على مقربة من حرارة القلوب المسلمة الشابة . هو السبيل لإخراج كثير من مفكرينا وعملاننا من الأبراج العاجية . ومتاحف الآثار ومناطق الحفريات !

إن اليقظة الإسلامية هي أعظم ظواهر العصر الذي نعيشه . وهي طوق النجاة لخير أمة أخرجت للناس . وعلى نجاحها تتوقف صياغة « البديل

٢ = المجامع بين مفهومين : مجلة [الأمة] القطرية العدد ٧٢ - ذو الحجة سنة ١٤٠٦ هـ أغسطس سنة

الحضارى « المرشح لإنقاذ الإنسانية من المأزق والطريق المسدود للذين صنعها
الحضارة الغربية بإنسانها . ثم حاولت وتحاول - بالهجنة والاحتواء والعدوان -
فرضها على الإنسانية جمعاء .

إن الذين يسترجعون صورة الشرق يوم ظهر الإسلام . سيمثلوهم اليقين
بالحقيقة القائلة : إن حياة وإحياء الشرق وأمتة إنما هو : « هبة الإسلام » ! .
والذين ينظرون إلى صورة الشرق اليوم لا يد أن علامهم اليقين بالمأثرة
القائلة لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها : الإحياء الإسلامى .
واليقظة الإسلامية . فالإسلام هو الرسالة الخالدة لهذه الأمة الواحدة .

وكما أن الماء يحيى الأرض الموات . « فإن الله يحيى القلوب بنور الحكمة . كما
يحيى الأرض الميتة بوابل السماء »^(١٦٠) وصدق الله العظيم إذ يقول :
[يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ]^(١٦١) .

صدق الله العظيم

(١٦٠) من كلمات لقمان الحكيم لابنه - رَوَاهُ مَالِكٌ فِي الْمَوْطَأِ .

(١٦١) الأنفال : ٢٤

المصادر

- القرآن الكريم

- كتب السنة :

صحيح البخارى . طبعة دار الشعب القاهرة .

صحيح مسلم . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥ م .

سنن الترمذى . طبعة القاهرة سنة ١٩٣٧ م .

سنن النسائى . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤ م .

سنن أبو داود . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٢ م .

سنن ابن ماجه . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢ م .

سنن الداريمى . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م .

مسند الإمام أحمد . طبعة القاهرة سنة ١٣١٣ هـ .

موطأ الإمام مالك . طبعة دار الشعب . القاهرة .

آدم مثر [الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى] طبعة

بيروت سنة ١٩٦٧ م

ابن أبى الحديد : [شرح نهج البلاغة] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٩ م

ابن باديس : [كتاب آثار ابن باديس] . طبعة الجزائر سنة ١٩٦٨ م .

ابن تيمية : [العبودية] و [الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء

الشیطان] و [الواسطة بين الحق والخلق] طبعة بيروت

- دار الفكر - ضمن مجموعة التوحيد

- : [مناهج السنة النبوية] طبعة القاهرة - الأولى -
- : [الفتاوى الكبرى] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ م.
- : [رسائل ابن حزم] . طبعة بيروت سنة ١٩٨٠ م. ابن حزم
- : [المقدمة] طبعة القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ. ابن خلدون
- : [فصل المقال] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢ م. ابن رشد
- : [الطبقات] طبعة القاهرة . دار التحزير. ابن سعد
- : [هدية طيبة] و [هذه مسائل الجاهلية] طبعة القاهرة ابن عبد الوهاب
- : - المكتبة السلفية - ضمن «مجموعة التوحيد» .
- : [تهذيب تاريخ ابن عساكر] طبعة دمشق ابن عساكر
- : [أعلام الموقعين] طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م. ابن القيم
- : [المطرق الحكيمة في السياسة الشرعية] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧ م.
- : [لسان العرب] طبعة القاهرة . دار المعارف ابن منظور
- : [كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٢ م. أبو شامة
- : [كتاب الخراج] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٥ م. أبو يوسف
- : [الحركة النورية] طبعة بيروت سنة ١٩٦٧ م. أحمد صدقي الدجاني
- : [دائرة المعارف الإسلامية] طبعة القاهرة. (دكتور)
- : [الدعوة إلى الإسلام] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ م. أحمد محمد شاكر
- : [تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر] طبعة أرنولد
- : [تاريخ الإسلام] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ م. إسماعيل أحمد باغى
- : [مقالات الإسلاميين] طبعة استانبول سنة ١٩٢٩ م. (دكتور)
- : [تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر] طبعة الرياض سنة ١٤٨٤ هـ. وعصود شاكر
- : [مقالات الإسلاميين] طبعة استانبول سنة ١٩٢٩ م. الأتتري

[الأغاني] طبعة القاهرة . دار الشعب	الأصفهاني
[الأعمال الكاملة] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م .	الأفغاني
[التعليم في مصر] طبعة القاهرة سنة ١٩١٧ م .	أمين سامي (باشا)
[دائرة المعارف الإسلامية] طبعة القاهرة	ر . هاريز
[كشاف اصطلاحات الفنون] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣ م	التهانوي
[أزهار الأفكار في جواهر الأحجار] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧ م	التيفاشي
[رسائل الجاحظ] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤ م .	الجاحظ
[كتاب الحيوان] طبعة القاهرة - الثانية - .	
[عجائب الآثار في التراجم والأخبار] طبعة دار فارس بيروت .	الجبرني
[التعريفات] طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م .	الحرثاني
[الفلسفة وعلم الكلام] طبعة بيروت - ضمن كتاب «تراث الإسلام» - سنة ١٩٧٢ م	جيوم
[مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا] طبعة القاهرة . دار الشهاب .	حسن البنا
[رسالة المؤرخ الخامس] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧ م	
[الأمة والجماعة والسلطة] طبعة بيروت سنة ١٩٨٤ م .	رضوان السيد (دكتور)
[الموسوعة الفلسفية] طبعة بيروت سنة ١٩٧٤ م .	م. روزنتال (وآخرون)
[الأعلام] طبعة بيروت سنة ١٩٦٩ م	الزركلي
[اليوم والغد] طبعة القاهرة سنة ١٩٢٧ م .	سلامة موسى
	سمير عبد الحميد رضوان
[المودودي: فكره ودعوته] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧ م	(دكتور)
[معالم في الطريق] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٠ م .	سيد قطب

- شكيب أرسلان : [حاضر العالم الإسلامي] طبعة بيروت سنة ١٩٧١ م
- صبرى نور : مجلة [النور] عدد ٢٤-٩-١٩٨٦ م .
- صلى الدين البغدادى : [مراصد الاطلاع] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥ م .
- عنه حسين (دكتور) : [فى الشعر الجاهلى] طبعة القاهرة سنة ١٩٢٦ م
- : [مستقبل الثقافة فى مصر] طبعة القاهرة سنة ١٩٣٧ م .
- عبد الجبار بن أحمد
- (القاضى) : [فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة] طبعة تونس سنة ١٩٧٢ م .
- عبد الكريم الخطيب : [الدعوة الوهابية] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٤ م .
- عبد المنعم أبو بكر (دكتور) : [أختاتون] طبعة القاهرة سنة ١٩٦١ م
- على سامى النشار (دكتور) : [مناهج البحث عند مفكرى الإسلام] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧ م
- على عبد الرازق : [الإسلام وأصول الحكم] طبعة القاهرة سنة ١٩٢٥ م .
- على فهمى خشيم (دكتور) : [الجبايتان : أبو على وأبو هاشم] طبعة طرابلس - ليبيا - سنة ١٩٦٨ م .
- عمر رضا كحالة : [معجم القبائل العربية] طبعة دمشق سنة ١٩٦٨ م .
- الغزالى : [الاقتصاد فى الاعتقاد] مطبعة صبيح - القاهرة .
- قادرى حافظ طوقان : [تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٣ م .
- الفرطى : [الجامع لأحكام القرآن] طبعة القاهرة . دار الكتب المصرية
- القافقشندى : [صبح الأعشى] طبعة القاهرة . دار الكتب المصرية
- الكواكبى : [الأعمال الكاملة] طبعة بيروت سنة ١٩٧٥ م .
- المؤورى : [أدب القاضى] طبعة بغداد سنة ١٩٧١ م .
- : [أدب الدنيا والدين] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣ م

- : [الأحكام السلطانية] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣ م .
- مجمع اللغة العربية - القاهرة -: [المعجم الكبير] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ م .
- : [معجم ألفاظ القرآن الكريم] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ م .
- : [المعجم الفلسفي] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩ م .
- محمد حميد الله الحيدر
آبادي (دكتور) : [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة] طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦ م
- محمد عاطف غيث (دكتور) : [قاموس علم الاجتماع] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩ م
- محمد عبيده (الأستاذ
الإمام) : [الأعمال الكاملة] طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م
- : [الإسلام والرد على متفديه] - مجموعة أبحاث - طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨ م .
- محمد عمارة (دكتور) : [العرب والتحدى] طبعة الكويت سنة ١٩٨٠ م
- : [فجر اليقظة القومية] طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧ م . وطبعة بيروت سنة ١٩٨١ م .
- : [العلمانية وتهافتها الحديثة] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٦ م
- : [تيارات الفكر الإسلامي] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٢ م .
- سنة ١٩٨٤ م وطبعة بيروت سنة ١٩٨٥ م
- : [مسلمون نوار] طبعة بيروت سنة ١٩٧٤ م .
- : [الاستقلال الحضاري] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٣ م
- وطبعة بيروت سنة ١٩٨٦ .
- : [الصحو الإسلامية والتحدى الحضاري] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٥ م
- : [المودودي والصحو الإسلامية] طبعة بيروت سنة

- ١٩٨٦ م وطبعة القاهرة سنة ١٩٨٧ م .
- [: [الفريضة الغائبة -- عرض وحوار وتقييم] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٢ م ، وطبعة بيروت سنة ١٩٨٣ م
- محمد فؤاد عبد الباقي : [المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم] طبعة دار الشعب القاهرة .
- محمد محمد حسين (دكتور) : [الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٠ م
- محمد مختار المصري (باشا) : [التوفيقات الإلهامية] طبعة بيروت سنة ١٩٨٠ م
- عمود شاكر : [اقتصاديات العالم الإسلامي] طبعة بيروت سنة ١٩٧٩ م .
- عبي الدين عطية : مجلة [الأمة] - القطرية - عدد ذو الحجة سنة ١٤٠٦ هـ أغسطس سنة ١٩٨٦ م .
- مصطفى الفقي (دكتور) : [الأقطاب في السياسة المصرية] طبعة القاهرة سنة ١٩٨٥ م .
- المفريزي : [الحطوط] طبعة القاهرة دار التحرير
- المهدي (محمد أحمد) : [منشورات المهديّة] طبعة بيروت سنة ١٩٦٩ م .
- المودودي (أبو الأعلى) : [الطريق إلى وحدة الأمة الإسلامية] طبعة القاهرة سنة ١٤٠١ هـ
- [: [واقع المسلمين وسبل النهوض بهم] طبعة بيروت سنة ١٩٧٥ م .
- [: [الأمة الإسلامية وقضية القومية] طبعة القاهرة سنة ١٩٨١ م .
- [: [نظرية الإسلام السياسية] طبعة بيروت سنة ١٩٦٩ م .
- [: [موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه] طبعة بيروت سنة ١٩٧٥ م

- [القانون الإسلامى وطرق تنفيذه فى باكستان] طبعة
بيروت سنة ١٩٦٩ م.
- : [الحكومة الإسلامية] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧ م.
- : [تدوين الدستور الإسلامى] طبعة بيروت سنة
١٩٦٩ م.
- : [الإسلام والمدنية الحديثة] طبعة القاهرة سنة ١٩٧٨ م.
- : [مفهوم الأمة بين الدين والتاريخ] طبعة بيروت سنة
١٩٧٨ م.
- : [نهاية الأرب فى فنون الأدب] طبعة القاهرة، دار
الكتب المصرية.
- : [وثائق المؤتمر العربى الأول] طبعة بيروت سنة
١٩٨٠ م.
- : [المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى الشريف]
وينسك (أ.ى) طبعة ليدن ١٩٣٦-١٩٦٩ م.
- التويرى
- وجيه كوثرافى (دكتور)

الفهرس

٥	تمهيد
١١	هل المسلمون أمة واحدة ؟
١٦	مفهوم الأمة في أصول العربية
٢٠	أمة تنحو نحو العالمية
٤٧	هل للمسلمين حضارة متميزة ؟
٨١	تاريخ التراجع الحضارى .. وأسبابه .. ومظاهره
٩٩	فنيا يتعلق بعقلانية الحضارة العربية الإسلامية
١١٠	وفيا يتعلق بالانحراف عن شريعة الأمة
١١٢	وفيا يتعلق بالظلم الاقتصادى والاجتماعى للرعية
١١٥	وفيا يتعلق بالعروة الحضارية
١١٩	وفيا يتعلق بعلاقة الفقهاء بالسلطين
١٣٩	اليقظة الإسلامية : ١ - البدايات .. والتحديات
١٤٧	التخريب
١٥٧	اليقظة الإسلامية : ٢ - أبرز الدعوات .. والتيارات .. والجماعات
١٦٠	١ - الوهابية
١٦٨	٢ - السنوسية
١٧٥	٣ - المهديّة
١٨٥	٤ - تيار الجامعة الإسلامية
١٨٥	أعلام هذا التيار

١٩٣والمناح الذى تبلور فيه
١٩٨الموقف الوسطى (المتوازن)
٢٠٦الدولة : إسلامية .. مدنية
٢٠٩والعروبة المتميزة فى المحيط الإسلامى
٢١٦وحضارة جديدة ومتميزة
٢٢٤	٥ - جماعة الإخوان المسلمين
٢٢٧التصدى للتغريب
٢٣٠والتخلف الموروث
٢٣٣والبراءة من الغلو
٢٣٦والاستقلال السياسى
٢٣٧والاستقلال الاقتصادى
٢٤٠والعدل الاجتماعى
٢٤١والاستقلال الحضارى
٢٤٦والتفاعل الحضارى
٢٤٧عالم اليقظة الإسلامية
٢٥١وسبل التنفيذ
٢٥٣	٦ - الجماعة الإسلامية
٢٥٥رفض الجاهلية الرافدة
٢٦١وفى مواجهة الجاهلية الموروثة
٢٦٧الحاكمية الإلهية
٢٧١	٧ - تيار الرفض .. الانقلابى
٢٨٢وأخيرا .. ما العمل ؟؟
٢٨٩المصادر

رقم الإيداع : ٥٣٤١ / ١٩٨٩

التوقيع الدولي : ٣ - ٣٢٩ - ١٤٨ - ٩٧٧

مطابع الشارقة

الكتاب: ١٦ شارع جواز حسن - هاتف: ٣٩٣٤٨١١ - ٣٩٣٤٧٨

بيروت ص ب ٨١٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

الطريق إلى اليقظة الإسلامية

إن سكان العالم الإسلامي يمتلكون ميزات « الأمة الواحدة » ، وجميعهم جميعاً السمات والقسمات التي تؤلف بينهم حضارياً بالحضارة الإسلامية الواحدة ، وفي القلب والعقل من كل فرد من أفراد هذه الأمة الواحدة ، ذات الحضارة الواحدة هذه العقيدة الدينية ، التي تجمع الكل على إله واحد ، ونبي واحد ، وكتاب واحد ، وقبلة واحدة .. هي ذات العقيدة التي سبق وجعلت من قبائل الجاهلية الجاهلة المتناحرة خير أمة أخرجت للناس ، وصنعت من البداوة أعظم المنارات الحضارية التي عرفها تاريخ الإنسان .

فأين الخلل إذن ؟ .. ولماذا هذه الغفلة التي تحول بين العقيدة وبين التجدد الحضاري مرة أخرى ؟ ! .. وكيف ولماذا ومق دخلت هذه الأمة دور التوقف فالتراجع فالجمود ؟ .. وكيف السبيل إلى يقظة إسلامية تبعث حضارتنا الإسلامية من جديد ، هذا البعث الذي يجعل هذه الأمة الواحدة تتقدم إلى الإنسانية ، مرة أخرى بالإسلام - رسالتها الخالدة - لتسهم من جديد في إخراج الإنسانية من المأزق الحضاري الذي يمسك منها بالخناق ؟ ! ..